طوق الحمامة

في الإلفة والألاف

للإمام الفقيه

ابن حزم الأندلسي

أبي محمد علي بن أحمد بن سعيد

ضبط نصه وحرر هوامشه

دكتور الطاهر أحمد مكي

دكتوراه دولة من جامعة مدريد

أستاذ الأدب ووكيل كلية دار العلوم

جامعة القاهرة

الطبعة السادسة



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

مقدمة الطبعة الثانية

شاءت الظروف ألاّ تصدر الطبعة الأولى من هذا الكتاب العظيم ، محققاً فى صورته الجديدة ، إلا فى شهر أبريل من عام ١٩٧٦ م ، وبعد شهور قليلة نفدت الطبعة كلها ، رغم أن السوق نافق بطبعاته السيئة ، رديئة ومشوّهة وناقصة ، فجاء الإقبال من جانب المثقفين العرب على هذه الطبعة مؤشراً صادقاً على دلالات جديدة وهامة ، جاء :

* تقديراً للتراث حين يكون جيداً وعصرياً ويمس حياة الناس
* تقديراً لجهد بذله المحقق فى ضبط نصه ، وتحرير هوامشه ، ولم يدخر وسعاً فى مهمته .
* تقديراً لطباعة رائعة ، وإخراج فخيم ، جعل الطبعة العربية ، لأول مرة فى تاريخ الطوق ، تقف دون أن تحس بخجل ، إن لم نقل ملؤها الزهو ، إلى جانب الطبعات الأوربية الأخرى .

لقد وجدت فى الإقبال على « الطوق » تقديراً مناسباً لما بذلت فيه من عناء وجهد ، ودفعاً لمواصلة البحث والقراءة فيه وحوله ، حتى يجئ فى صورة أكمل ، وفى خلال هذه الشهور التى مضت تقدمت به نحو الكمال خطوة تحدثت عنها فى آخر الكتاب .

والله أسأل أن يكون حظ هذه الطبعة كسابقتها إقبالاً وتقديراً .

الطاهر أحمد مكى

٣ شارع مصدق - الدقى
الجيزة - مصر
ت ٧٦١٣٣٠٦

كلمة المحقق

فى نهاية النصف الأول من القرن السابع عشر ، هبط الآستانة سفير مستشرق يُدعى فون وارنر ، جاء يمثل بلاده هولندة لدى بلاط آل عثمان ، وقُدِّر له أن يبقى فيها اثنين وعشرين عاما ، من سنة ١٦٤٤ إلى ١٦٦٥ م ، لكنه ما لبث أن شُغل باهتماماته العقلية ، فولىَّ وجهه شطر المخطوطات العربية ، وقد أُشرب حبها طالبا جادّا فى مدرسة المستعربين الشهيرة فى ليدن ؛ وأصبح البحث عنها شاغله الأول ، ينسخها ويشتريها ، ويحتال عليها إن لم تواته الأولى أو الثانية ، ولم يكن فى حاجة إلى زمن أوخبرة ليدرك أنه فى عاصمة الخلافة بين ذخائر لا تنفد من التراث العربى ، جاء بها السلاطين نهبا من البلاد الأخرى ، أو نقلها العسكريون سطواً ليتبركوا بها ، ويتاجروا فيها مِن بعد .

ثم جاءته الفرصة بأبعد مما يمكن أن يجرى به خياله ، فتوفى على أيامه حاجى خليفة الشهير ، عام ١٦٥٨ م ، صاحب كتاب « كشف الظنون » ، وكان يملك واحدة من كبريات مكتبات الآستانة الخاصة ، جمعها أثناء عمله فى الجيش العثمانى ، وارتحاله عبر البلاد الإسلامية ، فى بغداد وهمدان وحلب . لقد اشترى منها وارنر ، ومن غيرها ، كتبا كثيرة بلغت ألف مخطوط ، بين عربى وفارسى وتركى وعبرى ، اشتملت على شتى العلوم ، من لغة وأدب وتاريخ ، وشريعة وفلسفة وطب ، وتنوّعت فى طابعها ، تميَّز بعضها بجمال خطه ، وبعضها بأصالته وقدمه ، وبعضها بندرته ، ثم أهدى ذلك كله إلى جامعة ليدن فى هولندة ، لتنضم إلى مخطوطات عربية أخرى كثيرة وقيمة .

وكان « طوق الحمامة » بين هذه المخطوطات النادرة . مِن أى البلاد جاء ؟ مَن صاحبه الأول ؟ ، لا أحد يدرى . وقُدِّر لهذه النسخة أن تستقر مجهولة فى مكتبة ليدن قرابة مائة وخمسة وسبعين عاما .

مع مطلع القرن التاسع عشر عهدت الجامعة إلى عدد من المستشرقين بفهرسة المخطوطات العربية التى تملكها ، وكان من نصيب المستشرق الهولندى رينهارت دوزى ، المتخصص فى الدراسات الأندلسية ، أن يكتشف نسخة « طوق الحمامة » وأن يعرّف العالم بها فى أول طبعة تصدر لفهرس المخطوطات العربية فى جامعة ليدن ، وحمل وصف المخطوطة رقم ٤٦١ من مجموعة وارنر .

وعندما نشر دوزى كتابه « تاريخ مسلمى إسبانيا » ، عام ١٨٦١ ، نقل من كتاب « طوق الحمامة » الصفحات المتصلة بقصة حب ابن حزم الأولى ، وترجمها فى فرنسية رقيقة عذبة ، فذاعت فى كل أنحاء أوربا ، وأعطت الكتاب شهرة واسعة . وعن دوزى ترجمها إلى الألمانية فون شاك ، فى كتابه « شعر العرب وفنهم فى إسبانيا وصقلية » ، وعنه ترجمها الروائى الأديب خوان فاليرا عندما ترجم الكتاب كله إلى الإسبانية ، ثم جاء من بعده مواطنه بونس بويجس فترجمها إلى اللغة الإسبانية ثانية ، من اللغة العربية مباشرة . وقد حاول بونس هذا ، ومن بعده العالم الإسبانى الجليل ميجيل أسين بلاثيوس ، أن ينشر النص العربى ، لكن الموت اختطف أولهما فى سن فتيّة ، وشُغل الثانى بكتاب « الفصل فى الملل والأهواء والنحل » لابن حزم ، وهو أقرب إلى اهتماماته الفلسفية ، فلم يقدر للمحاولة أن تتم .

وفى صيف ١٩٠٧ سافر المستشرق الروسى الشاب د . ك . بتروف إلى مدينة تيوبنجين فى ألمانيا ، ليلقى الأستاذ زايبولد ، وكان المستشرق الألمانى الوحيد المتخصص فى الدراسات الأندلسية ، فحمل بتروف على أن ينشر النص العربى لطوق الحمامة . وعاد المستشرق الروسى إلى مقره فى مدينة بطرسبرج ، والتى ستعرف فيما بعد باسم لينينجراد ، وكان يعمل أستاذاً فى جامعتها الإمبراطورية ، وفى ذهنه أن يدفع بالفكرة إلى حيّز الوجود ، لكن مواطنه المستشرق البارون روزن (١٨٤٩ – ١٩٠٨) وكان أكبر منه عمراً ، وأعرق فى مجال الاستشراق ، اعترض عليه ، فقد رأى أن قيام مستشرق ناشئ بمثل هذه المحاولة ، معتمداً على مخطوطة وحيدة ، عمل بالغ الصعوبة ، ومحفوف بالمخاطر .

لكن بتروف مضى فى المحاولة ، وعاونه مواطنه المستشرق كراتشكوفسكى فى تصحيح تجارب الطبع ، وصدرت الطبعة الأولى للنص العربى كاملا ، فى سلسلة الكتب التى

تنشرها كلية الآداب ، فى جامعة بطرسبرج الإمبراطورية ، وطبع فى مطبعة بريل العربية الشهيرة فى ليدن ، عام ١٩١٤ . ولا يملك المرء إلاَّ أن ينحنى تقديراً لهذه المحاولة الجريئة ، لقد بذل بتروف جهداً عظيما ، فأعطانا صورة صادقة للمخطوطة ، وضبط الشعر بالشكل ، وبعض كلمات النص ، وألحق به فهرسا للقوافى ، واخر للأعلام ، وقدّم له باللغة الفرنسية فى صفحات تبلغ الثمانى والثلاثين . وكان موفقاً فى محاولته إلى حد بعيد . لكنه لم يكن متخصصا فى الدراســـــات الأندلسية ، وكانت على أيامه فقيرة وواهنة خارج نطاق إسبانيا ،فلم يصلح من أخطاء الأصل إلاَّ قليلا من الألفاظ ، التى يمكن تداركها للوهلة الأولى .

ولكن ذلك لا يمس روعة العمل الذى قام به ، فما أشد صعوبة الخطوة الأولى ، وأشق إنجاز العمل الرائد ! .

غير أن النص العربى ، كبقية النصوص العربية الأخرى التى طُبعت فى أوربا ، ظل محدود الانتشار للغاية ، حتى أن نسخاً منه لمَّا تزل معروضة للبيع حتى يومنا ، ومع هذا أثار اهتمام كافة المستشرقين ، وعُنى به كبارهم ، فعلّق على الطبعة العربية كل من بروكلمان وجولد تسيهر ، وأشادا بالعمل ، وصححا بعض ماوقع فيه من أخطاء، ومن الطبيعى أن تحدث فى كتاب ينشر للمرة الأولى ، عن مخطوطة وحيدة .

نشر بتروف الكتاب عن مخطوطة مجموعة وارنر ، وجاءت فى ٢٧٦ صفحة ، مجلّدة ، وتتراوح مسطرتها بين عشرة أسطر وخمسة عشر سطرا ، واضحة الخط ، مشكلولة الشعر ، وكُتبت منها العناوين ، وأمثال كلمات : « حدّث » و« خبَر » بالحبر الأحمر ، بخط أكبر قليـلا من المعتـاد فى بقيـة النص . والناسخ يقظ جداً ، لا يخونه قلمه إلا نادراً ، وإنما يجئ الغموض من صعوبة المعنى ، وهى ليست بخط المؤلف ، وإنما كتبها ناسخ مولع بالنص ، وفرح بقدرته على إكمال نسخه ، وأتمه فيما يقول ، فى مستهل رجب الفرد سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة (٧٣٨ هـ = ١٣٣٧ م) أى بعد وفاة ابن حزم بما يقرب من ثلاثة قرون . ولم يعطنا أية إشارات إلى النسخة الأم التى نقل عنها ، ولا يذكر أنه عارض ما نسخ بما نسخ عنه .

ولا نعرف الناسخ ، ولا المكان الذى أتم فيه عمله ، وفيما يبدو قام به رغبة فى اقتناء الكتاب ، ولم ينسخه مأجوراً عليه ، ولا قاصداً بيعه ، وسجل على نفسه أنه : « حذف

أكثر أشعارها ، وأبقى العيون منها ، تحسينا لها ، وإظهاراً لمحاسنها ، وتصغيراً لحجمها ، وتسهيلا لوجدان المعانى الغريبة من لفظها » .

وأراه حذف أكثر الشعر ، وأضاع علينا نصوصا هامة ، فقد كان ابن حزم فى أشعاره طويل النفس ، ثرىّ المدد ، لا يكتفى بالمقطوعة ، ولا يقنع بالقصيدة العادية ، مغرما بالطوال منها ، وشاهدنا على ذلك قصيدة طويلة وحيدة ، جاءت فى ٨٦ بيتا ، وأبقى عليها الناسخ كاملة ، ربما لأنها جاءت فى آخر الكتاب ، فأراد أن يسوّد بها ماتبقى لديه من صفحات بيضاء ، أو لأنها جاءت من الشعر الوعظى المحبّب إلى نفسه .

وشاهدنا عليه أيضاً ، طابع ابن حزم فيما وصلنا من ديوان شعره ، وأنا بصدد تحقيقه ونشره ، فقصائده فيه ، جاءت فى عدد منها لا بأس به من القصائد الطوال .

ولا أظن الناسخ وقف باختصاره عند الشعر وحده .

فقد أورد لنا المقّرى ، فى كتابه نفح الطيب ، فى الجزء الثانى ، ص ٢٨٨ ، القصة التالية : « قال ابن حزم فى « طوق الحمامة » : إنه مرّ يوما هو وأبوعمر ابن عبد البر ، صاحب « الاستيعاب » ، بسكّة الحطابين من مدينة إشبيلية ، فلقيهما شاب حسن الوجه ، فقال أبومحمد : هذه صورة حسَنة ، فقال له أبوعمر : لم نر إلاّ الوجه ، فلعل ما سترته الثياب ليس كذلك ، فقال ابن حزم ارتجالا :

وذى عَذَل فيمن سبانى حُسْنُهُ ... يطيل ملامىِ فى الهوى ويقولُ :
أمــن أجل وجهٍ لاح لم تــر غيره ... ولم تدر كيف الجسمُ ، أنت عليل
فقلت له : أسرفتَ فى اللوم فاتّئدْ ... فعندىَ ردٌّ لو أشاء طويل
ألم تر أنّى ظاهـــــرىٌّ وأنّنى ... على ما أرى حتى يقــوم دليل

وهذه القصة ساقطة من نسخة « الطوق » التى بين أيدينا ، ولا يمكن ردّها بالشك فى رواية المقّرى ، لأن جوّها أشبه الأجواء بما فى « الطوق » . وأزعم أن يد الناسخ امتدت إلى ما هو أكثر منها ، مما لم يرض من حكايات وقصص « الطوق » ، وأكاد أقول ، وإلى مالم يفهم من قضاياه أيضاً .

وبعد طبعة بتروف بسبعة عشر عاما ، قام محمد ياسين عرفة ، صاحب مكتبة عرفة فى دمشق ، بطبع النص العربى ثانية، عام١٣٤٩ هـ – ١٩٣٠ م ، وصدّره بفقرات مقتبسة ومترجمة عن مقدمة بتروف للكتاب باللغة الفرنسية ، وبموجز لحياة ابن حزم ،

وقدم له من دعاه شاعراً كبيراً محمد البزم . وكانت الطبعة قريبة من طبعة بتروف ، بعد أن حذف الناشر منها الفهارس ، واستغنى عن ضبط الشعر ، برغم أنه جاء مضبوطا كله فى الأصل ، وفى طبعة المستشرق الروسى ، ولم يتقدم بالنص خطوة واحدة نحوما هو أصوب وأدق

وفى عام ١٩٤٩ ظهرت الطبعة الثالثة باللغة العربية لكتاب « طوق الحمامة » ، قام عليها المستشرق الفرنسى ليون برشيه ، وكان يعمل أستاذاً فى كلية الآداب بجامعة الجزائر ، وفى مدينة الجزائر نفسها صدرت ، ولكن دائرة ذيوعها كانت محدودة للغاية ، وقد بذل برشيه ، وهو معروف بأبحاثه اللغوية ، جهداً طيبا فى تصحيح الأخطاء ، ولكنها أعتى منه ، فلم يستطع غير تصويب القليل ، غير أن تعليقاته اللغوية والفقهية ذات أهمية كبرى .

وبعد هذه الطبعة بعام واحد ، قام الأستاذ حسن كامل الصيرفى بطبع الكتاب للمرة الرابعة فى القاهرة ، عام ١٩٥٠ ، والحق أنه حاول أيضا أن يصحح بعض كلمه ، وأن يقوّم بعض أبيات شعره ، وزادُه شاعرية قادرة ، ومعرفة باللغة متمكنة ، وهما وحدهما لا تكفيان .

كان الكتاب فى حاجة إلى من يعرف الأندلس تاريخا وتراثا وحضارة ، يأخذ من ذلك كله ، ليقوّم نصّا صعباً جاءنا فى مخطوطة وحيدة ، وكان حظ الأستاذ الصيرفى من المعرفة بالأندلس متواضعا فيما يبدو ، ومن ثمّ فإن جهوده لم تغن شيئا . جاء الكتاب وعدد من فقراته مضطرب خاطئ ، ومعظم الأسماء الواردة فيه مغلوط مشوّه ، وجاء الطابع فأفسد ضعف ما أصلح الناشر ، فسقطت من الكتاب جمل وكلمات ، ضاع معها المعنى أو اضطرب ، فكانت هذه الطبعة ، برغم ما بذل فيها من جهد ، وبرغم أنها طبعت ثانية عام ١٩٦٤ أسوأ من طبعة دمشق ومن طبعة بتروف .

صحيح أن الأستاذ إبراهيم الإبيارى قدمّ لهذه الطبعة ، وتربطه بالأندلس أوشاج من النسب ، ولكنه فيما بدا لى كتب المقدمة مجاملا عجلا ، وليس مشاركا مسئولا ، فلا أكاد أتصوّر أن الرجل الذى عاش حياته قارئا وكاتبا ومحققا يمكن أن يخطئ فى موطن ستندال ، فينسبه إلى إيطاليا وهو أديب فرنسى شهير . ولا أكاد أتصور أن يقول : « جيران صاحب المرية » ، لمجرد أنها وردت فى الأصل كذلك ، ومن له أدنى معرفة

بالأندلس يعرف أن صحتها « خيران » .

كان من الضرورى أن يتقدم دارس ليصنع من أجل « طوق الحمامة » شيئا ، أن يقترب به على الأقل من مستوى الترجمات الأجنبية ، ووجدتنى مدفوعا إلى هذا العمل . لقد نما هذا الإحساس عندى منذ بدأت أتردّد بين صفحات الكتاب فكراً وإحساسا ونظرا ، وأعانى الكثير من غموض النص ، ومن تحريف الأسماء ، ومن غيبة الهامش . وبدا لى للحظات كثيرة أن المهمة عسيرة ، فترددت ، فليس أصعب من تحقيق كتاب مخطوطته وحيدة ، ونصه ملىء بالأخطاء ، والناقلون عنه قلة لا يذكرون ، أو إن شئت الدقة لا يوجدون . وأخيراً صحّ العزم منى ، لأن التقدّم خطوة إلى الإمام ، خير من الإحجام والوقوف به حيث كان . وقد أفدت من جهود المستشرقين قبلى ، وهى كبيرة وجليلة ، وعلى الأخص ما قام به الإسبانى الأستاذ إميليو غرسية غومث ، وما قام به الفرنسى ليفى بروفنسال .

لكن « طوق الحمامة » ليس نصاً يقوّم ، ولا هوامش تحرّر ، ولا أعلاماً يعرف بها فحسب ، وإنما هو قبل ذلك خلق أدبى عميق ، وثقافة علمية أصيلة ، وهو فى كل صفحة ، ووراء كل خبر ، يثير عدداً من القضايا الهامة والخطيرة .

حين وقف دوزى على قصة الحب الرقيقة لابن حزم ، استكثرها على العرب ، وعلى المسلمين ،برغم أن الرجل علمانى لا يحب الكنيسة ولا يتعاطف مع رجال الدين ، وقال إن هذا الغزل العف ، لا تعرفه الأخلاق العربية ، ولا الديانة الإسلامية ، وأنه تحدّر إلى ابن حزم إرثاً من أجداده الأُول المسيحيين .

وتصدى له ميجيل أسين بلاثيوس ، فى دراسته عن ابن حزم ، فنّد آراءه ، ووضع كل شىء فى مكانه الصحيح ، بقدر ما تتيح الكنيسة لرجالها من حرية فى الرأى والتفكير ، فقد كان بلاثيوس راهباً ، لاينشر شيئاً قبل أن يمرّ على الرقيب الكنسى .

وعندما نقرأ كتاب « الحب المحمود » لكاهن بلدة هيتا الإسبانى ، نحسّ بأن الرجل قرأ ابن حزم ، وأفاد منه ، وسار على خطوه ، برغم أنه جاء بعده إلى الحياة ، فى الجانب المسيحىّ ، بفترة من الزمن تبلغ حوالى ثلاثة قرون .

وقد استوقف نظر غرسية غومث الشبه بين أفكار « باب السفير » ، وبين رواية فرناندو دى روخاس (١٤٥٣ – ١٥٤١ م) ، ويمكن ترجمة عنوانها : « بالقوّادة

La Celestina ، دون أن يذهب إلى أبعد من هذه الإشارة .

وطوّف كتاب « الطوق » ، شرّق وغرّب على نحو لم يعرفه غير قليل من كتب التراث العربى ، ونقل إلى بعض اللغات فى أكثر من ترجمة ، وكان حرِيًّا بنا أن نقف عند هذه التراجم كلها .

والكتاب سيرة ذاتية ، أو هو قريب منها ، للجانب العاطفى من حياة ابن حزم ، وهادٍ إلى الحياة العاطفية لعدد من معاصريه ورفاقه ، ممن شغلوا مناصب رفيعة ، فى الإدارة والقضاء والجيش على أيامه . وإذا كان الكتاب مصدراً هاما لهذا الجانب من حياة فقيه قرطبة العظيم ، فإن تتبّع خطاه فى رحلة الحياة أمر ضرورى لإلقاء بعض الضوء على فصول الكتاب ، وإنارة أحداثه ، وتفسير ما وراء جمله ومعانيه .

وكان لعدد من علماء الأجانب ، مستشرقين ومفكرين لا يعرفون من العربية حرفا ، رأى فى الكتاب . لقد قدَّم الفيلسوف الإسبانى العالمى أورتيجا إى جاسيت للترجمة الإسبانية ، وقال رأيه فى فكر ابن حزم ، وأبدى آخرون آراءهم فى لغات أخرى ومهمّ أن يعرف القارئ العربى كيف يرى غيرنا هذا العالم الجليل ، ومن هنا كانت ترجمة هذه الفصول ، أو بعضها ، ضرورة لا مناص منها .

كل ذلك وأكثر منه دار بخاطرى ، وأخذت له أهبتى ، وحررت منه فصولاً كثيرة ، تتصل بعدد من هذه القضايا ، ثم وجدتها تتجاوز حجم الكتاب ، فلم أشأ أن أجعلها مقدمة له ، وآثرت أن أجمعها فى دراسة مستقلة ، وإنْ ربطتها بالنص نفسه أقوى الوشائج ، فلا يقرأ أحدهما بمعزل عن الآخر ، وسوف تصدر قريبا بعنوان : « دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة » .

لقد قوّمت الفقرات المضطربة ، وصوّبت الأسماء المحرّفة ، وعرّفت بالأعلام ما كان ممكنا ، صنعت ذلك ما أعانتنى عليه كتب التاريخ والمصادر الأخرى، وأبقيت الجمل الغامضة على ما هى عليه ، خشية أن يكون تقويمى لها ، إهدارا لفكرة أرادها المؤلف ، أو عدوانا على غاية ارتضاها ، أو انحرافا بما خفى من رأيه ، أو انعطافا نحو جانب ما فكّر فيه ، ولو بعث اليوم حيًّا لأنكره غاضبا .

كان « طوق الحمامة » أروع كتابٍ دَرَسَ الحب فى العصر الوسيط ، فى الشرق والغرب ، فى العالمين الإسلامى والمسيحى ، تتبع أطواره ، وحلّل عناصره ، وجمع بين

الفكرة المفلسفة والواقع التاريخى ، وواجه أدق قضاياه فى وضوح وصراحة ، وكان ابن حزم الدارس الواقعى فى كل خطاه ، أفكاره محلّقة ، وقدماه على الأرض ، ويصدر فى نظرته عن تجربة عميقة ، ذات أبعاد إنسانية واسعة ، وعن إدراك ذكىّ لطبائع البشر وسير الحياة ، فجاءت نتائجه صادقة ، لمّا تفقد بريقها ولا توهّجها ، وإنها لتقف الآن فى مستوى أرقى الدراسات عن الجنس والحب .

وأشهد أننى وقفت أكثر من مرة أمام بعض الحقائق ، وبعض الفقرات ، كان فيها ابن حزم ، كعادته ، جريئا صريحا ، مرتفع الصوت ، لا يُكنى ولا يُلمح ولا يشير ، وإنما يعالج قضاياه مفكرا دارسا ، لا يتأثّم ولا يتردّد ، وهممت أن أدع هذه الفقرات ، ومع شيء من الفكر والتأمل ، رأيت ذلك جرما ، لا فى حق النص فحسب ، وإنما فى حق التراث العربى ، وفى حق أجيالنا الصاعدة فى أن تعرف كل شيء .

إن ما يرتضيه ابن حزم الأديب العالم ، والفقيه الظاهرى ، وما يقبله ذوق المسلمين فى قرطبة الزاهرة ، عاصمة الأندلس أيام الخلافة ، وما بعدها ، فى القرن العاشر الميلادى وما تلاه ، ليس تديّنا ولا ورعا ولا تطورا ولا محافظة أن ترفضه قاهرة القرن العشرين ، ورائدة النهضة فى العالمين العربى والإسلامى ، ومن هنا أبقيت النص على حاله كاملا .

وبعد ،

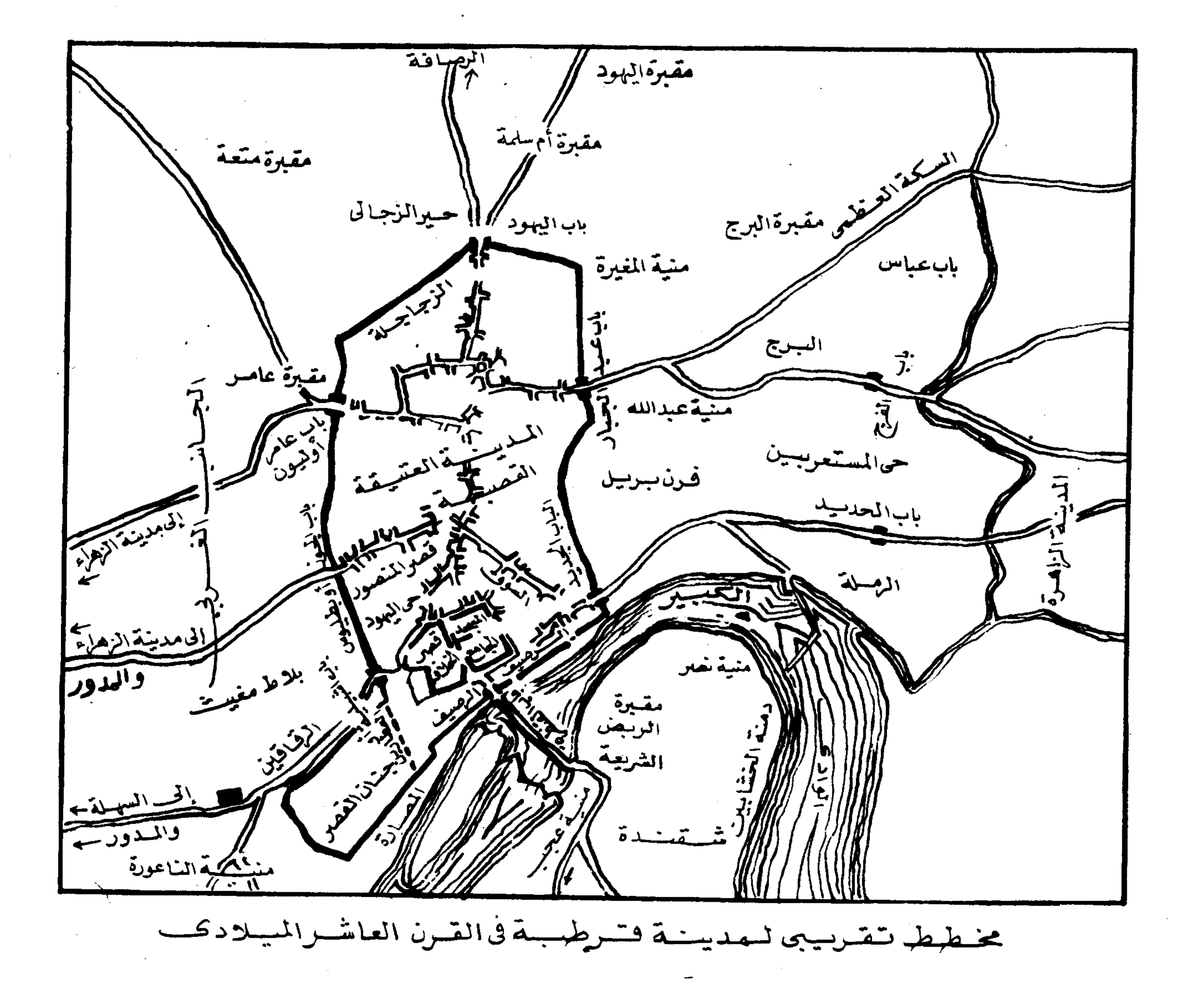
فالكتاب بين يدى القارئ ، ولست أقول إننى بلغت به كل ما أريد ، ولكنى أزعم أننى تقدمت به على طريق الصواب خطوات .

ولعل فى قادم الأيام مايعيننا على أن نبلغ به حد الكمال . والله ولى التوفيق .

٣٩ شارع المراغى – العجوزة
القاهرة الكبرى

٢٧ من جمادى الآخرة ١٣٩٥
٧ من يولية ١٩٧٥

الطاهر أحمد مكى



مخطط تقريبى لمدينة قرطبة فى القرن العاشر الميلادى

طـوق الحـمَامَة
فى الإلفة والألّاف

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وبه نستعين

قال أبو محمد عفا الله عنه :

أفضلُ ما أبتدئ به حمد الله عزّ وجلّ بما هو أهله ، ثم الصلاة على محمد عبده ورسوله خاصة ، وعلى جميع أنبيائه عامة .

وبعد :

عصمنا الله وإياك من الحيرة ، ولا حملنا مالا طاقة لنا به ، وقيض لنا من جميل عونه دليلا هادياً إلى طاعته ، ووهبنا من توفيقه أدبا صارفا عن معاصيه ، ولا وكَلنا إلى ضعف عزائمنا ، وخَوَر قوانا ، ووهاء بنيتنا ، وتلدد آرائنا ، وسوء اختيارنا ، وقلة تمييزنا ، وفساد أهوائنا .

فإن كتابك وردنى من مدينة المرية[1] إلى مسكنى بحضرة شاطبة[2]، تذكرُ

---

(١) المرية Almeria : ثغر هام على شاطئ البحر الأبيض المتوسط ، أمر ببنائها عبد الرحمن الناصر عام ٣٤٤ هـ = ٩٥٥ م ، وعظمت فى دولة المنصور بن أبى عامر . وكانت إحدى القواعد البحرية الهامة للأسطول الإسلامى ، عامرة بصناعات النسيج وتطريز الثياب ، وآلات الحديد والنحاس ، وميناء هام للاستيراد والتصدير ، تقصدها مراكب التجار من الإسكندرية والشام ، وبها محط مراكب النصارى ، ومجتمع ديوانهم ، ومنها كانت تسفر لسائر البلاد بضائعهم ، ومنها كانوا يوسقون البضائع التى تصلح لهم . ويقول عنها عبد المنعم الحميرى : لم يكن بالأندلس أكثر من أهلها مالا ، ولا أعظم متاجر وذخائر ، وكان فيها قريباً من ألف فندق . وقد ألف فيها أبو جعفر ابن خاتمة تاريخاً كاملاً أسماه : « مزيّة المرية على غيرها من البلدان الأندلسية » ، لما تزل مخطوطته ضائعة ، وكانت موجودة حتى أيام المقّرى صاحب كتاب « نفح الطيب » ، المتوفى عام ١٠٤١ هـ = ١٦٣٢ م ، وقد قرأها وأفاد منها . وهى الآن من كبريات المدن الأسبانية الواقعة على البحر الأبيض ، ويبلغ عدد سكانها زهاء مائة ألف ، وما تزال قلعتها العربية قائمة ، وازدهرت فى الأعوام الأخيرة بفضل السياحة ، ويربطها بمدينة مليلة على الشاطئ المغربى خط بحرى منتظم . انظر :

* الحميرى ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم : كتاب الروض المعطار فى خبر الأقطار ، وقد انتخب منه ليفى بروفنسال الفصول الخاصة بالأندلس ، ونشرها بعنوان : صفة جزيرة الأندلس ، ص ١٨٣ - ١٨٤ ، القاهرة ١٩٣٧ .
* المقرى : نفح الطيب ، طبع محيي الدين عبد الحميد ، جـ ١ ص ١٥٣ و ١٥٤ ، و جـ ٤ ص ٢٠٦ ، القاهرة ١٣٦٧ هـ = ١٩٤٩ م .

(٢) شاطبة Jàtiva : مدينة عتيقة ، وكانت تسمى قديماً Saetabis ، وهى من أعمال محافظة بلنسية ،

من حسن حالك ما يسرّنى ، وحمدت الله عز وجل عليه ، واستدمته لك ، واستزدته فيك .

ثم لم ألبث أن اطلّع على شخصك ، وقصدتنى بنفسك ، على بعد الشُّقة ، وتنائى الديار ، وشَحَط المزار ، وطول المسافة ، وغوّل الطريق . وفى دون هذا ما سلّى المشتاق ، ونسّى الذاكر ، إلاّ من تمسك بحبل الوفاء مثلك ، ورعى سالف الأذمّة ، ووكيد المودّات ، وحق النشأة ، ومحبة الصبى ، وكانت مودته لله تعالى .

ولقد أثبت الله بيننا من ذلك ما نحن عليه حامدون وشاكرون ، وكانت معانيك فى كتابك زائدة على ما عهدته من سائر كتبك ، ثم كشفت إلى بإقبالك غرضَك ، وأطلعتنى على مذهبك ، سجيّة لم تزل علينا من مشاركتك لى فى حلوك ومرك ، وسرك وجهرك ، يحدوك الودّ الصحيح الذى أنا لك على أضعافه ، لا أبتغى جزاء غير مقابلته بمثله .

وفى ذلك أقول مخاطبا لعبيد الله بن عبد الرحمن بن المغيرة بن أمير المؤمنين الناصر[٣] رحمه الله ، فى كلمة لى طويلة ، وكان لى صديقا :

أودُّك وُدّاً ليس فيه غضاضـــةٌ وبعضُ مودَّات الرجالِ سَرابُ

وتقع فى الجنوب الغربى منها على بعد ٥٦ ك . م . ، واشتهرت فى العصر الإسلامى بصناعة الورق ، ونسب إليها ، ولا تزال حتى اليوم مركزاً هاماً لصناعته . وإليها ينسب أبوالقاسم محمد بن فِيرُه الرعينى الشاطبى ، المتوفى فى القاهرة عام ٥٩٠ هـ = ١١٩٤ م ، وشُهر بأرجوزته « حرز الأمانى ووجه التهانى » ، وأوجز فيها كتاب « التيسير » لأبى عمرو الدانى ، المتوفى ٤٤٤ هـ = ١٠٥٣ م ، فى القراءات ، وشهرت باسم « الشاطبية » . وإليها ينسب أيضاً أبوعبد الله محمد بن سليمان المعافرى الشاطبى ، وعاش فى القرن السابع الهجرى ، الثالث عشر الميلادى ، وجاء مصر ، واتخذ من الاسكندرية سكناً ، وتوفى بها ، وإليه ينسب حى الشاطبى فى المدينة الآن .

وقد سقطت شاطبة نهائياً فى يد الكاثوليك ، بقيادة خايمة الأول ، ملك أرجون ، عام ١٢٤٠ م .

(٣) عبد الرحمن الناصر أعظم أمراء بنى أمية بالمغرب سلطاناً ، وأطولهم فى الخلافة مدة وزماناً ، وحكم من ٣٠٠ هـ = ٩١٢ م إلى ٣٥٠ هـ = ٩٦١ م .

انظر ترجمته فى :

- الحميدى : جذوة المقتبس ص ١٣ .
- ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ٢ ص ١٦١ .
- ابن الأبار : الحلة السيراء ، جـ ١ ص ١٩٧ .
- المقرى : نفح الطيب ، جـ ١ ص ٣٣٠ وما بعدها .

ونعرف أن ابنه المغيرة توفى عام ٣٦٥ هـ = ٩٧٦ م ، أما البقية فلم أجد لهم ذكراً فيما بين يدى من مصادر .

وأمحضتك النصحَ الصريحَ وفى الحشى لــوُدِّك نــقشٌ ظــاهــرٌ وكــتــاب
فلو كان فى رُوحى هواكَ اقتلعتُـه ومُــزِّق بالكفين عنــه إهابُ
وما لى غيرُ الــودّ منك إرادةٌ ولا فى سواه لى إليك خطاب
إذا حُزْتُهُ فالأرضُ جمعاءُ والــورى هبــاءٌ وسكانُ البلاد ذُباب

وكلفتنى – أعزك الله – أن أصنف لك رسالة فى صفة الحب ومعانيه وأسبابه وأعراضه ، ومايقع فيه وله على سبيل الحقيقة ، لامتزيداً ولا مفننا ، لكن مُورداً لما يحضرنى على وجهه ، وبحسب وقوعه ، حيث انتهى حفظى وسعة باعى فيما أذكره ، فبدرت إلى مرغوبك ، ولولا الإيجاب لك لما تكلفته ، فهذا من اللغو ، والأَوْلى بنا مع قصر أعمارنا ألّا نصرفها إلّا فيما نرجو به رَحْبَ المنقلب ، وحسن المآب غدا وإنْ كان القاضى حُمام بن أحمد(٤) حدّثنى عَن يحيى بن مالك ، عن عائذ بإسناد يرفعه إلى أبى الدرداء أنه قال : أَجِمُّوا النفوس بشىء من الباطل ليكون عونا لها على الحق ومن بعض أقوال الصالحين من السلف المرضى : « من لم يحسن يتفتّى لم يحسن يتقرى » وفى بعض الأثر : « أريحوا النفوسَ فإنها تصدأ كما يصدأ الحديد »

والذى كلفتنى لابد فيه من ذكر ما شاهدتْه حضرتى ، وأدركتْه عنايتى ، وحدّثنى به الثقات من أهل زمانى ، فاغتفرْ لى الكناية عن الأسماء ، فهى إمّا عورة لا نستجيز كشفها ، وإمّا نحافظ فى ذلك صديقاً ودودا ورجلا جليلا وبحسبى أن أسمىّ من لا ضرر فى تسميته ، ولا يَلحقنا والمسمّى عيب فى ذكره ، إمّا لاشتهار لا يُغنى عنه الطى وترك التبيين ؛ وإمّا لرضا المُخَبَّرُ عنه بظهور خبره ، وقلة إنكار منه لنقله

وسأورد فى رسالتى هذه أشعاراً قلتُها فيما شاهدته ، فلا تنكر أنتَ ومن رآها علىّ أنى سالك فيها مسلك حاكى الحديث عن نفسه ، فهذا مذهب المتحلّين بقول الشعر ، وأكثر من ذلك فإن إخوانى يجشموننى القولَ فيما يعرِض لهم على طرائقهم ومذاهبهم .

---

(٤) كان واحد عصره فى البلاغة ، وفى سعة الرواية ، حسن الشعر ، تولّى قضاء يابرة وشنترين والأشبونة ، وسائر الغرب ، وأثنى عليه ابن حزم كثيراً ، توفى ٤٢١ هـ = ١٠٣٠ م . انظر ترجمته فى :

• ابن بشكوال : الصلة ، ترجمة رقم ٣٥٠ ، طبعة القاهرة ١٩٦٦ .

وكفانى أنى ذاكر لك ما عَرَض لى مما يشاكل ما نحوتُ نحوه وناسبه إلىّ .

والتزمتِ فى كتابى هذا الوقوفَ عند حدك ، والاقتصار على ما رأيت أو صح عندى بنقل الثقات ، ودعنى من أخبار الأعراب والمتقدّمين ، فسبيلُهم غير سبيلنا ، وقد كثرت الأخبار عنهم ، وما مذهبى أن أنضى مطية سواى ، ولا أتحلى بحلى مستعار ، والله المستغفر والمستعان ، لا رب غيره .

* * *

وقسمت رسالتى هذه على ثلاثين بابا ، منها فى أصول الحب عشرة . فأولها باب [فى ماهية الحب] ، ثم باب فى علامات الحب ، ثم باب فيه ذكر من أحب فى النوم ، ثم باب فيه ذكر من أحب بالوصف ، ثم باب فيه ذكر من أحب من نظرة واحدة ، ثم باب فيه ذكر من لا تصح محبته إلا مع المطاولة ، ثم باب التعريض بالقول ، ثم باب الإشارة بالعين ، ثم باب المراسلة ، ثم باب السفير .

ومنها فى أعراض الحب وصفاته المحمودة والمذمومة اثنا عشر بابا ، وإن كان الحب عرضا والعرض لا يحتمل الأعراض ، وصفة والصفةُ لا توصف ، فهذا على مجاز اللغة فى إقامة الصفة مُقام الموصوف ، وعلى معنى قولنا : وجودنا عرضا أقل فى الحقيقة من عرض غيره ، وأكثر وأحسن وأقبح فى إدراكنا لها عِلْمُنا أنها متباينة فى الزيادة والنقصان من ذاتها المرئية والمعلومة ؛ إذ لا تقع فيها الكمية ولا التجزِّى ، لأنها لا تشغل مكانا ، وهى : باب الصديق المساعد ، ثم باب الوصل ، ثم باب طى السر ، ثم باب الِكشف والإذاعة ، ثم باب الطاعة ، ثم باب المخالفة ، ثم باب من أحب صفة لم يُحب بعدها غيرها مما يخالفها ، ثم باب القنوع ، ثم باب الوفاء ، ثم باب الغدر ، ثم باب الضنى ، ثم باب الموت .

ومنها فى الآفات الداخلة على الحب ستة أبواب ، وهى : باب العاذل ، ثم باب الرقيب ، ثم باب الواشى ، ثم باب الهجر ، ثم باب البين ، ثم باب السلو .

من هذه الأبواب الستة بابان لكل واحد منهما ضدٌّ من الأبواب المتقدمة الذكر ، وهما : باب العاذل وضده باب الصديق المساعد ، باب الهجر وضده باب الوصل .

ومنها أربعة أبواب لاضد لها من معانى الحب ، وهى : باب الرقيب وباب

الواشى ، ولا ضد لهما إلاّ ارتفاعهما . وحقيقة الضد ما إذا وقع ارتفع الأول ، وإنْ كان المتكلّمون قد اختلفوا فى ذلك . ولولا خوفُنا إطالة الكلام فيما ليس من جنس الكتاب لتقصيناه .

وباب البين وضده تصاقب الديار ، وليس التصاقب من معانى الحب التى نتكلم فيها . وباب السلو وضده الحب بعينه ، إذ معنى السلو ارتفاع الحب وعدمه .

ومنها بابان ختمنا بهما الرسالة ، وهما : باب الكلام فى قبح المعصية ، وباب فى فضل التعفّف . ليكون خاتمة إيرادنا ، وآخر كلامنا ، الحضّ على طاعة الله عز وجل ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فذلك مُفترَضٌ على كل مؤمن .

لكنّا خالفنا فى نسق بعض هذه الأبواب هذه الرُّتبة المقسمة فى دَرج هذا الباب ، الذى هو أول أبواب الرسالة ، فجعلناها على مباديها إلى منتهاها ، واستحقاقها فى التقدم والدرجات والوجود ؛ ومن أول مراتبها إلى آخرها ، وجعلنا الضد إلى جنب ضده ، فاختلف المساق فى أبواب يسيرة ، والله المستعان .

وهيأتها فى الإيراد أولها هذا الباب الذى نحن فيه ، وفيه صدر الرسالة ، وتقسيم الأبواب ، والكلام فى ماهية الحب ، ثم باب علامات الحب ، ثم باب من أحب فى النوم ، ثم باب من أحب بالوصف ، ثم باب من أحب من نظرة واحدة ، ثم باب من لا يحب إلاّ مع المطاولة ، ثم باب من أحب صفة لم يحب بعدها غيرها مما يخالفها ، ثم باب التعريض بالقول ، ثم باب الإشارة بالعين ، ثم باب المراسلة ، ثم باب السفير ، ثم باب طىّ السر ، ثم باب إذاعته ، ثم باب الطاعة ، ثم باب المخالفة ، ثم باب العاذل ، ثم باب المساعد من الإخوان ، ثم باب الرقيب ، ثم باب الواشى ، ثم باب الوصل ، ثم باب الهجر ، ثم باب الوفاء ، ثم باب الغدر ، ثم باب البين ، ثم باب القنوع ، ثم باب الضنى ، ثم باب السلو ، ثم باب الموت ، ثم باب قبح المعصية ، ثم باب التعفّف .

١
الكلام فى ماهية الحب

الحب – أعزّك الله – أوّله هزل وآخره جِد . دَقّت معانيه لجلالتها عن أن توصف ، فلا تدرك حقيقتها إلاّ بالمعاناة ، وليس بمنكَر فى الديانة ، ولا بمحظور فى الشريعة ، إذ القلوب بيد الله عز وجل ، وقد أحب من الخلفاء المهديين والأئمة الراشدين كثير ؛ منهم بأندلسنا عبد الرحمن بن معاوية لدَعجاء ، والحكَم بن هشام ، وعبد الرحمن ابن الحكم وشغفُه بطروب أم عبد الله ابنه أشهرُ من الشمس ، ومحمد بن عبد الرحمن وأمره مع غزلان أم بنيه عثمان والقاسم والمطرف معلوم ، والحكم المستنصر وافتنانه بصبح أم هاشم المؤيد بالله رضى الله عنه ، وعن جميعهم ، وامتناعه عن التعرّض للولد من غيرها [١] ، ومثل هذا كثير . ولولا أنّ حقوقهم على المسلمين واجبة – وإنّما يجب أن نذكر من أخبارهم ما فيه الحزمُ وإحياء الدين ، وإنّما هو شيء كانوا ينفردون به فى قصورهم مع عيالهم فلا ينبغى الإخبار به عنهم – لأوردتُ من أخبارهم فى هذا الشأن غير قليل .

وأمّا كِبار رجالهم ، ودعائم دولتهم ، فأكثر من أن يُحصَوْا ، وأحدثُ ذلك ما شاهدناه بالأمس من كلف المظفّر ، عبد الملك بن أبى عامر بواجد ، بنت رجل

---

(١) يشير ابن حزم فى هذه الفقرة إلى جانب من الحياة العاطفية لأمراء الأندلس وخلفائه :

- عبد الرحمن الداخل ، وحكم من ٧٥٥ إلى ٧٨٨ م ، وكان مغرماً بجارية تسمى دعجاء .
- الحكم بن هشام ، وحكم من ٧٩٦ إلى ٨٢١ م .
- عبد الرحمن بن الحكَم ، ويعرف بعبد الرحمن الأوسط ، وحكم من ٨٢١ إلى ٨٥٢ م ، وشهر بحب جاريته طروب ، ولعبت دوراً هاماً فى الحياة السياسية على أيامه . وإليها ينسب مسجد بصدر الربض الغربى ، وقد أفرد لها ابن الأبار ترجمة كاملة فى كتابه التكملة .
- محمد بن عبد الرحمن ، وحكم من ٨٥٢ إلى ٨٨٦ م ، وكان يحب جارية تدعى غزلان .
- الحكم المستنصر ، وحكم من ٩٦١ إلى ٩٧٦ م ، وأحب جارية من منطقة الباسك (البشكنس فى المصادر العربية القديمة) ، شمال شرقى إسبانيا ، تدعى صبح ، وهو الترجمة العربية لاسمها الأصلى Aurora ، وتمتعت بنفوذ قوى فى الحياة العامة ، وربطتها بالمنصور بن أبى عامر ، وهو موظف فى القصر ، صلة عاطفية عنيفة ، فيما يرجح ، وكانت وراء ما بلغه من جاه وسلطان ، وهى أم الخليفة هشام المؤيد بالله .
- هشام المؤيد بالله ، وتولى الحكم مرتين من ٨٧٦ إلى ١٠٠٨ ، ومن ١٠٠٩ إلى ١٠١٣ م .

من الجنانين حتى حملهُ حبّها أن يتزوّجها ، وهي التي خلف عليها بعد فناء العامريين الوزيرُ عبدالله بن مسلمة . ثم تزوّجها بعد قَتْله رجلٌ من رؤساء البربر(٢) .

ومما يشبه هذا أن أبا العيش بن ميمون القرشي الحسيني أخبرني : أنّ نزار بن معد صاحب مصر لم ير ابنه منصور بن نزار ، الذي ولي الملك بعده وادّعى الإلاهية ، إلا بعد مدّة من مولده ، مساعدة لجارية كان يُحبها حباً شديدا ، ولم يكن له ذكر ، ولا من يرث ملكه ويحيي ذكره سواه(٣).

ومن الصالحين والفقهاء في الدهور الماضية ، والأزمان القديمة، من قد اسْتُغْني بأشعارهم عن ذكرهم : وقد ورد من خبر عُبيد الله بن عبد الله بن عُتبة بن مسعود

---

(٢) هذه الفقرة جاءت مضطربة تماماً في المخطوط وفي كل الطبعات العربية ، فقد وردت على النحو التالي : « . . . من كلف المظفر بن عبد الملك بن أبي عامر بواحد ، بنت رجل من الجبائين ، حتى حمله حبها أن يتزوجها ، وهي التي خلف عليها بعد فناء العامر بن الوزير عبد الله بن مسلمة . . . » . وقد صححها ليفي بروفنسال على النحو الذي أوردناه . وكان الحق معه ، فكلمة « المظفر » لقب لعبد الملك بن أبي عامر وليست اسماً لابن له ، وكانت حبيبته بنتاً لجنّان ، أي بستاني ، وليس لجباء ، والذي خلف عليها هو الوزير عبد الله بن مسلمة بعد فناء دولة المنصور بن أبي عامر وأولاده ، فليس للوزير عبد الله ولد اسمه عامر ، واسم الجارية واجد وليس « واحد » .

والمظفر خلف أباه المنصور ، بعد موته ، وكان مثله حاجبا بالاسم ، وحاكما بالفعل ، من ١٠٠٢ إلى ١٠٠٨ م .

انظر :

- ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، ج ٣ ص ٣ وما بعدها طبعة ليفي بروفنسال .
- المقري : نفح الطيب ، ج ١ ص ٤٠٠ .
- عبد الواحد المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، ص ٤٠ ، تحقيق محمد سعيد العريان ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٣٦٨ – ١٩٤٩ م .

والوزير عبد الله بن مسلمة كان متقلد مدينة الزاهرة في قرطبة ، أيام حجابة عبد الرحمن بن المنصور بن أبي عامر ، الملقب بشنجول ، وقد وليها بعد وفاة أخيه المظفر عام ١٠٠٨ م ، وكان مجردا من المواهب فاغتيل في قرطبة بعد شهور من توليه الحجابة ، في ٤ مارس ١٠٠٩ ، وقد شارك عبد الله بن مسلمة بحظ وافر في أحداث هذه الفترة . انظر :

- ابن عذارى : المغرب ، ج ٣ ص ٣٨ وما بعدها .
- ابن الأبار : الحلة السيراء ، طبعة القاهرة ، ج ١ ص ٢٧٠ وما بعدها .

(٣) نزار بن معد ، خليفة مصر الفاطمي ، الملقب بالعزيز ، وحكم من ٩٧٦ إلى ٩٩٦ م ، وأما المنصور ابنه ، فهو ثالث الخلفاء الفاطميين في مصر ودخل التاريخ تحت اسم الحاكم بأمر الله ، وحكم من ٩٩٦ إلى ١٠٢١ ، انظر :

- بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ، الترجمة العربية ، الطبعة الرابعة ، ص ٢٥٤ وما بعدها .
- علي إبراهيم حسن : مصر في العصور الوسطى ، ط الثانية ، ص ١٠٦ وما بعدها ، القاهرة ١٩٤٩ .

وشعره ما فيه الكفاية . وهو أحد فقهاء المدينة السبعة[٤] ، وقد جاء من فتيا ابن عبَّاس رضى الله عنه مالا يُحتاج معه إلى غيره حين يقول : هذا قتيل الهوى لا عَقل ولا قود .

وقد اختلف الناس فى ماهيته وقالوا وأطالوا ، والذى أذهب إليه أنه اتصال بين أجزاء النفوس المقسومة فى هذه الخليقة فى أصل عنصرها الرفيع ، لا على ما حكاه محمد بن داود رحمه الله عن بعض أهل الفلسفة : الأرواح أكرٌ مقسومة لكنْ على سبيل مناسبة قواها فى مقرِّ عالمها العلوى ، ومجاورتها فى هيئة تركيبها[٥] .

وقد علمنا أن سر التمازج والتباين فى المخلوقات إنما هو الاتصال والانفصال ، والشكل دأباً يستدعى شكله ، والمِثْل إلى مِثْله ساكن ، وللمجانسة عمل محسوس ، وتأثير مشاهد ، والتنافر فى الأضداد ، والموافقة فى الأنداد ، والنزاع فيما تشابه موجود فيما بيننا ، فكيف بالنفس وعالَمها العالم الصافى الخفيف ، وجوهرها الجوهر الصعّاد المعتدل ، وسِنْخها المهيأ لقبول الاتفاق والميل والتوق والانحراف والشهوة والنفار . كل ذلك معلوم بالفطرة فى أحوال تصرف الإنسان فيسكن إليها ، والله عز وجل يقول : « هُو الذى خَلَقكم مِن نَفْسٍ وَاحدةٍ وجَعَل منها زوجَها ليَسكُن إليها »[٦] فجعل علة السكون أنّها منه .

ولو كان علّةُ الحب حسن الصورة الجسدية لوجب ألاّ يُستحسن الأنقصُ من الصورة ، ونحن نجد كثيرا ممن يُؤْثر الأدنى ويَعلم فضلَ غيره ، ولا يجد محيدا لقلبه عنه . ولو كان للموافقة فى الأخلاق لَمَا أحب المرء من لا يساعده ولا يوافقه . فعلمنا أنه شيء فى

---

(٤) فقهاء المدينة السبعة : أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وقاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق ، وعروة بن الزبير بن العوام ، وسعيد بن المسيب ، وسليمان بن ياسر ، وخارجة بن زيد بن ثابت ، وعبيد الله ابن عتبة بن مسعود الوارد فى النص . انظر :

• ابن رشيق القيروانى : العمدة فى صناعة الشعر ونقده ، الطبعة الأولى ، ص ١٨ ، القاهرة ١٣٤٤ - ١٩٢٥ م .

(٥) أبو بكر محمد بن داود الظاهرى ، ابن مؤسس المذهب الظاهرى ، ولد عام ٢٥٥ هـ = ٨٦٨ م ، وتوفى ٢٩٧ هـ = ٩١٠ م ، ألّف كتاب « الزهرة » ، وقد نشر لويس نيكل وإبراهيم طوقان نصفه عن مخطوطة وحيدة فى دار الكتب المصرية ، عام ١٣٥١ هـ = ١٩٣٢ م ، والفقرة الواردة هنا اقتبسها ابن حزم من كتاب الزهرة ص ١٥ ، ونصها هناك :

« وزعم بعض المتفلسفين أن الله جل ثناؤه خلق كل روح مدوّرة الشكل ، على هيئة الكرة ، ثم قطعها أيضاً ، فجعل فى كل جسد نصفاً ، وكل جسد لقى الجسد الذى فيه النصف الذى قطع من النصف الذى معه ، كان بينهما عشق للمناسبة القديمة ، وتتفاوت أحوال الناس فى ذلك على حسب رقة طبائعهم » .

(٦) سورة الأعراف ، الآية ١٨٩ .

ذات النفس ، وربما كانت المحبة لسبب من الأسباب ، وتلك تفنى بفناء سببها ، فَمَنْ وَدَّك لأمر وَلَّى مع انقضائه .

وفى ذلك أقول :

وِدادى لكَ الباقِى على حَسْب كوْنــه ... تناهَى فلم يَنْقُص بشىءٍ ولم يَــزدْ
وليستْ لـــه غيرَ الإرادة علّـــةٌ ... ولا سَببٌ حاشاهُ يعلمه أحَد
إذا ما وجدْنــا الشىءَ علَّـــة نفسِهِ ... فذاك وجُودٌ ليس يفنى على الأبد
وإمّا وجدنـــاه لشىءٍ خلافَــــهُ ... فإعدامُـــه فى عدمنا ماله وجدْ

ومِمّا يؤكد هذا القول أننا علمنا أن المحبة ضُروب : فأفضلها محبة المتحابِّين فى الله عز وجل ، إمّا لاجتهاد فى العمل ، وإمّا لاتفاق فى أصل النِّحلة والمذهب ، وإمّا لفضل عِلْم يمنحه الإنسان . ومحبة القرابة ، ومحبة الألفة والاشتراك فى المطالب ، ومحبة التصاحب والمعرفة ، ومحبة البر يضعه المرء عند أخيه ، ومحبة الطمع فى جاه المحبوب ، ومحبة المتحابين لسر يجتمعان عليه يلزمهما ستره ، ومحبة بلوغ اللَّذة وقضاء الوطر ، ومحبة العشق التى لا علة لها إلا ما ذكرنا من اتصال النفوس .

وكل هذه الأجناس منقضية مع انقضاء عللها ، زائدة بزيادتها ، وناقصة بنقصانها ، متأكدة بدنوها ، فاترة ببعدها ، حاشى محبة العشق الصحيح المُمكن من النفس ، فهى التى لا فناء لها إلا بالموت .

وإنك لتجد الإنسان السالى برغمه ، وذا السِّن المتناهية ، إذا ذكّرته تذكر وارتاح وصبـــا ، واعتاده الطرب ، واهتاج لـــه الحنين ، ولا يعرض فى شىء من هذه الأجناس المذكورة ، من شغل البال والخبل والوسواس ، وتبدّل الغرائز المركبة ، واستحالة السجايا المطبوعة ، والنُّحول والزفير ، وسائر دلائل الشجا ما يعرض فى العشق ، فصح بذاك أنه استحسان رُوحانى وامتزاج نَفسانى .

فإن قال قائل : لو كان هذا كذلك لكانت المحبة بينهما مستوية ، إذ الجزآن مشتركان فى الاتصال وحظهما واحد . فالجواب عن ذلك أنْ نقول : هذه لعمرى معارضة صحيحة ، ولكن نفس الذى لا يحبُّ مَنْ يحبُه مكتنفة الجهات ببعض الأعراض الساترة ، والحجب المحيطة بها من الطبائع الأرضية ، فلم تحس بالجزء الذى كان متصلا بها قبل حلولها حيث هى ، ولو تخلصت لاستويا فى الاتصال والمحبة . ونفس

المحب متخلصة عالمة بمكان ما كان يشركها فى المجاورة ، طالبة له ، قاصدة إليه ، باحثة عنه ، مشتهية لملاقاته ، جاذبة له لو أمكنها ، كالمغنطيس والحديد ، فقوة جوهر المغنطيس المتصلة بقوة جوهر الحديد لم تبلغ من تحكّمها ، ولا من تصفيتها ، أنْ تقصد إلى الحديد على أنه من شكلها وعنصرها ، كما أنّ قوة الحديد لشدتها قصدت إلى شكلها وانجذبت نحوه ، إذ الحركة أبداً إنما تكون من الأقوى ، وقوة الحديد متروكة الذات غير ممنوعة بحابس ، تطلب ما يشبهها ، وتنقطع إليه ، وتنهض نحوه بالطبع والضرورة ، وبالاختيار والتعمّد . وأنت متى أمسكت الحديد بيدك لم ينجذب ، إذ لم يبلغ من قوته أيضا مغالبة المُمسك له ممَّا هو أقوى منه . ومتى كثرت أجزاء الحديد اشتغل بعضها ببعض ، واكتفت بأشكالها عن طلب اليسير من قواها النازحة عنها ، فمتى عظم جرم المغناطيس ، ووازت قواه جميع قوى جرم الحديد ، عادت إلى طبعها المعهود .

وكالنار فى الحجر ، لا تبرز على قوة النار فى الاتصال والاستدعاء لأجزائها حيث كانت إلاّ بعد القدح ، ومجاورة الجِرمين بضغطهما واصطكاكهما ، وإلا فهى كامنة فى حجرها لا تبدو ولا تظهر .

ومن الدليل على هذا أيضاً أنك لا تجد اثنين يتحابّان إلاّ وبينهما مشاكلة ، واتفاق الصفات الطبيعية ، لابد من هذا وإن قلّ ، وكلّما كثرت الأشباه زادت المجانسة ، وتأكّدت المودة ، فانظر هذا تراه عياناً ، وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤكده : «الأرواحُ جنودٌ مُجنَّدة ما تعَارفَ منها ائتلف ، وما تناكرَ منها اختلف » ، وقول مرويّ عن أحد الصالحين : أرواح المؤمنين تتعارف . ولهذا ما اغتم إبقراط حين وُصِفَ له رجل من أهل النقصان يحبه ، فقيل له فى ذلك ، فقال : ما أحبنى إلا وقد وافقته فى بعض أخلاقه [٧].

وذكر أفلاطون أن بعض الملوك سجنه ظلماً ، فلم يزل يحتج عن نفسه حتى أظهر براءته ، وعلم الملك أنه له ظالم ، فقال له وزيره الذى كان يتولّى إيصال كلامه إليه : أيها الملك ، قد استبان لك أنه برىء فمالك وله ؟ فقال الملك : لعمرى مالى

---

(٧) إبقراط Hippocrate (٤٦٠ - ٣٧٧ ق م) ، طبيب إغريقى ، من أشهر أطباء العصر القديم ، ويدعى أبا الطب ، ولم يهتد أحد من الباحثين إلى مصدر الفقرة التى أوردها ابن حزم منسوبة إلى إبقراط .

إليه سبيل ، غير أنى أجد لنفسي استثقالا لا أدرى ما هو. فادّى ذلك إلى أفلاطون . قال : فاحتجت أن أفتش فى نفسى وأخلاق شيئاً أقابل به نفسه وأخلاقه مما يشبهها . فنظرت فى أخلاقه فإذا هو محب للعدل كاره للظلم ، فميّزت هذا الطبع فىّ ، فما هو إلاّ أنْ حرّكت هذه الموافقة ، وقابلت نفسه بهذا الطبع الذى بنفسى ، فأمر باطلاق وقال لوزيره : قد انحل كل ماأجد فى نفسى له[٨].

وأما العلّة التى توقع الحب أبداً فى أكثر الأمر على الصورة الحسنة ، فالظاهر أن النفس حسنة تولع بكل شيء حسن ، وتميل إلى التصاوير المتقنة ، فهى إذا رأت بعضها تثبتت فيه ، فإن ميّزت وراءها شيئاً من أشكالها اتصلت وصحّت المحبة الحقيقية، وإنلم تميز وراءها شيئاً من أشكالها لم يتجاوز حبها الصورة ، وذلك هو الشهوة ، وإن للصور لتوصيلا عجيباً بين أجزاء النفوس النائية[٩].

وقرأت فى السفر الأول من التوراة أن النبى يعقوب عليه السلام أيام رَعْيه غنما لابن خاله ، مهراً لابنته شارطه على المشاركة فى إنسالها ، فكل بهيم ليعقوب ، وكل أغرّ للابان ، فكان يعقوب عليه السلام يعمد إلى قضبان الشجر يسلخ نصفاً ويترك نصفاً بحاله ، ثم يلقى الجميع فى الماء الذى ترده الغنم ، ويتعمّد إرسال الطروقة فى ذلك الوقت فلا تلد إلا نصفين ، نصفاَ بهمّاً ونصفاً غُرّا[١٠].

وذُكر عن بعض القافة انه أُتى بابن أسود لأبيضيْن ، فنظر إلى أعلامه فرآه لهما غير شك ، فرغب أن يُوقَف على الموضع الذى اجتمعا عليه ، فأُدخل البيتَ الذى كان فيه مَضْجعهما ، فرأى فيما يوازى نظر المرأة صورةَ أسود فى الحائط فقال لأبيه : مِن قِبل هذه الصورة أُتيتَ فى ابنك .

وكثيراً ما يصرف شعراء « أهل الكلام » هذا المعنى فى أشعارهم ، فيخاطبون

---

(٨) أيضاً لم يهتد أحد من الباحثين إلى مصدر هذه الفقرة التى أوردها ابن حزم منسوبة إلى أفلاطون .

(٩) تتردد هذه الفكرة كثيراً فى الشعر الإيطالى ، على امتداد القرن الثالث عشر الميلادى ، وأثارت انتباه النقاد لكن أحداً لم يدرسها فى إطار مقارن مع فكرة ابن حزم . انظر :

* Nardi B. : Dante e la cultura medievale, p. 4 ss., Bari 1942.

(١٠) التوراة ، سفر التكوين ، الإصحاح الثلاثون ، والقصة فى التوراة طويلة ذات تفاصيل ، ولكنها تتفق فى خطوطها الرئيسية مع ما أورده ابن حزم .

المرئيّ فى الظاهر خطابَ المعقول الباطن ، وهو المستفيض فى شعر النّظام إبراهيم ابن سّيار[١١] وغيره مِن المتكلمين .

وفى ذلك أقول شعراً ، منه :

ما علّةُ النَّصرِ فى الأعداء تعرفهـــا	وعلَّةُ الفر منهم إنْ يَفرُّونــــا
إلّا نِزاعُ نفوسِ الناس قاطبـــةً	إليك يالؤلؤاً فى الناس مكنونــا
مَن كَنتَ قُدامـــه لا ينثنى أبـداً	فهم إلى نورك الصعّاد يَعشونا
ومن تكن خلْفَه فالنفسُ تَصرفُـهُ	إليك طوعاً فهم دأباً يكُرُّونـــا

ومن ذلك أقول :

أمِن عالم الأملاك أنت أم انْسىٌّ	أَبنْ لى فقد أزْرَى بتمييزىَ العىٌّ
أرى هيئةً إنسيّةً غير أنّـــه	إذا أعمل التفكيرُ فالجِرْم عُلوىّ
تبارك مَن سوَّى مذاهب خلْقــهِ	على أنك النورُ الأنيقُ الطبيعىّ
ولا شكَّ عندى أنَّك الروحُ ساقه	إلينا مثالٌ فى النفوس اتِّصالىّ
عدمنا دليلاً فى حُدوثك شاهــداً	نَقيس عليــه غيرَ أنَّك مَرْئىّ
ولولا وقوعُ العين فى الكون لم نقل	سوى أنّك العقلُ الرفيعُ الحقيقىّ

وكان بعض أصحابنا يُسمِّى قصيدة لى « الإدراك المتوهم » منها :

تـرى كلَّ ضـدٍّ بـــه قائمـاً	فكيف تحُدُّ اختلاف المعانى
فيأيُّها الجِسمُ لا ذا جهـــاتٍ	ويا عَرضاً ثابتاً غيرَ فـــان
نَقضْتَ علينـا وجُـوهَ الكلامِ	فما هو مُذ لُحتَ بالمستبان

وهذا بعينه موجود فى البغضة ، ترى الشخصين يتباغضان لا لمعنى ، ولا علة ويستثقل بعضهما بعضا بلا سبب .

والحب – أعزّك الله – داء عياء ، وفيه الدواء منه على قدر المعاملة ، ومقام مستلذ ، وعلة مشتهاة ، لا يودّ سليمها البرءَ ، ولا يتمنى عليلها الإفاقة . يزُيّن للمرء ما كان

---

(١١) النظام ، إبراهيم بن سيار ، توفى حوالى سنة ٨٤٥ م ، وكان رأس المعتزلة فى البصرة ، وأستاذ الجاحظ ، وحاول أن يقاوم الميول الثنوية الفارسية فى الإسلام ، وأعلن أن الشك هو أول وأهم ما تتطلبه المعرفة ، وتشبه نظريته هذه فى أساسها نظرية الفيلسوف الإغريقى Anaxajoras ، وعاش بين ٥٠٠ و ٤٢٨ قبل الميلاد . انظر :

• أحمد أمين : ضحى الإسلام ، جـ ٣ ص ١٠٦ وما بعدها ، ط ٣ ، القاهرة ١٣٦٢ – ١٩٤٣ م .

يأنف منه ، ويسهل عليه ما كان يصعبُ عنده ، حتى يحيل الطبائع المركبة ، والجبِلّة المخلوقة . وسيأتى كل ذلك ملخصا فى بابه إن شاء الله .

* خبر :

ولقد علمت فتى من بعض معارفى قد وحِلَ فى الحب ، وتورَّط فى حبائله ، وأضرّ به الوجدُ ، وأنضحه الدنف ، وما كانت نفسه تطيب بالدعاء إلى الله عز وجل فى كشف ما به ، ولا ينطق به لسانه ، وما كان دعاؤه إلا بالوصل والتمكّن ممن يحب ، على عظيم بلائه وطويل همِّه ، فما الظن بسقيم ولا يريد فَقْدَ سقمه . ولقد جالسته يوماً فرأيت من إكبابه ، وسوء حاله وإطراقه ما ساءنى ، فقلت له فى بعض قولى : فرّج الله عنك ، فلقد رأيت أثر الكراهيه فى وجهه .

وفى مثله أقول من كلمة طويلة :

وأستلذُّ بلائى فيكَ يا أمـــلى ولستُ عنك مدى الأيّام أنصرفُ

إن قيل لى أتسلىَّ عن مودّته فما جوابىَ إلا اللامُ والألف

* خبر :

وهذه الصفات مخالفة لما أخبرنى به عن نفسه أبو بكر محمد بن قاسم بن محمد القرشى ، المعروف بالشبانسى[١٢] ، من ولد الإمام هشام بن عبد الرحمن بن معاوية[١٣] ، أنه لم يحب أحداً قط ، ولا أسف على إِلْف بان منه ، ولا تجاوز حد الصُّحبة والألفة إلى حدّ الحب والعِشق منذ خُلِق .

(١٢) ترجم له الضبى فى كتابه : « بغية الملتمس » ، رقم ١٢٩٦ ، وقال إنه شاعر أديب ، وكان لابن حزم صلة به . وورد فى كل طبعات الطوق العربية « المعروف بالشلشى » وهو خطأ ، وقد صححناه عن « البغية » .

ونعرف من أقربائه معاوية بن هشام بن محمد ، ويعرف بابن الشبانسى ، وكان مثله أديباً إخبارياً تاريخياً فصيحاً ، وله تاريخ فى دولة قومه بنى مروان ، وتأليف فى نسب العلوية وغيرهم من قريش سماه : « التاج السنى فى نسب آل على » ، وينقل عنه ابن حيان كثيراً فى مؤلفاته . ونلتقى بلقبه تحت صور أخرى مثل الشبينسى ، أو الشبانسية . انظر :

- ابن حيان : المقتبس ، القطعة التى نشرها ملتشور أنطونيا ، ص ٣٧ ، ٣٨ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٣٨ .
- والقطعة التى نشرها الدكتور محمود على مكى فى أمكنة كثيرة .
- ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ١ ص ١٠٧ ، نشر محمد عبد الله عنان .

(١٣) الأمير الأموى ، هشام الأول ، وقد تولى الإمارة بعد وفاة أبيه عبد الرحمن الداخل ، انظر الهامش رقم ١ فى هذا الباب .

٢

باب علامات الحب

وللحب علامات يقفوها الفطن ، ويهتدى إليها الذكى .

فأولها إدمان النظر ، والعينُ بابُ النفس الشارع ، وهى المنقبة عن سرائرها ، والمعبِّرة لضمائرها ، والمعربة عن بواطنها ، فترى الناظر لا يطرف ، يتنقل بتنقل المحبوب ، وينزوى بانزوائه ، ويميل حيث مال كالحرباء مع الشمس .

وفى ذلك أقول شعراً منه :

فليس لعينى عنـدَ غيرِكِ موقف   كأنّك ما يحكون من حجر الَبهْت
أُصرِّفها حيث انصرفتَ وكيفما   تقلَّبْتُ كالمنعوت فى النَّحوِ والنَّعتِ

ومنها الإقبال بالحديث ، فما يكاد يقبل على سوى محبوبه ولو تعمد ذلك ، وإن التكلُّف ليستبين لمن يرمقه فيه ، والإنصات لحديثه إذا حدَّث ، واستغراب كل ما يأتى به ولو أنّه عين المحال وخرق العادات ، وتصديقه وإنْ كذب ، وموافقتُه وإنْ ظلم ، والشهادة له وإنْ جار ، واتباعه كيف سلك ، وأىَّ وجه من وجوه القول تناول .

ومنها الإسراع بالسير نحو المكان الذى يكون فيه ، والتعمد للقعود بقربه والدنوّ منه ، واطراح الأشغال الموجبة للزوال عنه ، [والزهد فيها ، والرغبة عنها] ، والاستهانة بكل خطب جليل داع إلى مفارقته ، والتباطؤ فى المشى عند القيام عنه .

وفى ذلك أقول شعراً :

وإذا قمتُ عنكِ لم أمشِ إلاّ   مَشْىَ عان يُقادُ نحوَ الفنـاءِ
فى مجيئ إليك أحتثُّ كالبد   رِ إذا كان قاطعاً للسماءِ
وقِيامى إنْ قمتُ كالأنجمِ العـا   ليةِ الثابتات فى الإبطـاءِ

ومنها بَهت يقع ، وروعة تبدو على المحب عند رؤية من يحب فجُأة ، وطلوعه بغتة .

ومنها اضطراب يبدو على المحب عند رؤية من يشبه محبوبه ، أو عند سماع اسمه فجأة .

وفى ذلك أقول قطعة ، منها :

إذا ما رأتْ عيناىَ لابسَ حُمـــرةٍ تقطّع قلبى حسرةً وتقطّرا
غَـدا لدماءِ الناسِ باللحظ سافِكاً وُضرّجَ منها ثوبُهُ فَتَعفّـــرا

ومنها أن يجود المرء ببذل كل ما كان يقدر عليه مما كان ممتنعاً به قبل ذلك ، كأنه هو الموهوب له والمسعىّ فى حظه ، كل ذلك ليبدى محاسنه ويُرغِّب فى نفسه . فكم بخيل جاد ، وقُطوب تطلّق ، وجبان تشجّع ، وغليظ الطبع تطرّب ، وجاهل تأدّب ، وَتَفِل[١] تزيّن ، وفقير تجمّل ، وذى سن تفتّى ، وناسك تفتّك ، ومصون تبذّل .

وهذه العلامات تكون قبل استعار نار الحب وتأجُّج حريقه ، وتوُّقد شعله ، واستطارة لهبه . فأما إذا تمكن وأخذ مأخذه فحينئذ ترى الحديث سرارا ، والإعراض عن كل ما حضر إلا عن المحبوب جهارا .

ولى أبيات جمعت فيها كثيرا من هذه العلامات ، منها :

أهْوَى الحديثَ إذا ما كانُ يُذكرُلى فيه ويعبُق لى عن عنبرٍ أَرجِ
إنْ قال لم أستمع ممن يُجالسنى إلى سوى لفظه المستطرفِ الغُنُجِ
ولـــو يكونُ أميرُ المؤمنين معى ما كنتُ من أجلـــه عنه بمُنعرج
فإنْ أقمْ عنـــه مضطرًّا فإنِّى لا أزالُ مُلتفتا والمشْىُ مشىُ وَجِى
عيناى فيـــه وجسمى عنـــه مرتحلٌ مثلُ ارتقاب الغريق البرَّ فى اللججَ
أَغَصُّ بالمـــاء إنْ أذكُرْ تباعُدهُ كمَنْ تثاءب وسط النقْع والوَهَج
وإنْ تَقُلْ : مُمكِنٌ قصْدُ السماء أَقُلْ : نعمْ وإنِّى لأدْرِى مَوْضع الدَّرج

ومن علاماته وشواهده الظاهرة لكل ذى بصر الانبساط الكَثير الزائد ، والتضايق فى المكان الواسع ، والمجاذبة على الشيء يأخذه أحدهما ، وكثرة الغمز الخفى ، والميل بالاتكاء ، والتعمُّد لمس اليد عند المحادثة ، ولمس ما أمكن من الأعضاء الظاهرة ، وشرْبُ فضلة ما أبقى المحبوب فى الإناء ، وتحرِّى المكان الذى يقابله فيه .

ومنها علامات متضادة ، وهى على قدر الدواعى والعوارض الباعثة ، والأسباب

---

(١) فى كل الطبعات العربية « وتفل » ، ولم يقف عندها أحدٌ من الناشرين العرب ، أو من الذين ترجموا الطوق إلى اللغات الأجنبية . وكان غرسية غومث الوحيد الذى رجح أن تكون « وتفر » . وربما كان ذلك أقرب إلى الصواب ، لأن « تفل » معناها : المتغير الريح ، أما « تفر » فمعناها : اتسخ ، والتافر الرجل الوسخ .

المحرِّكة ، والخواطر المهيِّجة ، والأضداد أنداد ، والأشياء إذا أفرطت فى غايات تضادِّها ، ووقفت فى انتهاء حدود اختلافها ، تشابهت ، قدرة من الله عز وجل تضل فيها الأوهام ، فهذا الثلج إذا أدمن حبسه فى اليد فعل فعْل النار ، ونجد الفرح إذا أفرط قتل ، والغم إذا أفرط قتل ، وَالضحك إذا كثر واشتد أسال الدمع من العينين . وهذا فى العالم كثير .

فنجد المحبيْن إذا تكافيا فى المحبة ، وتأكدت بينهما تأكدا شديداً ، أكثر بهما جدُّهما بغير معنى ، وتضادُّهما فى القول تعمدا ، وخروجُ بعضهما على بعض فى كل يسير من الأمور ، وتتبع كل منهما لفظة تقع من صاحبه ، وتأولها على غير معناها ، كل هذه تجربة ليبْدوما يعتقده كلّ واحد منهما فى صاحبه .

والفرقُ بين هذا وبين حقيقة الهجرة والمضادة المتولِّدة عن الشحناء ومخارجة التشاجر سرعةُ الرضى : فإنك بينما ترى المحبَّيْن قد بلغا الغاية من الاختلاف الذى لا يقدَّر ، يصلُح عند الساكن النفس ، السالم من الأحقاد فى الزمن الطويل ، ولا ينجبر عند الحقود أبدا ، فلا تلبث أن تراهما قد عادا إلى أجمل الصُّحبة ، وأهدرتْ المعاتبة ، وسقط الخلاف ، وَانصرفا فى ذلك الحين بعينه إلى المضاحكة والمداعبة ، هكذا فى الوقت الواحد مراراً . وإذا رأيت هذا من اثنين فلا يخالجك شك ، ولا يدخلنك ريب ألبتّة ، ولا تَتمارَ فى أن بينهما سرًّا من الحب دفينا ، واقْطع فيه قطع من لا يصرفه عنه صارف . ودونكها تجربة صحيحة ، وخِبرة صادقة . هذا لا يكون إلا عن تكاف فى المودّة وائتلاف صحيح ، وقد رأيته كثيرا .

ومَن أعلامه أنك تجد المحب يستدعى سماع اسم من يحب ، ويستلذ الكلام فى أخباره ، ويجعلها هجّيراه ، ولا يرتاح لشىء ارتياحه لها ، ولا ينهنهه عن ذلك تخوّف أنْ يَفطن السامع ، ويفهم الحاضر ، وحبك الشىء يُعمى ويُصم . فلو أمكن ألا يكون حديث فى مكان يكون فيه إلا ذِكر من يحبه لما تعدّاه .

ويَعرض للصادق المودة أن يبتدئ فى الطعام ، وهو له مُشتهٍ ، فما هو إلا وقت ما تهتاج له مِن ذِكْر مَن يحبّ ، صار الطعامُ غصّة فى الحلق ، وشجى فى المرىء ، وهكذا فى الماء وفى الحديث ، فإنه يفاتحكه مبتهجا ، فتعرض له خَطرة من خطرات الفكر فيمن يحب ، فتستبين الحِوالة فى منطقه ، والتقصير فى حديثه ، وآية ذلك

الوُجومُ والإطراق ، وشدة الانفلاق ؛ فبينما هو طلْق الوجه ، خفيفُ الحركات ، صار مُنطبقاً متثاقلا ، خائر النفس ، جامد الحركة ، يبرم من الكلمة ، ويضجر من السؤال .

ومن علاماته حُبُّ الوحدة والأنس بالانفراد . ونحولُ الجسم دون حد يكون فيه ، ولا وجع مانع من التقلّب والحركة والمشى ، دليلٌ لا يكذب ومُخبر لا يخون ، عن كلمة فى النفس كامنة .

والسهر من أعراض المحبين . وقد أكثر الشعراء فى وصفه ، وحكوا أنهم رُعاة الكواكب ، ووصفوا طول الليل ، وفى ذلك أقول ، وأذكر كتمان السر ، وأنه يُتوسّم بالعلامات :

تَعلَّمتِ السحائبُ من شؤونى ... فعمَّتْ بالحيا السَّكْب الهتُونِ
وهذا الليلُ فيكَ غدا رفيقى ... بذلك أمْ على سهرى مُعينى
فإن لم ينَقْضِ الإظلام . [٢] ... ألاَ ما أطبقتْ نوما جُفونى
فليس إلى النهارِ لنا سبيلٌ ... وسُهْدٌ زائد فى كلِّ حين
كأنّ نجومَه والغيمُ يُخفى ... سناها عن مُلاحظةِ العيُون
ضميرى فى وِدادك يا مُنايا ... فليس يبينُ إلاَّ بالظُّنونُ

وفى مثل ذلك قطعة منها :

أرعى النُّجوم كأنّنى كُلِّفتُ أنْ ... ارْعى جميع ثُبوتها والخُنَّسِ
فكأنَّها والليلَ نيرانُ الجوى ... قد أضرِمتْ فى فكْرتِى من حِنْدِس
وكأننى أمسيتُ حارسَ روضةٍ ... خضراءَ وُشِّح نبْتها بالنَّرجس
لو عاش بطليموسُ أيقن أنَّنى ... أقوى الورى فى رصْد جرْى الكُنَّس

والشىء قد يذكر لما يُوجِبه : وقع لى فى هذه الأبيات تشبيه شيئين بشيئين فى بيت واحد . وهو البيت الذى أوله « فكأنها والليل » وهذا مستغرب فى الشعر . ولى ما هو أكملُ منه ، وهو تشبيه ثلاثة أشياء فى بيت واحد وتشبيه أربعة أشياء فى بيت واحد ، وكلاهما فى هذه القطعة التى أوردها ، وهى :

---

(٢) بياض بالأصل .

مَشُوقٌ مُعَنًّى ما يَنَامُ مُسَهَّدٌ　　بخمْر التجنّى ما يزالُ يُعَرْبِدُ
فى ساعة يُبدى إليك عجَائباً　　يَمرّ ويَستحلى ويُدنى ويُبعد
كأنّ النوى والعَتْبَ والهجْرَ والرِّضى　　قرانٌ وأنداد ونحسٌ وأسعُدُ
رثى لغرامى بعد طولِ تمنّع　　وأصبحتُ محسوداً وقد كنتُ أحسُدُ
نَعمْنا على نَوْر من الروض زاهر　　سقتْه الغوادى فهو يُثْنِى ويحمَدُ
كأنّ الحيَا والمُزن والروض عاطراً　　دموعٌ وأجفانٌ وخدٌّ مُوَرَّدُ

ولا ينكرن علىّ مُنكر قولى « قران » ، فأهل المعرفة بالكواكب يسمون التقاء كوكبين فى درجة واحدة قراناً .

ولى أيضا ما هو أتم من هذا ، وهو تشبيه خمسة أشياء فى بيت واحد فى هذه القطعة ، وهى :

خلوْتُ بها والراحُ ثالثةٌ لنا　　وجُنْحُ ظلام الليل قد مد وانبلجْ
فتاةٌ عدمتُ العيشَ إلاّ بقربها　　فهل فى ابتغاء العيشِ ويْحك من حرجْ
كأنّى وَهى والكأسَ والخمرَ والدُّجى　　ثَرىً وحَياً والدرَّ والتبرَ والسَّبج

فهذا أمر لا مزيدٌ فيه ، ولا يقدر أحدٌ على أكثر منه ، إذ لا يحتمل العروضُ ولا بنية الأسماء أكثر من ذلك .

ويعرض للمُحبين القلقُ عند أحد أمرين :

أحدهما عند رجائه لقاء مَن يحب فيعرضُ عند ذلك حائل .

* **خبر** :

وإنِّى لأعلم بعضَ مَن كان محبوبُه يَعِدُه الزيارةَ ، فما كنتُ أراه إلا جائيا وذاهباً لا يقرّ به القرارُ ولا يثبت فى مكان واحد ، مقبلا مدبرا قد استخفه السرور بعد ركانة ، وأشاطه بعد رزانة .

ولى فى معنى انتظار الزيارة :

أقمتُ إلى أن جاءنى الليلُ راجياً　　لِقاءك يا سُؤلِى ويا غايةَ الأملْ
فأيْأَسنى الإظلامُ عنك ولم أكنْ　　لِأيْأسَ يوماً إن بَدا الليلُ يتصل
وعندى دليلٌ ليس يكذبُ خُبْرُه　　بأمثالِهِ فى مُشْكِلِ الأمرِ يُستدلْ

لأنَّك لو رُمْتَ الزيارَةَ لم يكـــنْ ظلامٌ ودام النُّورُ فينا ولم يزلْ

والثانى عند حادث يحدُث بينهما من عتاب لا تُدرى حقيقته إلا بالوصف .. فعند ذلك يشتدّ القلق حتى توقف على الجلية ، فإمَّا أنْ يذهب تحمُّله إنْ رجا العفو ، وإمَّا أنْ يصير القلق حزناً وأسفا إن تخوَّفَ الهجر .

ويعرض للمُحب الاستكانةُ لجفاء المحبوب عليه ، وسيأتى مفسَّراً فى بابه إن شاء الله تعالى .

ومن أعراضه الجزع الشديد ، والحُمرة المقطّعة ، تغلب عندما يرى من إعراض محبوبه عنه ونِفاره منه ، وآية ذلك الزفير وقلّة الحركة والتأوّه وتنفُّس الصُّعداء .

وفى ذلك أقول شعراً ، منه :

جميـــلُ الصبر مَسْجــون ودمـــع العين مَسْفـوح (٣)

ومن علاماته أنك ترى المحب يحب أهل محبوبه وقرابته وخاصته ، حتى يكونوا أحظى لديه من أهله ونفسه ومن جميع خاصته .

والبكاءُ من علامات المحبّ ولكن يتفاضلون فيه ، فمنهم غزير الدمع ، هامِل الشئون ، تُجيبه عينه ، وتحضُره عبرته إذا شاء. ومنهم جَمود العين ، عديم الدَّمع ، وأنا منهم .

وكان الأصل فى ذلك إدمانى أكل الكُندر(٤) لخفقان القلب ، وكان عرض لى فى الصبا ، فإنى لأصاب بالمصيبة الفادحة فأجد قلبى يتفطّر ويتقطع ، وأحس فى قلبى غُصة أمرَّ من العلقم تحول بينى وبين تَوْفية الكلام حقَّ مخارجه ، وتكاد تشوقنى النفس أحيانا ، ولا تجيب عينى ألبتة إلا فى الندرة بالشىء اليسير من الدمع .

* خبر :

ولقد أذكرنى هذا الفصل : يوماً ودَعت أنا وأبو بكر محمد بن إسحاق صاحبى

---

(٣) فى الأصل : « ودموع العين سارحة » ، وقد قومه الأستاذ حسن كامل الصيرفى وأخذت بتقويمه .

(٤) الكندر : ضرب من العلك كان يمضغ لقطع البلغم .

أبا عامر محمد بن عامر(٥) صديقنا ، رحمه الله ، فى سفرته إلى الشرق(٦) التى لم نَرَه بعدها . فجعل أبو بكر يبكى عند وداعه ، ويُنشد متمثِّلا بهذا البيت :

ألا إنَّ عينـــاً لم تَجُـد يومَ واسطٍ عليك بباقِى دَمعِها لجَمُودُ(٧)

---

(٥) أبو بكر محمد بن أحمد بن إسحاق المهلبى الإسحاقى ، أورد له الضبى فى كتابه « بغية الملتمس » ترجمة مختصرة ، رقم ٥٩ . وكان صديقاً ودوداً لابن حزم ، ورافقه عندما ترك قرطبة بعد أن نهبها البربر ، وسنلتقى به أكثر من مرة عبر صفحات الكتاب ، وكان هو الذى وجه إليه ابن حزم رسالته عن فضل أهل الأندلس ، وحفظ لنا المقرى نصها كاملا فى كتابه نفح الطيب ، ج ٤ ص ١٥٤ .

• أما أبو عامر محمد بن عامر ، فثمة احتمال بأنه يعنى أبا عامر محمد بن عبد الله بن يحيى بن أبى عامر ، وقد عرض له الضبى فى « البغية » دون تفصيل ، وخصه بالترجمة رقم ١٧١ ، وأشار إلى أن ابن حزم ذكره . ويرى بروفنسال أننا بصدد حفيد المنصور بن أبى عامر ، الابن الوحيد للحاجب العامرى الثانى ، المظفر عبد الملك بن أبى عامر ، وحكم من ١٠٠٢ إلى ١٠٠٨م ، من زوجته « خيال » ، وقد خلفه عليها بعد موته القاسم بن حمود ، أحد مؤسسى دولة الحموديين فى مالقة وقرطبة إبان عصر ملوك الطوائف ، فقامت على تربية أبى عامر « الذلفاء » ، جدته لأبيه . وكانت سنه حين سقطت دولة العامريين سبعة أعوام ، فغادر قرطبة سرّا إلى سرقسطة ، وأقام فى كنف صاحبها منذر بن يحيى التجيبى . وفيما بعد عاد إلى قرطبة عام ٤١٢ هـ = ١٠٢١ م ، وحاول أن يقيم لنفسه إمارة فى مقاطعتى جيان ومرسية ، وتسمى بالمعتصم ، وبعد اضطرابات كثيرة لاذ أخيراً بحصن فى مقاطعة الغرب Algarve ، جنوبى البرتغال الآن ، وهناك مات بالجدرى عام ٤٢١ هـ = ١٠٣٠ م . انظر :

• ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٣ ص ١٣٣ .
• ابن الخطيب : أعمال الأعمال ، ص ٢٢٣ - ٢٢٤ ، طبعة الرباط .
• محمد عبد الله عنان : دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطى ، ص ١٦٠ وما بعدها ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٧٠ .

Seco de Lucena Luis : Los Hammudies senores de Màlaga y Algeciras, p. 13 ss., Màlaga 1955.

• الباب الرابع ، الهامش رقم ١ من هذا الكتاب .
• الباب ٢١ ، الهامش رقم ٨ .
• الباب ٢٩ ، الهامش رقم ١٨ .

(٦) فى الطبعات العربية « المشرق » ، وصححها بروفنسال « الشرق » ، أى شرق الأندلس ، وليس المشرق المقابل للمغرب فى مصطلح مؤرخى العصر الوسيط ، وتابعه فى تصحيحه غرسية غومث ، وارتضيت رأيهما ، لأن أبا عامر هذا لم تعرف له أية رحلة إلى المشرق .

(٧) البيت من قصيدة لأبى عطاء السندى ، واسمه مرزوق ، مولى أسد بن خزيمة ، انظر :

• ابن قتيبة : الشعر والشعراء ، ج ٢ ص ٧٦٦ وما بعدها ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، القاهرة ١٣٨٧ هـ = ١٩٦٧ م .
• تاريخ الطبرى ، ج ٧ ص ٤٥٦ ، تحقيق محمد أبى الفضل إبراهيم ، القاهرة - دار المعارف .

وهو فى رثاء يزيد بن عمر بن هُبيرة[٨] رحمه الله ، ونحن وقوف على ساحل البحر بمالقة[٩] ، وجعلت أنا أكثر التفجع والأسف ولا تساعدنى عينى ، فقلت مُجيباً لأبى بكر :

وإنَّ امرأً لم يُفنِ حسنَ اصطبارِه ... عليك وقد فارقْتَه لجليدُ

وفى المذهب الذى عليه الناس أقول من قصيدة قلتها قبل بلوغ الحُلم ، أولها :

دليل الأسى نارٌ على القلب تلفَحُ ... ودمعٌ على الخدّيْن يَحمى ويَسفحُ

إذا كتم المشغوفُ سرَّ ضلوعِه ... فإنّ دموعَ العين تُبدى وتَفضحُ

إذا ما جُفونُ العينِ سالتْ شُئونُها ... ففى القلب داءٌ للغرام مُبرِّح

ويعرض فى الحُب سوء الظن ، واتهام كل كلمة من أحدهما ، وتوجيهها إلى غير وجهها ، وهذا أصل العتاب بين المحبين . وإنى لأعلم من كان أحسن الناس ظنا ، وأوسعهم نفسا ، وأكثرهم صبراً ، وأشدّهم احتمالا ، وأرحبهم صدراً ، ثم لايحتمل ممن يُحب شيئاً ، ولا يقع له معه أيسر مخالفة ، حتى يبدى من التَّعديد فنونا ، ومن سوء الظن وجوها .

وفى ذلك أقول شعرا ، منه :

أسيءُ ظنِّى بكلِّ مُحتقِر ... تأتى به والحقيرُ من حقَرَ

كى لا يُرى أصْلُ هجرةٍ وقِلًى ... فالنارُ فى بَدءِ أمرها شرر

---

(٨) يزيد بن عمر ، أو عمرو ، بن هبيرة الفزارى ، عامل مروان بن محمد ، آخر خلفاء بنى أمية فى المشرق ، على العراق ، وقد أعيا أبا جعفر المنصور أمره ، فقتله غدراً فى واسط ، عام ١٣٢ هـ = ٧٥٠ م . انظر :

- المسعودى : مروج الذهب ، جـ ٢ ص ١٩٨ ، القاهرة ١٣٤٦ هـ .

(٩) مالقة Malaga : مدينة قديمة ، تقع على البحر الأبيض المتوسط . كانت فى العصر الإسلامى آهلة عامرة متصلة الكروم ، نافقة التجارة ، بها من الصناعات الهامة صناعة الفخار المذهب والزجاج والوشى ، وشهرت بالنبيذ الجيد ولا تزال ، وكانت إلى جانب هذا ميناء هاماً للتصدير والاستيراد ، وحافظت على طابعها هذا دواماً ، وهى اليوم مركز سياحى كبير ، ويبلغ عدد سكانها الآن ٣٢٥ ألفاً تقريباً . ولا تزال قلعتها العربية قائمة على جبل يطل على البحر . وزرتها أكثر من مرة ، ويربطها بكل من مدينتى سبتة وطنجة على الشاطئ المغربى خط ملاحى ، وكانت مالقة من بين أواخر المدن التى خسرها المسلمون فى الأندلس ، فقد سقطت فى يد الكاثوليك عام ١٤٨٧ م . انظر :

- المقرى : نفح الطيب ، جـ ١ ص ١٤٤ و جـ ٤ ص ٢٠٥ .
- الحميرى : الروض المعطار ، ص ١٧٧ — ١٧٩ .
- Guillen Robles F. : Màlaga musulmana, 2 edi., Màlaga 1957

وأصْــلُ عُظْمِ الأمــورِ أهونُهــا ومن صغيرِ النَّوى تــرى الشَّجَره

وترى المُحب ، إذا لم يَثق بنقاء طَوِيَة محبوبه له ، كثيرَ التحفظ مما لم يكن يتحفظ منه قبلَ ذلك ، مثقفاً لكلامه ، مزيِّناً لحركاته ومرامى طرفه ، ولا سيما إن دُهِىَ بُمتجنٍّ وبُلى بمُعربد .

ومن آياته مراعاةُ المحب لمحبوبه ، وحفظه لكل ما يقع منه ، وبحثه عن أخباره حتى لا تسقط عنه دقيقة ولا جليلة ، وتتبّعه لحركاته . ولعمرى لقد ترى البليد يصير فى هذه الحالة ذكيا ، والغافلَ فطناً .

* خبر :

ولقد كنتُ يوماً بالمريَّة ، قاعداً فى دكان إسماعيل بن يونس الطبيب الإسرائيلى ، وكان بصيراً بالفراسة محسناً لها ، وكنّا فى لَمَّة ، فقال له مجاهدبن الحصين القيسى[10] : ما تقول فى هذا ؟ وأشار إلى رجل مُنتبذ عنَّا ناحيةً ، اسمه حاتم ، ويكنى أبا البقاء ، فنظر إليه ساعة يسيرة ثم قال : هو رجل عاشق . فقال له : صدقت ، فمن أين قلت هذا ؟ قال : لِبَهْت مُفرط ظاهر على وجهه فقط دون سائر حركاته ، فعلمت أنه عاشق وليس بمُريب .

(١٠) لم أجد فيما بين يدى من المصادر ما يلقى ضوءاً على شخصيتى إسماعيل بن يونس الطبيب ، ومجاهد بن الحصين القيسى .

٣

باب من أحب فى النوم

ولابُد لكل حُب من سبب يكون له أصلا ، وأنا مبتدئ بأبعد ما يمكن أن يكون من أسبابه ، ليجرى الكلامُ على نسق ، أو أن يبتدأ أبدا بالسهل والأهون . فمن أسبابه شيء لولا أنّى شاهدته لم أذكره لغرابته .

* خبر :

وذلك أنّى دخلتُ يوماً على أبى السرى عمار بن زياد صاحبنا ، مولى المؤيد[١] ، فوجدته مفكرا مهتماً ، فسألته عمَّا به ، فتمنَّع ساعة ثم قال : لى أعجوبةٌ ، ما سُمِعَتْ قط . قلت : وما ذاك ؟ قال رأيتُ فى نوَمى الليلةَ جاريةً فاستيقظتُ وقد ذهب قلبى فيها ، وهمْت بها ، وإنى لفى أصعب حال من حبها . ولقد بقى أياماً كثيرة تزيد على الشهر مغموماً مهموماً لا يهنئه شيء وَجْداً ، إلى أنْ عذلتُهُ وقلتُ له : من الخطأ العظيم أن تشغل نفسك بغير حقيقة ، وتعلِّق وهمك بمعدوم لا يوجد ، هل تعلم مَن هى ؟ قال : لا والله . قلت : إنك لقليل الرأى ، مُصاب البصيرة ، إذ تحب مَن لَم تره قط ، ولا خُلق ولا هو فى الدنيا ، ولو عشقتَ صورة من صور الحمّام[٢] لكنتَ عندى أعذر ،

---

(١) المؤيد ، هشام الثانى ، حكم مرتين : أولاهما من ٩٧٦ إلى ١٠٠٨ م ، والثانية من ١٠٠٩ إلى ١٠١٣ م ، وللمزيد من أخباره انظر :

* ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٣ ص ٣ وما بعدها .
* أمّا أبو السرى عمار بن زياد فلم أهتد له إلى أية ترجمة .

(٢) يشير ابن حزم إلى ملمح جميل من ملامح الحضارة الإسلامية فى الأندلس ، فحين فتحها المسلمون ابقوا على التراث الرومانى الذى وجدوه ، ويتمثل فى عدد كبير من التماثيل الجميلة ، وأفادوا منها فى تزيين البيوت والحدائق والحمامات بخاصة ، وقد رسم لنا أبو تمام بن رباح الحجام صورة شعرية جميلة ، لتمثال مريم العذراء ، تحمل المسيح بين يديها ، وكان موضوعاً فى حمام الشطارة فى إشبيلية :

ودميـــة مرمر تزهى بجيـــد تناهى فى التورد والبياض
لهـــا ولد ولم تعرف حليلا ولا ألمت بأوجاع المخاض
ونعلم أنهـــا حجر ، ولكن تتيمنـــــا بألحاظ مراض

وقد أورد نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ٧٣ ، هذه الأبيات غير منسوبة لأحد .

فمازلتُ به حتى سلا وما كاد .

وهذا عندى من حديث النفس وأضغاثها ، وداخل فى باب التمنى وتخيل الفكر .

وفى ذلك أقول شعراً ، منه :

ياليتَ شِعْرىَ من كانتْ وكيف سرَتْ ·أطلعةَ الشمس كانتْ أم هى القمرُ
أظُنُّها العقلَ أبـــداه تدبُّـــرُهُ أو صورةُ الروح أبْدتْها لىَ الفِكر
أو صورةٌ مُثِّلتْ فى النفسِ مِـــن أملى فقـد تَحيَّر فى إدراكهـــا البصر
أوْ لم يكن كلُّ هــذا فهى حادثـةٌ أتَى بهـا سبباً فى حَتْفِىَ القَـــدَر

٤
باب من أحب بالوصف

ومن غريب أصول العشق أن تقع المحبة بالوصف دون المُعاينة ، وهذا أمر يُترقَّى منه إلى جميع الحب ، فتكون المراسلة والمكاتبة ، والهم والوجد ، والسهر على غير الإبصار ، فإن للحكايات ونعت المحاسن ، ووصف الأخبار ، تأثيراً فى النفس ظاهراً . وأن تسمع نَغمتَها من وراء جدار ، فيكون سبباً للحب واشتغال البال .

وهذا كله قد وقع لغير ما واحد ، ولكنه عندى بنيان هار على غير أساس ، وذلك أنّ الذى أفرغ ذهنه فى هوى مَن لم ير لابد له إذ يخلو بفكره أن يُمثل لنفسه صورة يتوهمها ، وعيناً يقيمها نُصب ضميره ، لا يتمثل فى هاجسِه غيرَها ، قد مال بوَهْمه نحوها ، فإنْ وقعت المعاينة يوماً ما فحينئذ يتأكد الأمر أو يبطل بالكلية . وكلا الوجهين قد عرض وعُرف ، وأكثر ما يقع هذا فى ربَّات القصور ، المحجوبات من أهل البيوتات مع أقاربهن من الرجال ، وحبُّ النساء فى هذا أثبتُ من حُب الرجال ، لضعفهن وسرعة إجابة طبائعهن إلى هذا الشأن ، وتمكّنه منهن .

وفى ذلك أقول شعراً ، منه :

ويامـــــن لامنى فى حُبِّ مَنْ لم يَــره طَرْفِى
لقــد أفرطتَ فى وصفِكَ لِى فى الحبِّ بالضَّعفِ
فَقُلْ : هل تُعرَفُ الجنَّـةُ يوماً بِسوى الوصْـفِ

وأقول شعراً فى استحسان النغمة دون وقوع العين على العيان منه :

قد حلَّ جيشُ الغـــرام سمْعِى ... وَهْـوَ على مُقلَتىَّ يبـــدو

وأقول أيضاً فى مخالفة الحقيقة لظن المحبوب عند وقوع الرؤية :

وصفُوكَ لِى حتى إذا أبصرتُ مــا ... وصَفــوا علمتُ بأنّــه هَذيانُ
فالطبْلُ جلدٌ فــارغٌ وطنينُــهُ ... يرتاعُ منــه ويَفْرَقُ الإنسانُ

وفى ضد هذا أقول :

لقــد وصفوكَ لى حتى التقيْنَــا ... فصــارَ الظنُّ حقًّا فى العِيــانِ

فأوصافُ الجِنان مُقصِّراتٌ على التحقيق عن قَدْر الجِنَانِ

وإنَّ هذه الأحوال لتحدُث بين الأصدقاء والإخوان ، وعنى أَحدِّثُ .

* خبر :

إنه كان بينى وبين رجل من الأشراف ودّ وكيد ، وخطاب كثير ، وما تراءينا قط ، ثم منح الله لى لقاءه ، فما مرت إلا أيام قلائل حتى وقعت لنا مُنافرة عظيمة ووحشة شديدة متصلة إلى الآن . فقلت فى ذلك قطعة ، منها :

أبدلت أشخاصنا كُرهاً وفرْطَ قِلِى كما الصحائف قد يُبدلْن بالنّسْخ

ووقع لى ضد هذا مع أبى عامر بن أبى عامر[1] رحمة الله عليه . فإنى كنت له على كراهة صحيحة وهو لى كذلك ، ولم يرنى ولا رأيته ، وكان أصل ذلك تنقيلا يُحمل إليه عنى وإلىَّ عنه ، ويؤكِّده انحراف بين أبوينا لتنافسهما فيما كانا فيه من صحبة السلطان ، ووجاهة الدنيا . ثم وفق الله الاجتماع به فصار لى أودَّ الناس ، وصرتُ له كذلك ، إلى أن حال الموت بيننا .

وفى ذلك أقول قطعة ، منها :

أخٌ لِىَ كَسَّبنيه اللقاءُ وأوجدنِى فيه عِلْقاً شريفا

وقد كنتُ أكرهُ منه الجوارَ وما كنتُ أرغبُه لِى أليفاً

وكان البغيضَ فصار الحبيبَ وكانَ الثقيلَ فصار الخفيفا

وقد كنتُ أُدْمِنُ عنه الوجيفَ فصرتُ أديمُ إليه الوجيفا

وأما أبو شاكر عبد الرحمن بن محمد القبرى[2] فكان لى صديقاً مدة على غير رؤية ، ثم التقينا فتأكدت المودة واتصلت وتمادت إلى الآن .

---

(١) الحديث أكيداً عن ابن لعبد الملك المظفر ، وعرضنا له من قبل ، فى الباب الثانى ، الهامش رقم ٥ . ويبنى أننا بصدد المظفر نفسه فارق السن بينه وبين ابن حزم ، فلقد كان والد ابن حزم والمظفر نفسه فى خدمة هشام الثانى المؤيد ، كما يفهم ذلك من كلام المؤلف . انظر أيضاً :

* الباب ٢١ ، الهامش رقم ٨ .   * الباب ٢٩ ، الهامش رقم ١٨ .

(٢) ترجم له الضبى فى كتابه « البغية » ، الترجمة رقم ١١٠٧ ، وأورد اسمه كاملا : عبد الواحد (بدلا من عبد الرحمن) بن محمد بن موهب بن محمد التجيبى ، أبو شاكر ، ويعرف بابن القبرى . وقال إنه فقيه محدث أديب خطيب ، نشأ بقرطبة ، وسكن شاطبة ، وولى الأحكام بها ، وأورد له الضبى ، برواية ابن حزم ، أبياتاً من الشعر ، وذكر أنه توفى عام ٤٥٦ هـ = ١٠٦٤ م وسنلتقى به فيما بعد مرة أخرى فى الباب الثامن والعشرين .

٥

باب من أحب من نظرة واحدة

وكثيراً ما يكون لُصوق الحب بالقلب من نظرة واحدة . وهو ينقسم قسمين ، فالقسم الواحد مخالف للذى قبل هذا ، وهو أن يعشق المرءُ صورة لا يعلم من هى ، ولا يدرى لها اسما ولا مستقراً ، وقد عرض هذا لغير واحد .

* خبر :

حدثنى صاحبنا أبو بكر محمد بن أحمد بن إسحاق(١) عن ثقة أخبره ، سقط عنى اسمه ، وأظنه القاضى ابن الحذاء(٢) ، أن يوسف بن هارون الشاعر المعروف بالرمادىّ(٣)

---

(١) عن أبى بكر محمد بن أحمد بن إسحاق ، انظر :

* الباب الثانى ، الهامش رقم ٥ .

(٢) القاضى محمد بن يحيى ، يكنى أبا عبد الله ، ويعرف بابن الحذاء ، فقيه محدث حافظ ، له رحلة إلى المشرق ، توفى عام ٤١٦ هـ = ١٠٢٥ م ، وقد خصه الضبى فى كتابه « البغية » بترجمة قصيرة ، انظر :

* الضبى : البغية ، الترجمة رقم ٣١٩ .
* ابن بشكوال : الصلة ، الترجمة رقم ١١٠٢ .

(٣) يوسف بن هارون الرمادى الكندى ، يكنى أبا عمر ، من كبار شعراء الأندلس على أيام المنصور بن أبى عامر ، وجانب كبير من شعره ضاع ولم يصلنا . والرمادى ليس نسبة إلى موضع بالمغرب كما وهم الحميدى فى كتابه « جذوة المقتبس ، وإنما الصورة العربية لكنيته باللغة الرومانثية على أيامه ، فقد كان يلقب بأبى جنيش ، فنقل إلى الرمادى ، لأن جنيش فى رومانثية الأندلس ، وفى الأسبانية المعاصرة ، تعنى الرماد . توفى سنة ٤١٣ هـ = ١٠٢٢ م . انظر :

* الحميدى : جذوة المقتبس من بغية الملتمس ، ص ٣٤٦ .
* ابن خاقان ، الفتح : مطمح الأنفس ، ص ٦٩ .
* ابن بشكوال : الصلة ، الترجمة رقم ١٤٩١ ، القاهرة ١٩٦٦ .
* ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ، جـ ١ ص ٣٩٢ ، تحقيق شوقى ضيف ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٦٤ .
* Gonzàlez Palencia : Historia de la literatura aràbigo - espanola, p. 59, 2 edi., Barcelona 1945.

والترجمة العربية له ص ٦٨ .

* Asin Palacios : Abenhàzam de Córdoba, Vol. I, p. 53, Madrid 1927.

كان مجتازاً عند باب العطارين (٤) بقرطبة ، وهذا الموضع كان مجتمع النساء ، فرأى جارية أخذت بمجامع قلبه ، وتخلّل حبُّها جميعَ أعضائه ، فانصرف عن طريق الجامع وجعل يَتبعها وهى ناهضة نحو القنطرة (٥) . فجازتها إلى الموضع المعروف بالرَبض ، فلما صارت بين رياض بنى مروان - رحمهم الله - المبنية على قبورهم فى مقبَرة الربض ، خَلْف النهر ، نظرت منه منفرداً عن الناس ، لا همّة له غيرها ، فانصرفت إليه فقالت له : مالك تمشى ورائى ؟ فأخبرها بعظيم بليّته بها . فقالت له : دع عنك هذا ، ولا تطلُب فضيحتى ، فلا مطمع لك فىّ البتة ، ولا إلى ما ترغبه سبيل فقال : إنى أقنع بالنظر . فقالت : ذلك مُباح لك . فقال لها : يا سيدتى : أحرة أم مملوكة ؟ قالت : مملوكة ، فقال لها : ما اسمك ؟ قالت : خَلْوَة ، قال : ولمن أنت فقالت له : عِلْمُكَ والله بما فى السماء السابعة أقرب إليك مما سألت عنه ، فدع المحال . فقال لها : يا سيدتى ، وأين أراك بعد هذا ؟ قالت : حيث رأيتنى اليومَ ،

---

(٤) باب العطارين ، أحد أبواب مدينة قرطبة السبعة ، ويقع فى الجانب الغربى من المدينة ، ومنه يبدأ الطريق المؤدى إلى إشبيلية ، ومن هنا كان يعرف أيضاً باسم باب إشبيلية ، وحوله كانت تقوم تجارة العطور وأدوات الزينة ، فأصبح ملتقى النساء من كل أنحاء المدينة ، وعلى مقربة منه كان حى الرقاقين ، الذين يصنعون الرقاق ، ومسجد النخيلة . انظر :

* المقرى : نفح الطيب ، جـ ٢ ، ص ١٣ .

* Lévi - Provençal : L'Espagne Musulmane au Xeme. siécle, p. 204, Paris 1932.

(٥) القنطرة جسر قديم على الوادى الكبير ، وتقول الرواية إن الإمبراطور الرومانى أوجست Auguste (٦٣ ق م - ١٤ م) أمر بإنشائه ، وبقى طوال العصر الإسلامى موضع رعاية الدولة وعنايتها ، وكان أول تجديد أصابه على يد الوالى السمح الخولانى ، بأمر من عمر بن عبد العزيز ، ثم جدد ورم بعد ذلك فى عصور مختلفة أكثر من مرة . وكان يقع عند نهاية الشارع الرئيسى فى قرطبة الإسلامية ، ويسمى بالمحجة العظمى ، ويبدأ من أعلى المدينة ، عند باب عبد الجبار ، ماراً بين قصر الخلافة والمسجد الجامع ، حتى يصل إلى باب القنطرة ، ويعرف أيضاً باسم باب الوادى ، والوادى تعنى النهر فى لغة الأندلس ، وباسم باب الجزيرة الخضراء . وكان يصل بين المدينة وربضها الواقع على الضفة الأخرى من النهر ، ويدعى ربض شقندة ، وهو تعريب لاسمه اللاتينى Secunda ، وكان يعد من المدينة لامن ضواحيها ، لأنه قديم ومسور ، وكان يسكنه العمال وأهل الأسواق ، وفيه اندلعت الثورة على الحكم الأول ، وإلى الربض نسبت ، وقد انتصر فيها الحكم بعد عناء ، فنفى سكانه ، وأتى على بنيانه ، وتحول فى جانب منه إلى مقبرة عرفت باسم مقبرة الربض . انظر :

* Lévi - Provençal : op. cit., p. 205 - 207.

* المقرى : نفح الطيب ، جـ ٢ ص ٢٦ .
* ابن الأبار : الحلة السيراء ، جـ ١ ، ص ٤٣ ، طبعة القاهرة ١٩٦٣ .

فى مثل تلك الساعة من كلُ جمعة . فقالت له : إما أن تنهض أنت وإما أنهض أنا ؟ فقال لها : انهضى فى حفظ الله . فنهضت نحو القنطرة ولم يمكنه اتباعها لأنها كانت تلتفت نحوه لترى أيسايرها أم لا . فلما تجاوزت باب القنطرة أتى يقفوها فلم يقع لها على مسألة .

قال أبو عمرو ، وهو يوسف بن هارون : فو الله لقد لازمت باب العطارين والربض من ذلك الوقت إلى الآن ، فما وقعت لها على خبر ، ولا أدرى أسماءٌ لحَسَتها أم أرض بلعتها ، وإن فى قلبى منها لأحرّ من الجمر . وهى خلْوة التى يتغزل بها فى أشعاره .

ثم وقع بعد ذلك على خبَرها بعد رحيله فى سببها إلى سرَقَسطة[٦] فى قصة طويلة[٧]، ومثل ذلك كثير .

وفى ذلك أقول قطعة ، منها :

عَيْنى جَنَتْ فى فؤادِى لوعــة الفِكَرِ ... فأرْسَل الدمــع مُقْتَصًّا مــن البصرِ
فكيف تُبْصِرُ فعلَ الدمـــع مُنتصفاً ... منها بإغراقِهـــا فى دَمْعها الـــدُّرر
لم ألْقَهَا قبل إبصـــارِى فأعرِفَهــا ... وآخــرُ العهــد منها ساعةُ النظــر

* * *

(٦) سرقسطة : فى شمال شرق الأندلس ، مدينة قديمة جداً ، وقد جعل منها الإمبراطور الرومانى أوجست مستعمرة حربية أعطاها اسمه Caesareaugust ، وحرف على أيام القوط فأصبح Cesarguste، وصار على أيام المسلمين سرقسطة ، ومنها جاءت التسمية الإسبانية Zaragoza وكانت على أيام المسلمين قاعدة الثغر الأعلى ، وعرفت بعروس الإبرو ، النهر الذى تقع عليه . وسميت بالمدينة البيضاء لكثرة جصها وجيارها ، أو لأن أسوارها القديمة كانت من الرخام الأبيض ، ويصفها الحميرى بأنها « ممتدة الأطناب ، واسعة الشوارع ، حسنة الديار والمساكن ، متصلة الجنات والبساتين » . ومن آثارها الإسلامية القائمة حتى يومنا هذا قصر الجعفرية La Jaferia ، وكان مقراً لبنى هود ملوك سرقسطة أيام الطوائف ، وقد سقطت المدينة صلحاً فى يد الكاثوليك فى ٤ من رمضان ٥١٢ هـ = ١٩ من ديسمبر ١١١٨ م ، بعد حصار دام تسعة شهور ، وأصبحت حاضرة مملكة أرجون المسيحية ، وتخلفت فيها جاليات إسلامية كبيرة ، حملت اسم المدجنين ، وعاشت فيها ، وفى مقاطعتها ، قروناً طويلة ، وقامت بدور بارز فى نقل الحضارة الإسلامية إلى الغزاة الكاثوليك ، وبخاصة فى مجال المعمار ، وشهرت طريقتهم باسم فن المدجنين . وهى اليوم مدينة كبيرة عامرة ، يبلغ تعدادها قرابة ٣٨٠ ألفاً . انظر :

• الحميرى : الروض المعطار ، ص ٩٦ – ٩٨ . • المقرى : نفح الطيب ، جـ ١ ص ١٤٣ .

* Cagigas Isidoro de las : Los Mudejares, tomo II, y ss. Madrid 1949.

* Calzada Andrés : Historia de la Arquitectura espanola. 2 edi., p. 122 ss., Borcelona 1949.

(٧) أورد الضبى جانباً من هذه القصة ، فى ترجمته ليوسف ، انظر :

• البغية ، الترجمة رقم ١٤٥١ .

والقسم الثانى مخالف للباب الذى يأتى بعد هذا الباب إن شاء الله ، وهو أن يعلق المرءُ من نظرة واحدة جارية معروفة الاسم والمكان والمنشأ ، ولكن التفاضل يقع فى هذا فى سرعة الفناء وإبطائه ، فمن أحب من نظرة واحدة ، وأسرع العلاقة من لمحة خاطرة ، فهو دليل على قلة الصبر ، ومُخبِرٌ بسرعة السلو ، وشاهد الطرافة والملل . وهكذا فى جميع الأشياء أسرعها نموا أسرعها فناء . وأبطؤها حدوثا أبطؤها نفاداً .

* خبر :

إنى لأعلم فتى من أبناء الكُتاب رأته امرأة سرية النشأة ، عالية المنصب ، غليظة الحجاب ، وهو مجتاز ، ورأته فى موضع تَطلع منه كان فى منزلها ، فعلقتْه وعَلقها ، وتهاديا المراسلة زمانا على أرق من حد السيف ، ولولا أنى لم أقصد فى رسالتى هذه كشف الحيل وذكر المكائد ، لأوردت مما صح عندى أشياء تحير اللبيب ، وتدهش العاقل ، أسبل الله علينا ستره وعلى جميع المسلمين بمنّه ، وكفانا .

٦
باب من لا يحب إلا مع المطاولة

ومن الناس من لا تصح محبته إلا بعد طول المخافتة ، وكثير المُشاهدة ، ومتمادى الأنس ، وهذا الذى يوشك أن يدوم ويثبت ولا يحيك فيه مرُّ الليالى ، فما دَخل عسيراً لم يخرج يسيراً ، وهذا مذهبى . وقد جاء فى الأثر أن الله عز وجل قال للروح حين أمره أن يدخل جسدَ آدم ، وهو فخَّار ، فهاب وجزع : ادخل كرها واخرج كرهاً . حُدِّثناه عن شيوخنا .

ولقد رأيت من أهل هذه الصفة من إنْ أحس من نفسه بابتداء هوى ، أو توّجس من استحسانه ميلا إلى بعض الصور ، استعمل الهجر وترك الإلمام ، لئلا يزيد ما يجد فيخرج الأمر عن يده ، ويحال بين العَيْر والنزوان . وهذا يدل على لصوق الحب بأكباد أهل هذه الصفة ، وأنّه إذا تمكن منهم لم يحل أبداً .

وفى ذلك أقول قطعة ، منها :

سأبْعُدُ عن دواعِى الحبِّ إنّى ... رأيتُ الحزمَ من صِفةِ الرشيدِ
رأيتُ الحُبَّ أوّلُهُ التصدّى ... بِعَيْنِكَ فى أزاهير الخُدودِ
فبيْنا أنتَ مُغتبطٌ مُخَلّىً ... إذا قد صِرْتَ فى حَلَقِ القيود
كمُغترٍّ بضَحضاحٍ قَريبٍ ... فزلَّ فغابَ فى غَمْرِ المدُود

وإنى لأطيل العجب من كل مَن يدعى أنه يحب مِن نظرة واحدة ، ولا أكاد أصدقه ، ولا أجعل حُبه إلا ضرباً من الشهوة ، وأما أن يكون فى ظنى متمكناً من صميم الفؤاد ، نافذاً فى حجاب القلب ، فما أقدر ذلك ، وما لصق بأحشائى حُب قطُّ إلا مع الزمن الطويل ، وبعد ملازمة الشخص لى دهراً ، وأخْذى معه فى كل جدّ وهزل ، وكذلك أنا فى السلو والتوقِّى ، فما نسيت ودًّا لى قط ، وإنّ حَنينى إلى كل عهد تقدّم لى لَيَغَصّنى بالطعامُ ويُشرقنى بالماء ، وقد استراح من لم تكن هذه صفته . وما مللت شيئاً قط بعد معرفتى به ، ولا أسرعت إلى الأنس بشىء قط أول لقائى له ، وما رغبت فى الاستبدال إلى سبب من أسبابى مذ كنت ،

لا أقول فى الألأف والإخوان وحدهم . ولكن فى كل ما يستعمل الإنسان من ملبوس ومركوب ومطعوم ، وغير ذلك . وما انتفعت بعيش ، ولا فارقنى الإطراق والانفلاق ، مذ ذقت طعم فراق الأحبة ، وإنه لشَجي يعتادنى ، وولوع همّ ما ينفك يطْرقنى ، ولقد نَغَّص تذكّرى ما مَضى كل عيش أستأنفه . وإنى لقتيل الهموم فى عداد الأحياء ، ودفين الأسى بين أهل الدنيا ، والله المحمود على كل حال لا إله إلا هو.

وفى ذلك أقول شعراً ، منه :

مَحبَّةُ صِدْقٍ لم تكن بنتَ ساعةٍ ولا وَرِيتْ حين ارتيادٍ زِنَادُها
ولكنْ على مَهْلٍ سَرَتْ وتولّدتْ بطولِ امتزاجٍ فاستقرّ عمادُها
فلم يَدْنُ منها عزْمها وانتقاضُها ولم يَنْأَ عنها مُكْثُها وازديادُها
يؤكّد ذا أنّا نرى كلَّ نشأةٍ تَتِمُّ سريعا عن قريبٍ معادها
ولكنّنى أرضٌ عزازٌ صَلِيبةٌ منيعٌ إلى كلِّ الغروسِ انقيادُها
فما نفذتْ منها لديْها عُروقُها فليستْ تُبالى أن يجود عهادُها

ولا يظن ظانّ ، ولا يتوهّم متوهم ، أن كل هذا مخالف لقولى المسطر فى صدر الرسالة : أن الحب اتصال بين النفوس فى أصل عالمها العُلْوى ، بل هو مؤكد له ، فقد علمنا أن النفس فى هذا العالم الأدنى قد غمرتها الحجب ، ولحقتها الأعراض ، وأحاطت بها الطبائع الأرضية الكونية ، فسترت كثيراً من صفاتها، وإن كانت لم تحله لكن حالت دونه ، فلا يرجى الاتصال على الحقيقة إلا بعد التهيؤ من النفس والاستعداد له ، وبعد إيصال المعرفة إليها بما يشاكلها ويوافقها ، ومقابلة الطبائع التى خفيت مما يُشابهها من طبائع المحبوب ، فحينئذ يتصل اتصالا صحيحاً بلا مانع .

وأما ما يقع من أول وهلة ببعض أعراض الاستحسان الجسدىّ ، واستطراف البصر الذى لا يجاوز الألوان ، فهذا سر الشهوة ومعناها على الحقيقة ، فإذا غَلبت الشهوة وتجاوزت هذا الحد ، ووافق الفصل اتصال نفسانى تشترك فيه الطبائع مع النفس يُسمى عشقا ، ومن هذا دخل الغلط على من يزعم أنه يحب اثنين ، ويعشق شخصين متغايرين ، فإنما هذا من جهة الشهوة التى ذكرنا انفا ، وهى على المجاز تسمى محبة لا على التحقيق ، وأما نفس المحب فما فى الميل به فضل يصرفه من أسباب دينه ودنياه ، فكيف بالاشتغال بحب ثان .

وفى ذلك أقول .

كذب المُدَّعِي هوى اثنين حتْما	مثل ما فى الأصول أكْذب مانى
ليس فى القلب موْضعُ لحبيبي	نِ ولا أحْدثُ الأمــورِ بثانى
فكما العقلُ واحــدٌ ليس يـدرى	خالقا غير واحـد رحمـــان
فكذا القلبُ واحدٌ ليس يهــوى	غيرَ فَرد مُباعــد أو مــــدان
هُوَ فى شِرْعــة المودّة ذو شِــرْ	كٍ بعيدٌ مِن صحَّة الإيمـــان
وكذا الدِّيــنُ واحــدٌ مستقيمٌ	وكَفَورٌ مَــن عنْــده دينان

وإنى لأعرف فتى من أهل الجد والحسب والأدب ، كان يبتاع الجارية وهى سالمة الصدر من حُبه ، وأكثر من ذلك كارهة له لقلة حلاوة شمائل كانت فيه ، وقطوب دائم كان لايفارقه . ولاسيما مع النساء ، فكان لايلبث إلا يسيراً ريثما يصل إليها بالجماع . ويعود ذلك الكُرهُ حبا مُفرطا ، وكلفا زائدا . واستهتارا مكشوفا ، ويتحول الضجرلصحبته ضجرا لفراقه . صحبه هذا الأمر فى عدة منهن ، فقال بعض إخوانى : فسألته عن ذلك فتبسم نحوى وقال : إذا والله أخبرك ، أنا أبطأ الناس إنزالا ، تقضى المرأة شهوتها ، وربما ثنت ، وإنزالى وشهوتى لم ينقضيا بعد ، وما فترت بعدها قط ، وإنى لأبقى بمُنّتى بعد انقضائها الحين الصالح ، وما لاقى صدرى صدر امرأة قط عند الخلوة الا عند تعمدى المعانقة . وبحسب ارتفاع صدرى نزولُ مؤخرى (١)

فمثل هذا وشبهه إذا وافق أخلاق النفس ولد المحبة ، إذ الأعضاء الحساسة مسالك إلى النفوس ومؤديات نحوها .

---

(١) نلتقى بالفكرة نفسها ، فى أكثر من موضع ، من مؤلفات الشاعر اللاتينى أوفيد Ovide (٤٣ ق م – ١٧ م) : « غراميات Amours » و « فن الحب "L'Art d'Aimer" . وقد ترجمه الدكتور ثروت عكاشة بعنوان : « فن الهوى » و « شفاء الحب "Remède de l'amour" انظر :

* Dictionnaire des littératures, vol. III, p. 1943, Paris 1968.
* Gomblanc Ed. : Historia general de la literatura, p. 186 ss., Madrid sin fecha.
* Norsen N. : Lo sexual a través de los anos, en la revista de "Luz", p. 464 ss., Julio 1963, New York.

٧

باب من أحب صفة

لم يستحسن بعدها غيرها مما يخالفها

واعلم – أعزّك الله – أن للحُب حكما على النفوس ماضياً ، وسلطاناً قاضياً ، وأمراً لا يُخالف ، وحدّا لا يُعصى ، وملكاً لا يتعدّى ، وطاعة لا تُصرف ، ونفَاذاً لا يرد ، وأنه ينغص المِرَر ، ويَحُلّ المُبرم ، ويحُلّل الجامد ، ويخل الثابت ، ويحل الشغافَ ، ويُحلّ الممنوع .

ولقد شاهدت كثيراً من الناس لا يُتهمون فى تمييزهم ، ولا يُخاف عليهم سقوط فى معرفتهم ، ولا اختلال بحُسن اختيارهم ، ولا تقصير فى حَدْسهم ، قد وصفوا أحباباً لهم فى بعض صفاتهم بما ليس بمستحسن عند الناس ، ولا يُرْضى فى الجمال ، فصارت هجّيراهم ، وعُرضة لأهوائهم . ومنتهى استحسانهم ، ثم مضى أولئك إمّا بسلوّ أو بَيْن أو هجر ، أو بعض عوارض الحب ، وما فارقهم استحسان تلك الصفات ، ولا بان عنهم تفضيلُها ، على ما هو أفضل منها فى الخليقة ، ولا مالوا إلى سواها ، بل صارت تلك الصفات المُستجادة عند الناس مهجورة عندهم ، وساقطة لديهم ، إلى أن فارقوا الدنيا وانقضت أعمارهم ، حنينا منهم إلى من فقدوه ، وألفة لمن صحبوه . وما أقول إنّ ذلك كان تصنّعا لكن طبعا حقيقيّا ، واختياراً لا دَخَل فيه ، ولا يرون سواه ، ولا يقولون فى طيّ عَقْدهم بغيره .

وإنى لأعرف من كان فى جِيد حبيبه بعضُ الوقص ، فما استحسن أغيد ولا غيداء بعد ذلك . وأعرف مَن كان أول علاقته بجارية مائلة إلى القِصَر ، فما أحبَّ طويلة بعد هذا ، وأعرف أيضاً مَن هوى جارية فى فمها فَوَه لطيف ، فلقد كان يتقذّر كل فم صغير ويذُمه ، ويكرهه الكراهية الصحيحة . وما أصف من منقوصى الحُظوظ فى العلم والأدب ، لكن عن أوفر النّاس قسطاً فى الإدراك ، وأحقهم باسم الفهم والدّراية .

* * *

وعنّى أخبرك :

أنى أحببتُ فى صباى جارية لى شقراء الشعر . فما استحسنت من ذلك الوقت سوداء الشعر ، ولو أنه على الشمس ، أو على صورة الحسن نفسه ، وإنى لأجد هذا فى أصل تركيبى من ذلك الوقت ، ولا تؤاتينى نفسى على سواه ولا تحب غيره البتة . وهذا العارض بعينه عَرَض لأبى رضى الله عنه ، وعلى ذلك جرى إلى أن وافاه أجلُه .

وأما جماعة خلفاء بنى مروان – رحمهم الله – ولا سيما ولدُ الناصر(١) منهم ، فكلهم مجبولون على تفضيل الشقرة ، لا يختلف فى ذلك منهم مختلف . وقد رأيناهم ، ورأينا من رآهم ، مِن لَدُن دولة الناصر إلى الآن فما منهم إلا أشقر ، نزاعا إلى أمهاتهم ، حتى قد صار ذلك فيهم خلقة ، حاشى سليمان الظافر(٢) رحمة الله ، فإنى رأيته أسود اللمّة واللحية .

وأما الناصر والحكم المُستنصر(٣) ، رضى الله عنهما . فحدثنى الوزير أبى رحمه الله

---

(١) يشير إلى عبد الرحمن الناصر ، أول وأعظم خليفة أندلسى ، وحكم من ٩١٢ إلى ٩٦١ ، انظر :

- المقرى : نفح الطيب ، ج ١ ص ٣٣٠ وما بعدها .
- ابن الأبار : الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٩٧ وما بعدها .
- ابن سعيد : المغرب ، ج ١ ص ١٨١ وما بعدها .

(٢) سليمان الظافر ، ويعرف بالمستعين ، تولى الخلافة خلال فتنة قرطبة عام ٤٠٠ هـ = ١٠٠٩ م ، وتسمى حينئذ الظافر بالله ، إلى جانب لقب المستعين بالله ، ثم أخرج من قرطبة مهزوماً ، وعاد إليها ثانية خليفة عام ١٠١٣ م ، وبقى فى الخلافة حتى عام ١٠١٦ م . وكان من أهل العلم والفهم ، أديباً فصيحاً شاعراً ، له رسائل وأشعار بديعة ، وقد أمدنا ابن الأبار بتفصيلات وافية ودقيقة عن الأحداث التى اضطرب فيها ، انظر :

- ابن الأبار : الحلة السيراء ، ج ٢ ص ٥ وما بعدها .
- ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٣ ص ٩١ .
- المقرى : نفح الطيب ، ج ١ ص ٤٠٣ وما بعدها .
- ابن بسام : الذخيرة ، القسم الأول ، المجلد الأول ، ص ٢٤ وما بعدها .

(٣) الحكم المستنصر ، ثانى خلفاء بنى أمية فى قرطبة ، ولى الخلافة بعد أبيه الناصر ٣٥٠ هـ = ٩٦١ م ، وظل خليفة حتى وفاته فى ٣٦٦ هـ = ٩٧٦ م . وكان حسن السيرة ، جامعاً للعلوم ، محباً لها ، مكرماً لأهلها ، جماعاً للكتب فى أنواعها ، بما لم يجمعه أحد من الملوك قبله . ويحكى ابن حزم ، عن تليد الخصى وكان على خزانة العلوم : أن عدد الفهارس التى فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة ، وفى كل فهرسة عشرون ورقة ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين لا غير . وأقام للعلم سوقاً نافقة جلبت إليها بضائعه من كل قطر . انظر :

- المقرى : نفح الطيب ، ج ١ ص ٣٦١ وما بعدها .
- ابن سعيد : المغرب ، ج ١ ، ص ١٨٦ .
- ابن الأبار : الحلة ، ج ١ ، ص ٢٠٠ .
- Julian Ribera : Disertaciones y opusculos, tomo I, p. 193, Madrid 1928.

وغيره : أنهما كانا أشقَرَين أشهلين . وكذلك هشام المؤيّد(٤) . ومحمد المهدى(٥) ، وعبد الرحمن المرتضى(٦) رحمهم الله ، فإنى قد رأيتهم مرارا ، ودخلت عليهم ، فرأيتهم شُقراً شُهلا ، وهكذا أولادهم وإخوتهم وجميع أقاربهم ، فلا أدرى أذلك استحسان مركّب فى جميعهم ، أم لرواية كانت عند أسلافهم فى ذلك فجروا عليها . وهذا ظاهر فى شعر أبى عبد الملك مروان بن عبد الرحمن بن مروان بن أمير

---

(٤) هشام المؤيد ، ابن الحكم المستنصر ، تولى الخلافة بعد أبيه ، وكان صبياً غراً ، مشتغلا باللعب والفتك والخلاعة ، فحجر عليه وزيره المنصور بن أبى عامر ، ولم يترك له سوى الخطبة والضرب باسمه للدينار والدرهم ، وبدأ ما يعرف فى تاريخ الأندلس بعصر الحجابة ، وفيه كانت القوة الفعلية بيد المنصور ، الذى تسمى بالحاجب ، وقد تولى هشام الخلافة على فترتين ، من ٩٧٦ إلى ١٠٠٨ ، ومن ١٠٠٩ إلى ١٠١٣ . انظر :

- ابن الكردبوس : تاريخ الأندلس ، ص ٦٢ ، تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادى ، مدريد ١٩٧١ .
- ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٣ ، ص ٣ وما بعدها .
- المقرى : نفح الطيب ، ج ١ ص ٣٧٢ .

(٥) المهدى محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر ، أول من ثار من بنى أمية الأندلسيين على الحاجب العامرى الثالث ، عبد الرحمن بن أبى عامر ، وكانت العامة تسميه شنجول ، أخذا من كلمة Sanchuelo ، تصغير لفظ Sancho أى شانجه الصغير ، وشانجه ملك نبرة (٩٧٠ – ٩٩٥ م) جده لأمه ، فقد تزوج المنصور ابن أبى عامر ابنة ملك نبرة ، واعتنقت الإسلام ، وتسمت باسم عبدة ، وأنجب منها المنصور عبد الرحمن هذا ، وحاول أن يجعل من نفسه ولى عهد الخليفة ، وقد تزعم المهدى الثورة دفاعاً عن حق بنى أمية فى الخلافة ، وثأر لأبيه ، وكان عبد الرحمن قد قتله ، وتبعته عامة قرطبة ، ودفع بهم إلى مدينة الزاهرة مقر العامريين فانتهبوها ، وقتل عبد الرحمن ، وأعلن نفسه خليفة عام ١٠٠٨ ، ولكن خلافته لم تطل فقد قتل عام ١٠١٠ بعد أحداث أسيفة . انظر :

- ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٣ ص ٥٠ وما بعدها .
- المقرى : نفح الطيب ، ج ١ ص ٤٠٢ .
- ابن الكردبوس ، تاريخ الأندلس ص ٦٢ وما بعدها .

(٦) عبد الرحمن بن محمد ، من ولد عبد الرحمن الناصر ، نصب خليفة بشرق الأندلس ، وتسمى المرتضى ، وقد حاول بمن معه أن ينتزع قرطبة من القاسم بن حمود ، وهو فى طريقه إليها اصطدم بزاوى بن زيرى بن مناد ، أمير غرناطة . وكان ابن حزم مع الخليفة المرتضى فى حملته هذه ، وقد اقتتل الفريقان أياماً ، ثم انهزم الأندلسيون ، بتعبير ابن بسام ، بقيادة المرتضى ، أمام بربر غرناطة بقيادة زاوى ، وتفرق جيش المرتضى لا يلوى أحد على أحد ، تاركين وراءهم زادهم وعتادهم ، وفرّ المرتضى نفسه إلى وادى آش ، وهناك اغتالته عصابة مستأجرة ، فى ٤٠٨ هـ = ١٠١٨ م . انظر :

- ابن بسام : الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، القسم الأول ، المجلد الأول ، ص ٣٩٧ ، وما بعدها . القاهرة ١٣٥٨ هـ = ١٩٣٩ م .

المؤمنين الناصر ، وهو المعروف بالطليق[٧] ، وكان أشعر أهل الأندلس فى زمانهم ، وأكثر تغزله فبالشُّقر ، وقد رأيته وجالسته .

وليس العجب فيمن أحبّ قبيحاً ثم لم يصحبه ذلك فى سواه فقد وقع من ذلك ، ولا فيمن طبع مذ كان على تفضيل الأدنى ، ولكن فيمن كان ينظر بعين الحقيقة ، ثم غلب عليه هوى عارضٌ بعد طول بقائه فى الجماعة ، فأحاله عما عهدتْه نفسُه حوالة صارت له طبعاً ، وذهب طبعه الأول . وهو يعرف فضل ما كان عليه أولا . فإذا رجع إلى نفسه وجدها تأبى إلاّ الأدنى ، فأعجب لهذا التغلب الشديد ، والتسلط العظيم ، وهو أصدق المحبة حقا ، لا من يتحلى بشيم قوم ليس منهم ، ويدّعى غريزة لا تقبله ، فيزعم أنه يتخيّر من يحب ، أما لو شغل الحب بصيرته ، وأطاح فكرته ، وأجحف بتمييزه ، لحال بينه وبين التخيّر والارتياد .

وفى ذلك أقول شعراً ، منه

منهمْ فتىً كان فى مَحبوبِه وَقَصٌ	كأنّمَا الغيدُ فى عَيْنيــه جنّانُ
وكان مُنبسطاً فى فضْلِ خيرَتـــه	بحجّةٍ حقُها فى القوْل تبْيـــان
إن المَهَا وبهـــا الأمثـــالُ سائرةٌ	لا يُنْكِرُ الحسنَ فيهِ الدهرَ إنسان
وَقْصٌ فليس بها عنقاءُ واحِـــدةٌ	وهل تُزانُ بطولِ الجيدِ بُعْـــران
وآخـــرُ كان فى محبوبِه فَـوَهٌ	يقول حَسْبِىَ فى الأفواهِ غِـــزْلان
وثالثٌ كان فى محبـــوبِه قِصرٌ	يقول إنّ ذواتِ الطُّول غِيلان

وأقول أيضاً :

يَعيبونَها عندى بشُقْرَة شَعــــرِها	فقلتُ لهم هذا الذى زانها عِنْدى
يعَيبون لون النَّور والتِّبر ضِلّـــةً	لرأْيِ جَهولٍ فى الغواية ممتـــدّ

(٧) ورد الاسم محرفاً فى الطبعات العربية على النحو التالى : « . . . فى شعر عبد الملك بن مروان » ، وقد صححناه ، وهو أشهر من أن يخطئ إنسان فى كتابه اسمه . ولمعرفة الشاعر الطليق ، انظر :

• غرسية غومث : مع شعراء الأندلس والمتنبى ، ص ٨٣ وما بعدها ، ترجمة الدكتور الطاهر أحمد مكى ، مكتبة وهبة ، القاهرة ١٣٩٤ هـ = ١٩٧٤ م .

وهل عابَ لونَ النرجسِ الغضِّ عائبٌ ولونَ النجومِ الزاهراتِ على البُعْدِ
وأبعدُ خلقِ اللهِ من كُلِّ حكمـةٍ مُفَضِّلُ جِرْمٍ فاحمِ اللونِ مُسودِّ
بهِ وُصِفتْ ألوانُ أهلِ جهنَّمٍ ولِبْسةُ باكٍ مُثْكلِ الأهلِ مُحْتَدِّ
ومُذ لاحت الراياتُ سُوداً تيقَّنتْ نفوسُ الورَى أنْ لا سبيلَ إلى الرُّشد

٨

باب التعريض بالقول

ولا بد لكل مطلوب من مَدخل إليه ، وسبب يتُوصّل به نحوه ، فلم ينفرد بالاختراع دون واسطة إلا العليمُ الأول جلّ ثناؤه . فأول ما يستعمل طلاب الوصل ، أو أهل المحبة فى كشف ما يجدونه إلى أحبتهم التعريضُ بالقول : إمّا بإنشاد شعر ، أو بإرسال مُثُل ، أوتعمية بيت ، أوطرح لغز ، أوتسليط كلام .

والناس يختلفون فى ذلكِ على قدر إدراكهم ، وعلى حسب ما يرونه من أحبتهم ، من نفار أو أنس أو فطنة أو بلادة . وإنى لأعرف من ابتدأ كشف محبته إلى من كان يحب بأبيات قلتُها . فهذا وشبهه يبتدئ به الطالب للمودة ، فإن رأى أنسا وتسهيلا زاد . وإنْ يعاين شيئاً من هذه الأمور فى حين إنشاده لشيء مما ذكرنا ، أو ايراده لبعض المعانى التى حددنا ، فانتظاره الجواب ، إما بلفظ أو بهيئة الوجه والحركات ، لمَوْقِف بين الرجاء واليأس هائل ، وإن كان حيناً قصيراً ، ولكنه إشراف على بلوغ الأمل أو انقطاعه .

ومن التعريض بالقول جنس ثان ، ولا يكون إلا بعد الاتفاق ، ومعرفة المحبّة من المحبوب ، فحينئذ يقع التشكيّ ، وعقد المواعيد ، والتقرير ، وإحكام المودات بالتعريض ، وبكلام يظهر لسامعه منه معنى غيرُ ما يذهبان إليه ، فيجيب السامع عنه بجواب غير ما يتأدى الى المقصود بالكلام ، على حسب ما يتأدى إلى سمعه ، ويسبق إلى وهمه ، وقد فهم كلٌّ واحد منهما عن صاحبه ، وأجابه بما لا يفهمه غيرهما ، إلا من أُيِّد بحسّ نافذ ، وأُعين بذكاء ، وأُمد بتجربة ، ولا سيما إنْ أحس من معانيهما بشيء ، وقلما يغيب عن المتوسم المُجيد ، فهنالك لا خفاء عليه فيما يريدان .

وأنا أعرف فتى وجارية كانا يتحابان ، فأرادها فى بعض وصْلها على بعض مالا يجمل . فقالت : والله لأشكونّك فى الملإ علانية ، ولأفضحنك فضيحة مستورة . فلما كان بعد أيام حضرت الجاريةُ مجلس بعض أكابر الملوك ، وأركان الدولة ، وأجلٍّ

رجال الخلافة ، وفيه ممن يُتوفَّى أمره من النساء والخدم عددٌ كثير ، وفى جملة الحاضرين ذلك الفتى ، لأنه كان بسبب من الرئيس ، وفى المجلس مغنيات غيرُها ، فلما انتهى الغناء إليها سوّت عودها واندفعت تغنى بأبيات قديمة ، وهى :

غَـزالٌ قد حكى بـدرَ التَّمامِ   كشمسٍ قـد تجلّتْ مـن غمامِ
سبَى قلْبى بألحـاظٍ مِـراضٍ   وقَـدٍّ الغصنِ فى حُسْنِ القَـوام
خضعتُ خضوعَ صبٍّ مستكينٍ   لـه وذلّلتُ ذِلّـةَ مُسْتَهام
فَصِلْنى يا فديتُـك فى حـلالٍ   فمـا أهوى وِصـالاً فى حـرام

وعلمت أنا هذا الأمر فقلت :

عتـابٌ واقـعٌ وشَكاةُ ظُلمٍ   أتتْ مـن ظالمٍ حكَمٍ وخَصْمٍ
تشكَّتْ ما بهـا لم يـدرِ خلقٌ   سوى المشكُوِّ ما كانت تُسمّى

٩
باب الإشارة بالعين

ثم يتلو التعريض بالقول ، إذا وقع القبولُ والموافقة ، الإشارة بلحظ العين ، وإنه ليقوم فى هذا المعنى المقام المحمود ، ويبلغ المبلغ العجيب ، ويُقطع به ويُتواصل ، ويُوعد ويهدد ، ويُنتهر ويبسط ، ويُؤمر وينهى ، وتُضرب به الأوعاد ، وينبه على الرقيب ، ويضحك ويحزن ، ويسأل ويجاب ، ويمنع ويعطى .

ولكل واحد من هذه المعانى ضرب من هيئة اللحظ لا يُوقف على تحديده إلا بالرؤية ، ولا يمكن تصويره ولا وصفهُ إلا بالأقل منه . وأنا واصف ما تيسر من هذه المعانى :

فالإشارة بموِّخَّر العين الواحدة نهى عن الأمر ، وتفتيرها إعلام بالقبول ، وإدامة نظرها دليل على التوجع والأسف ، وكسر نظرها آية الفرح .

والإشارة إلى إطباقها دليل على التهديد ، وقلب الحدقة إلى جهة ما ثم صرفها بسرعة تنبيه على مُشار إليه .

والإشارة الخفية بمؤخر العينين كلتاهما سؤال ، وقلب الحدقة من وسط العين إلى المُوق بسرعة شاهدُ المنع ، وترعيد الحدقتين من وسط العينين نهى عام . وسائر ذلك لا يدرك إلا بالمشاهدة .

واعلم أن العين تنوب عن الرُّسل ، ويدرك بها المراد ، والحواس الأربع أبواب إلى القلب ، ومنافذ نحو النفس ، والعين أبلغها وأصحها دلالة ، وأوعاها عملا ، وهى رائد النفس الصادق ، ودليلها الهادى ، ومرآتها المجلوة التى بها تقف على الحقائق ، وتميِّز الصفات وتفهم المحسوسات . وقد قيل ليس المُخبرُ كالمعاين ، وقد ذكر ذلك افليمون [١] صاحبُ الفِراسة ، وجعلها معتمدة فى الحكم .

وبحسبك من قوة إدراك العين أنها إذا لاقى شعاعها شعاعاً مجلوًّا صافيا ، إما حديداً مصقولا أو زجاجاً أوماء ، أو بعض الحجارة الصافية ، أوسائر الأشياء المجلوة البراقة ، ذوات

---

(١) أفليمون Philemon أشهر مؤلف إغريقى فى علم الفراسة ، وقد ازدهر فى القرن الثانى للميلاد .

الرفيف والبصيص واللمعان ، يتصل أقصى حدوده بجسم كثيف ساتر مّناع كدر ، انعكس شعاعها فأدرك الناظر نفسه ومازها عياناً ، وهو الذى ترى فى المرآة ، فأنت حينئذ كالناظر إليك بعين غيرك . ودليل عيانى على هذا أنك تأخذ مرآتين كبيرتين ، فتمسك إحداهما بيمينك خلف رأسك ، والثانية بيسارك قبالة وجهك ، ثم تزويها قليلا حتى يلتقيا بالمقابلة ، فإنك ترى قفاك وكل ما وراءك ، وذلك لانعكاس ضوء العين إلى ضوء المرآة التى خلفك ، إذ لم تجد منفذا فى التى بين يديك ، ولما لم يجد وراء هذه الثانية منفذاً انصرف إلى ما قابله من الجسم . وإن كان صالح غلام أبى إسحاق النظام(٢) خالف فى الإدراك ، فهو قول ساقط لم يوافقه عليه أحد .

ولو لم يكن من فضل العين إلا أن جوهرها أرفع الجواهر وأعلاها مكانة ، لأنها نوريّة لا تُدرَك الألوان بسواها ، ولا شىء أبعد مرمى ، ولا أنأى غاية منها ، لأنها تُدرَك بها أجرام الكواكب التى فى الأفلاك البعيدة ، وترى بها السماء على شدة ارتفاعها وبُعدها ، وليس ذلك إلا لاتصالها فى طبع خِلقتها بهذه المرآة ، فهى تدركها وتصل إليها بالنظر ، لا على قطع الأماكن والحلول فى المواضع وتنقّل الحركات ، وليس هذا لشىء من الحواس مثل الذوق واللمس لا يُدركان إلا بالمجاورة ، والسمع والشم لا يدركان إلا من قريب . ودليل على ما ذكرناه من النظر أنك ترى المُصوِّت قبل سماع الصوت ، وإنْ تعمّدت إدراكهما معاً . وإنْ كان إدراكهما واحداً لَما تقدمت العينُ السمعَ (٣)

---

(٢) عن النظام ، انظر : الباب الأول ، الهامش رقم ١١ .

(٣) عرض ابن حزم لنظريته فى الرؤية تفصيلا فى كتابه : « الفصل فى الملل والأهواء والنحل » .

١٠
باب المراسلة

ثم يتلو ذلك ، إذا امتزجا ، المراسلةُ بالكتب ، وللكتب آيات .

ولقد رأيتُ أهل هذا الشأن يبادرون لقطع الكُتبِ ، وبحلِّها فى الماء ، وبمحو أثرها ، فُرب فضيحة كانت بسبب كتاب .

وفى ذلك أقول :

عزيزٌ علىَّ اليومَ قطعُ كتابِكُمْ ولكنّه لم يُلْفَ للودِّ قاطِعُ
فآثرتُ أن يَبْقى ودادٌ ويَنمحى مِدادٌ فإن الفَرعَ للأصلِ تابع
فكم من كتابٍ فيه مِيتَةُ ربِّه ولم يَدرِه إذْ نمَّقتْهُ الأصابع

وينبغى أن يكون شكل الكتاب ألطف الأشكال ، وجنسه أملحَ الأجناس . ولعمرى إن الكتاب لِلسان فى بعض الأحايين ، إمّا لحصْرٍ فى الانسان ، وإمّا لحياء ، وإمّا لهيبة . نعم ، حتى إن لوصول الكتاب إلى المحبوب ، وعِلم المُحب أنه قد وقع بيده ورآه ، للذة يجدها المحب عجيبة تقوم مقام الرؤية . وإن لرد الجواب والنظر إليه سروراً يَعدل اللقاء ، ولهذا ما ترى العاشق يَضع الكتاب على عينيه وقلبه ويعانقه . ولعهدى ببعض أهل المحبة ممن كان يدرى مايقول ، ويحسن الوصف ، ويعبر عما فى ضميره بلسانه عبارة جيدة ، ويجيد النظر ، ويدقق فى الحقائق ، لايَدع المُراسلة وهو ممكن الوصل ، قريب الدار ، أتىّ المزار ، ويحكى أنها من وجوه اللذة . ولقد أخْبرتُ عن بعض السُّقّاط الوُضعاء أنه كان يضع كتاب محبوبه على إحليله . وأن هذا النوع من الاغتلام قبيح ، وضَرْب من الشَّبق فاحش .

وأمّا سَقْىِ الحِبْر بالدمع فأعرف من كان يفعل ذلك ، ويُقارضه محبوبه بسَقى الحبر بالرِّيق .

وفى ذلك أقول :

جوابٌ أتانى عن كتابٍ بعثتهُ فسكَّن مُهتاجاً وهيَّجَ ساكنا
سقيْتُ بدَمع العينِ لمَّا كتبْتُهُ فعَالَ مُحبٌ ليس فى الودِّ خائنا

فمازال ماءُ العينِ يمحو سُطـــورَهُ   فيا ماءَ عَيْنى قد محوْتَ المحاسنا
غَدا بدمُوعى أولُ الخطِّ بيننـــا   وأضحى بدَمعِى آخرُ الخطِّ بائنا

* خبر :

ولقد رأيتُ كتابَ المُحب إلى محبوبه ، وقدقطَع فى يده بسكين له ، فسال الدم ، واستمدّ منه ، وكتب به الكتاب أجمعَ ، ولقدرأيت الكتاب بعدجُفوفه فما شككتُ أنه بصبْغ اللك[1] .

---

(١) صاغ ابن قزمان هذه الفكرة زجلا ، ونلتقى بها عنده فى آخر دور من الزجل رقم ١١٢ من ديوانه :
وكن لرسولى قريب الحجاب ،
وإن كان وترضى وترسل كتاب ،
بدمى سطر إليك الجواب ،
ونبرى عظمى مكان القلم .

١١

باب السفير

ويقع فى الحب بعد هذا ، بعد حلول الثقة ، وتمام الاستئناس ، إدخال السفير ، ويجب تخيّره وارتياده ، واستجادته واستفراهه ، فهو دليل عقل المرء ، وبيده حياته وموته ، وستره وفضيحته بعد الله تعالى .

فينبغى أن يكون الرسول ذاهيئة ، حاذقاً يكتفى بالاشارة ، ويقرطس عن الغائب ، ويُحسن من ذات نفسه ، ويضع من عقله ما أغفله باعثه ، ويؤدى إلى الذى أرسله كل ما يشاهد على وجهه ، كأنما كان للأسرار حافظا ، وللعهد وفيا ، قنوعاً ناصحاً . ومن تعدَّى هذه الصفات كان ضرره على باعثه بمقدار ما نقصه منها .

وفى ذلك أقول شعراً ، منه :

رسولُكَ سيفٌ فى يمينكَ فاستجدْ حُساماً ولا تضربْ به قبل صقْلِهِ
فمن يكُ ذا سيفٍ كهَام فَضُرُّه يعــودُ على المغنىٍّ مِنْــه بجهله

وأكثر ما يستعمل المحبُّون فى إرسالهم إلى من يُحبونه ، إما خاملا لا يُؤبه له ، ولا يُهتدى للتحفظ منه ، لصباه أولهيئة رثة أوبذاذة فى طلعته .

وإما جليلا لا تلحقه الظِّنن لنسك يظهره ، أو لسن عالية قد بلغها . وما أكثر هذا فى النساء ، ولاسيما ذوات العكاكيز والتسابيح والثّوبين الأحمرين . وإنى لأذكر بقرطبة التحذير للنساء المحدثات من هذه الصفات حيثما رأينها .

أو ذوات صناعة يقرب بها من الأشخاص . فمن النساء كالطبيبة والحجّامة ، والسراقة والدلاَلة ، والماشطة والنائحة ، والمغنية والكاهنة ، والمعلمة والمستخفة ، والصناع فى المغزل والنسيج ، وما أشبه ذلك .

أو ذا قرابة من المرسل إليه لا يشح بها عليه . فكم منيع سهل بهذه الأوصاف ، وعسير يسُر ، وبعيد قرُب ، وجموح أنس ، وكم داهية دهت الحجب المصونة ، والأستار الكثيفة ، والمقاصير المحروسة ، والسدد المضبوطة ، لأرباب هذه النعوت . ولولا أن أنبه عليها لذكرتها ، ولكن لقطع النظر فيها ، وقلة الثقة بكل واحد ، والسعيد

من وعظ بغيره ، وبالضد تتميز الأشياء . أسبل الله علينا وعلى جميع المسلمين ستره . ولا أزال عن الجميع ظل العافية[١].

* خبر :

وإنى لأعرف من كانت الرسول بينهما حمامة مؤدبة ، ويُعقد الكتاب فى جناحها ، وفى ذلك أقول قطعة ، منها :

تخيَّرهـــا نوحٌ فما خابَ ظَنُّــهُ لديْهَــا وجاءتْ نحوَهُ بالبشائِرِ
سأودِعهـــا كُتْبى إليكِ فهاكهَا رَسائلَ تُهدَى فى قوادِمِ طائِـرِ

---

(١) ترك هذا الباب أثراً واضحاً فى الأدب الإسبانى ، فرواية لا ثليستينا La Celistina ، أو القوّادة ، لمؤلفها فرناندو دى روخاس Fernando de Rojas (١٤٥٣ - ١٥٤١ م) بطلتها عجوز مهمتهما التوفيق بين الرءوس فى الحرام ، وقد أفاد مؤلفها ، أو مؤلفوها ، من هذا الفصل مباشرة ، أو عن طريق مؤلفات إسبانية أخرى أفادت من ابن حزم . وسنعرض لهذه القضية فى كتابنا : « دراسات عن ابن حزم » .

١٢
باب طى السر

ومن بعض صفاتِ الحب الكتمانُ باللسان ، وجحود المحب إن سُئل ، والتصنّع بإظهار الصبر ، وأنْ يُرى أنه عِزهاة خليّ ، ويأبى السرُّ الدقيق ، ونارُ الكلف المتأججة فى الضلوع ، إلا ظهوراً فى الحركات والعين ، ودبيباً كدبيب النار فى الفحم ، والماء فى يبيس المدر. وقد يمكن التمويه فى أول الأمر على غير ذى الحس اللطيف ، وأما بعد استحكامه فمحال .

وربما يكون السبب فى الكتمان تصاون المحب عن أن يَسِمَ نفسه بهذه السمة عند الناس ، لأنها بزعمه من صفات أهل البطالة ، فيفرّ منها ويتفادى ، وما هذا وجه التصحيح ، فبحسب المرء المسلم أن يعفّ عن محارم الله عز وجل التى يأتيها باختياره ، ويحاسب عليها يوم القيامة . وأما استحسان الحسن وتمكّن الحب فطبع لا يؤمر به ولا يُنهى عنه ، إذ القلوب بيد مُقلّبها ، ولا يلزمه غير المعرفة والنظر فى فرق ما بين الخطأ والصواب ، وأن يعتقد الصحيح باليقين . وأما المحبة فخِلْقة ، وإنما يملك الإنسان حركات جوارحه المكتسبة .

وفى ذلك أقول :

يلومُ رجالٌ فيك لم يعرفوا الهوى ... وسيّانَ عندى فيك لاحٍ وساكتُ
يقولون : جانبتَ التصاوُنَ جُملةً ... وأنتَ عليهم بالشريعةِ قانتُ
فقلتُ لهم : هذا الرِّياءُ بِعَيْنِهِ ... صُراحاً وَزَىٌّ للمرائين ماقِت
متى جاء تحريمُ الهوَى عن محمدٍ ... وهل منْعُهُ فى مُحكم الذكرِ ثابت
إذا لم أُوَاقِعْ مَحْرَماً أتّقِى بِهِ ... مَجيئى يومَ البعثِ والوجهُ باهت
فلستُ أُبالى فى الهوَى قَوْلَ لائمٍ ... سواءٌ لَعمْرِى جاهرٌ أو مُخافِت
وهل يلزمُ الإنسانَ إلّا اختيارُهُ ... وهل بِخَبَايَا اللفظ يُؤْخَذُ صامت

* خبر :

وإنى لأعرف بعض من امتحن بشيء من هذا فسكَّنَ الوجدَ بين جوانحه ، فرام جحده إلى أن غلظ الأمر ، وعرف ذلك فى شمائله من تعرض للمعرفة ومن لم يتعرّض . وكان مَن عرض له بشيء نجهه وقبّحه ، إلى أنْ كان من أراد الحظوة لديه من إخوانه يوهمه تصديقه فى إنكاره ، وتكذيب من ظن به غير ذلك ، فسر بهذا . ولعهدى به يوما قاعداً ومعه بعض من كان يعرض له بما فى ضميره ، وهو ينتفى غاية الانتفاء ، إذا اجتاز بهما الشخص الذى كان يتهم بعلاقته ، فما هو إلا أن وقعت عينه على محبوبه حتى اضطرب ، وفارق هيئته الأولى واصفر لونه ، وتفاوتت معانى كلامه بعد حُسن تثقيف ، فقطع كلامه المتكلم معه . فلقد استدعى ما كان فيه من ذكره ،فقيل له ماعدا عما بدا . فقال : هو ما تظنون ، عذر من عذر ، وعذل من عذل .

فى ذلك أقول شعراً ، منه :

ما عاش إلا لأن المـــوتَ يرحمه ... ممَّا يُرى مِن تباريحِ الضنى فيه

وأنا أقول :

دموعُ الصبِّ تَنْسَفِكُ ... وسِتْرُ الصبِّ ينهتـكُ
كأنَّ القلب إذ يبـدو ... قطـاةٌ ضَمَّهـا شَرَك
فيـا أصحابَنـا قولـوا ... فـإنَّ الرأىَ مشتَرَكُ
إلى كَمْ ذا أُكَاتِمُـــهُ ... وما لِى عنـــه مُتَّرك

وهذا إنّما يعرض عند مقاومة طبع الكتمان ، والتصاون لطبع المحب وغلبته ، فيكون صاحبه متحيرا بين نارين محرقتين . وربما كان سبب الكتمان إبقاء المحب على محبوبه ، وإن هذا لمن دلائل الوفاء وكرم الطبع .

وفى ذلك أقول :

دَرَى النـاسُ أنِّى فتًى عـاشقٌ ... كئيبٌ مُعنًّى ولكـن بمـنْ
إذا عاينـوا حالتِى أيقنـــوا ... وإنْ فتّشوا رجعـوا فى الظَّنن
كخطٍّ يُـرى رَسْمُهُ ظاهـرًا ... وإنْ طلبـوا شَرْحَه لم يَبِنْ

كصَوتِ حَمـــامٍ على أيْكـــةٍ يُرَجِّعُ بالصوْتِ فى كل فــن
تَلــذُّ بفحــواهُ أسماعُنـــا ومعنـــاهُ مُسْتعجَمٌ لم يَبِن
يقولُون : باللهِ سَمٍّ الـــذى نَئِ حُبُّــه عنك طيبَ الوسَن
وهيهـــاتَ دونَ الـــذى حاولوا ذَهابُ العُقُول وخوْضُ الفِتَن
فهم أبـــدًا فى اختلاج الشكوك بظنٍّ كَقَطعٍ وقَطْـعٍ كظن

وفى كتمان السر أقول قطعة ، منها :

للسرِّ عنـــدى مكانٌ لو يحلُّ بـــه حيٌّ إذًا لا اهتدى رَيْبُ المنون لَهُ
أميتُـهُ وحيـــاةُ السرِّ مِيتتُـــه كما سُرورُ المُعنَّى فى الهوى الوَلَهُ

وربما كان سبب الكتمان توقِّى المُحب على نفسه من إظهار سره ، لجلالة قدر المحبوب .

* خبر :

ولقد قال بعض الشعراء بقرطبة شعرا تغزّل فيه بصبح أم المؤيَّد(١) رحمه الله ، فغنّت به جارية أدخلت على المنصور محمد بن أبى عامر ليبتاعها فأمر بقتلها .

* خبر :

وعلى مثل هذا قُتل أحمد بن مُغيث(٢) . واستئصالُ آل مُغيث ، والتسجيل

(١) كانت السيدة صبح ، أم هشام المؤيد ، مرتبطة عاطفياً بالمنصور بن أبى عامر ، على نحو ما أشرنا من قبل ، ويرجح أنها كانت عشيقته فى سنىّ شبابه ، وأياً ما كان الأمر ، فمن الثابت أنها كانت وراءه فى رحلة المجد التى قطعها من موظف صغير فى بلاط الخليفة ، إلى أقوى رجل فى الدولة ، ولعله أحسّ بأن فى الأبيات تعريضاً به . انظر : * الباب الأول ، الهامش رقم ١

(٢) بنو مغيث أسرة قرطبية عريقة ، تنسب إلى مغيث بن الحارث ، ويسمى مغيثا الرومى ، مولى الوليد بن عبد الملك ، ودخل الأندلس مع طارق بن زياد ، واضطلع بفتح قرطبة ، وأصبح ابنه عبد الواحد حاجباً ، أى وزيراً ، لعبد الرحمن الداخل ، ثم لهشام ابنه من بعد ، وتوفى على أيام الحكم الأول ، وخلّف أبناء ثلاثة : عبد الملك ، وعبد الكريم ، وعبد الحميد ، وقد تولوا مناصب هامة ، وبخاصة عبد الكريم ، وبقى لبيتهم جلالة إلى أمد طويل ، وتجد أخبارهم متناثرة فى :

* المقرى : نفح الطيب ، جـ ١ ص ٣١٧ ، ٣١٩ ، ٣٢٢ – ٣٢٤ و جـ ٤ ص ٢٢٦ .
* ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ٢ صفحات ٤٨ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٩ ، ٧٥ ، ٨٠ ، ٨٢ .
* ابن سعيد : المغرب ، جـ ١ ص ٤٠ ، ٤٤ ، ٥٠ ، ١٥٩ .
* ابن الأبار : الحلة السيراء ، ١٣٥ ، ١٣٦ .

عليهم ألا يستخدم بواحد منهم أبداً ، حتى كان سبباً لهلاكهم ، وانقراض بيتهم ، فلم يبق منهم إلا الشريد الفالّ . وكان سبب ذلك تغزّله بإحدى بنات الخلفاء ومثل هذا كثير.

ويُحكى عن الحسن بن هانئ[٣] أنه كان مغرما بحب محمد بن هارون ، المعروف بابن زُبيدة[٤] . وأحسّ منه ببعض ذلك فانتهره على إدامة النظر إليه . فذُكر عنه أنه قال : إنّه كان لا يقدر أن يُديم النظر إليه إلاّ مع غلبة السكر على محمد .

وربما كان سبب الكتمان ألاّ يَنفِر المحبوب أو يُنفر به . فإني أدرى من كان محبوبه له سكناً وجليساً ، لو باح بأقل سبب من أنه يهواه لكان منه مناط الثريا قد تعلّت نجومها ، وهذا ضرب من السياسة . ولقد كان يبلُغ من انبساط هذا المذكور مع محبوبه إلى فوق الغاية وأبعد النهاية ، فما هو إلا أنْ باح إليه بما يجد ، فصار لا يصل إلى التافه اليسير مع التيه ودالّة الحب ، وتمنّع الثقة بملك الفؤاد ، وذهب ذلك الانبساط ، ووقع التصنّع والتجنّي ، لقد كان أخاً فصار عبداً ، ونظيراً فعاد أسيراً ، ولوزاد في بَوحه شيئاً إلى أن يعلم خاصة المحبوب ذلك لما رآه إلاّ في الطيف ، ولانقطع القليل والكثير ، ولعاد عليه بالضرر.

وربما كان من أسباب الكتمان الحَياء الغالب على الإنسان ، وربما كان من أسباب الكتمان أن يرى المحب من محبوبه انحرافاً وصدّاً ، ويكون ذا نفس أبيّة ، فيستتر بما يجد لئلا يَشمت به عدو ، أو يريهم ومَن يُحب هوان ذلك عليه .

(٣) الحسن بن هانئ ، الشهير بأبي نواس ، الشاعر العباسي المعروف .

(٤) محمد بن هارون ، ابن هارون الرشيد من السيدة زبيدة ، وقد تولى الخلافة بعد وفاة أبيه من ٨٠٩ إلى ٨١٣ م ، ثم قتل في صراعه مع أخيه المأمون . وانظر تفصيل هذه الأحداث في :

* المسعودي : مروج الذهب ، جـ ٢ ص ٢٩٧ وما بعدها ، القاهرة ١٣٤٦ هـ .

١٣
باب الإذاعة

وقد تعرض فى الحب الإذاعة . وهومِن مُنكرَما يحدُث من أعراضه ، ولها أسباب ، منها :

أن يُريد صاحبُ هذا الفعل أن يتزّيا بزىّ المحبين ، ويدخل فى عدادهم ، وهذه خلافة لا نُرضى ، وتخليج بغيض ، ودعوى فى الحب زائفة .

وربما كان من أسباب الكشف غلبةُ الحب ، وتسوّر الجهر على الحياء . فلا يملك الإنسان حينئذ لنفسه صرفاً ولا عَدْلا . وهذا من أبعد غايات العشق ، وأقوى تحكّمه على العقل ، حتى يمثل الحَسن فى تمثال القبيح ، والقبيح فى هيئة الحسن ، وهنالك يرى الخير شراً ، والشر خيراً . وكم مَصون الستر ، مُسبل القِناع ، مسدول الغِطاء ، قد كشف الحبُّ ستْره ، وأباح حريمه ، وأهمل حِماه،فصار بعد الصيانة عَلَماً ، وبعد السكون مثلا . وأحب شيء إليه الفضيحة فما لو مثل له قبل اليوم لاعتراه النافض عن ذكره ، ولطالت استعاذته منه ، فسَهُلَ ما كان وعراً ، وهان ما كان عزيزاً ، ولان ما كان شديداً .

ولعهدى بفتى من سَرَوات الرجال ، وعِلْية إخوانى ، قد دُهِى بمحبة جارية مقصورة ، هام بها ، وقطعه حبُّها عن كثير من مصالحه ، وظهرت آيات هواه لكل ذى بصر ، إلى أنْ كانت هى تعذله على ما ظهر منه مما يقوده إليه هواه .

* خبر :

وحدّثنى موسى بن عاصم بن عمرو[1] وقال : كنت بين يدى أبى الفتح والدى رحمه الله ، وقد أمرنى بكتاب أكتبه ، إذ لمحتْ عينى جارية كنت أكلَف بها ، فلم أملك نفسى ، ورميتُ الكتاب عن يدى ، وبادرتُ نحوها ، وبُهت أبى وظن أنه

---

(١) لم أهتد إلى أية ترجمة لهذه الشخصية ، أو للشخصيات الأخرى التى سوف ترد فى هذا الباب .

عرض لى عارض ، ثم راجعنى عقلى ، فمسحتُ وجهى ، ثم عدت واعتذرت بأنه غَلبنى الرُّعاف .

واعلم أن هذا داعيةُ نِفار المحبوب ، وفساد فى التدبير ، وضعف فى السياسة ، وماشىءمن الأشياء إلاّ وللمأخذ فيهُ سنّة وطريقة ، متى تعدّاها الطالب ، وأخرَق فى سلوكها ، انعكس عمله عليه ، وكان كَدّه عناء ، وتعبه هباء ، وبحثه وباء . وكلما زاد عن وجه السِّيرة انحرافاً ، وفى تجنّبها إغراقاً ، وفى غير الطريق إيغلا ، ازداد عن بلوغ مراده بعداً .

وفى ذلك أقول قطعة ، منها :

ولا تَسْعَ فى الأمرِ الجسيمِ تهازؤا ... ولا تسعَ جَهراً فى اليسيرِ تُريــدُهُ

وقابلْ أفانينَ الزمــانِ متى يَــــرِدْ ... عليك فإنّ الدهرَ جَمٌّ ورُودُه

فأشكالُها من حُسْنِ سَعْيك يَكْفِكَ الـ ... يسيرُ بَغيرٌ والشريد شريــــده[٢]

ألم تبصرِ المِصْباحَ أوّلَ وَقْـــــدِه ... وإشعالِه بالنفخِ يُطفَا وُقـــودُه

وإنْ يتَضَرَّمْ لفحُــه ولهيبُـــــهُ ... فنفخُك يُذْكيـــهِ وتبدو مُـــدوده

* خبر :

وإنى لأعرف من أهل قرطبة ، من أبناء الكتاب وجلّة الخَدَمة ، مَن اسمه أحمد بن فتح ، وكنت أعهده كثيرَ التصاون ، من بُغاة العلم ، وطلاب الأدب ، يبز أصحابه فى الانقباض ، ويفوتهم فى الدعة ، لا يُنظر إلا فى حَلقة فضل ، ولا يُرى إلا فى محفل مرضىّ ، ، محمود المذاهب ، جميل الطريقة ، بائناً بنفسه ، ذاهباً بها ، ثم أبعدت الأقدارُ دارى من داره ، فأول خَبر طرأ علىّ بعد نزولى شاطبة ، أنه خلع عذاره فى حب فتى من أبناء الغنّائين[٣] ، يسمى إبراهيم بن أحمد ، أعرفه لا تستأهل

---

(٢) هكذا ورد هذا البيت فى الأصل .

(٣) وردت فى كل الطبعات العربية « الفتّانين » ، جمع فتّان ، أى الصائغ ، وبهذا المعنى ترجمها كل الذين نقلوا طوق الحمامة إلى لغاتهم ، وصححها ليفى بروفنسال « الغنائين » . وتردد غومث عند ترجمته « طوق الحمامة » إلى الإسبانية ، بين أن تكون « الفتّانين » ، جمع فتان ، بمعنى المثير للفتن ، وبين تصحيح بروفنسال ، ثم ارتضاه أخيراً ، وترجمها فى النص الإسبانى : ابن أحد المغنين .

صفاته محبة مَن بيتُه خير وتقدم ؛ وأموال عريضة ، ووفْر تالد ، وصحّ عندى أنه كشف رأسه ، وأبدى وجهه ، ورَمى رَسَنه ، وحسَر مُحياه ، وشمَّر عن ذراعيه ، وصمد صَمْد الشهوة ، فصار حديثاً للسمّار ، ومدافَعاً بين نقلة الأخبار ، وتُهودى ذِكره فى الأقطار ، وجرت نقلته فى الأرض راحلة بالتعجب ، ولم يحصل من ذلك إلاّ على كشف الغطاء ، وإذاعة السر ، وشُنعة الحديث ، وقبح(٤) الأحدوثة ، وشرود محبوبه عنه جملة ، والتحظير عليه من رؤيته ألبتة ، وكان غنيا عن ذلك ، وبمندوحة واسعة ، ومعزل رحب عنه ، ولو طوى مكنون سره ، وأخفى بليّات ضميره ، لاستدام لباس العافية ، ولم يُنهج بُرد الصيانة ، ولكان له فى لقاء من بُلى به ومحادثته ومجالسته أمل من الآمال ، وتعلل كاف ، وإنَّ حَبل العذر ليقطع به ، والحُجّة عليه قائمة ، إلّا أنْ يكون مختلطاً فى تمييزه ، أو مصاباً فى عقله بجليل ما فدَحه ، فربما آل ذلك لعذر صحيح ، وأمّا إنْ كانت بقية ، أو ثبتت مُسكة ، فهو ظالم فى تعرضه ما يعلم أن محبوبه يكرهه ويتأذى به .

هذا غير صفة أهل الحب ، وسيأتى هذا مفسَّراً فى باب الطاعة إن شاء الله تعالى .

ومن أسباب الكشف وجه ثالث :

وهو عند أهل العقول وجه مرذول وفعل ساقط ، وذلك أن يرى المحب مِن محبوبه غدراً أو مللا أو كراهة ، فلا يجد طريق الانتصاف منه إلاّ بما ضرره عليه أعود منه على المقصود من الكشف والاشتهار . وهذا أشدّ العار وأقبح الشنار ، وأقوى بشواهد عدم العقل ووجود السخف .

وربما كان الكشف من حديث يَنتشر ، وأقاويل تفشو ، توافق قلة مبالاة من المحب بذلك ، ورضى بظهور سره ، إمّا لاعجاب وإمّا لاستظهار على بعض ما يؤمله ، وقد رأيت هذا الفعل لبعض إخوانى من أبناء القوّاد .

---

(٤) فى الطبعات العربية « وفتح » ، ومن الواضح أنها تصحيف ، وقد أصلحناها ليستقيم المعنى .

وقرأت فى بعض أخبار الأعراب أن نساءهم لا يقنعن ، ولا يصدّقن عشق عاشق لهن حتى يشتهر ، ويكشف حبه ، ويجاهر ويعلن وينوّه بذكرهن ، ولا أدرى ما معنى هذا ، على أنه يُذكر عنهن العفاف ، وأىّ عفاف مع امرأة أقصى مُناها وسرورها الشهرة فى هذا المعنى .

١٤
باب الطاعة

ومن عجيب مايقع فى الحب طاعة المحب لمحبوبه ، وصَرْفه طباعَه قسراً إلى طباع مَن يحبه . وترى المرء شَرِسَ الخلق ، صعب الشكيمة ، جموح القيادة ، ماضى العزيمة ، حمىّ الأنف ، أبىّ الخسف ، فما هو إلاّ أن يتنسم نسيم الحب ، ويتوَرَّط غمره ، ويعوم فى بحره ، فتعود الشراسة ليانا ، والصعوبة سهولة ، والمضاء كلالة ، والحمية استسلاماً .

وفى ذلك أقول قطعة ، منها :

فهل للوصال إلينا مَعادُ　　وهل لتصاريف ذا الدهرِ حدْ
فقد أصبحَ السيفُ عبدَ القَضيبِ　　وأضحى الغزالُ الأسيرُ أسدْ

وأقول شعراً ، منه :

وإنِّى وإنْ تَعْتِبْ لأهْونُ هالكٍ　　كذائبِ نُقْر زلّ من يد جِهْبذِ
على أنّ قتْلِى فى هواك لذاذةٌ　　فيا عجباً من هالكٍ متلذِّذ

ومنها :

ولو أبصرَتْ أنوارَ وجهك فارسٌ　　لأغناهُم عن هُرمزانٍ ومَوْبذ[١]

وربما كان المحبوب كارهاً لإظهار الشكوى ، متبرماً بسماع الوجد ، فترى المُحبّ حينئذ يكتُم حزنه ، ويكظِم أسفه ، وينطوى على علته . وإنّ الحبيب مُتجنٍّ ، فعندها يقع الاعتذار عند كل ذنب ، والإقرار بالجريمة ، والمرء منها برىء ، تسليماً لقوله ، وتركاً لمخالفته . وإنى لأعرف من دُهى بمثل هذا فما كان ينفكّ من توجيه الذنوب نحوه ولا ذنب له ، وإيقاع العتاب عليه والسخط وهو نقىُّ الجلد .

وأقول شعراً إلى بعض إخوانى ، ويقرب مما نحن فيه وإن لم يكن منه :

وقد كنتَ تلقانى بوجهٍ لقُرْبِهِ　　تَدانٍ ولَلْهجرانُ عن قُرْبه سَخْطُ
وما تكرهُ العَتبَ اليسيرَ سجيّتِى　　على أنّه قد عِيبَ فى الشعرِ الوخْط

(١) يشير إلى عبادة الفرس للنار قديماً .

فقد يُتعب الإنسانُ فى الفكر نفسَهُ وقد يَحْسنُ الخِيلانُ فى الوجه والنقْط
تزِين إذا قلّتْ ، ويَفْحُش أمرُها إذا أفرطت يوماً ، وهل يُحمَدُ الفرْط

ومنه :

أعِنْهُ فقد أضْحىَ لفرْطِ هُمُومِه يُبكيِّ إذا القرطاسُ والحِبر والخَط

ولا يقولن قائل : إنّ صبر المحب على دلّة المحبوب دَناءة فى النفس ، فقد أخطأ ، وقد علمنا أن المحبوب ليس له كفواً ولا نظيراً فيقارض بأذاه ، وليس سبّه وجفاه مما يعيّر به الإنسان ، ويبقى ذكره على الأحقاب ، ولا يقع ذلك فى مجالس الخلفاء ، ولا فى مقاعد الرؤساء ، فيكون الصبر جاراً للمذلة ، وضراعة قائدة للاستهانة ، فقد ترى الإنسان لا يكلف بأَمَته التى يملك رقّها ، ولا يحول حائل بينه وبين التعدى عليها ، فكيف الانتصارُ منها . وسبل الامتعاض من السبب غير هذه ، إنما ذلك بين عِلْية الرجال الذين تُحصى أنفاسهم ، وتُتّبع معانى كلامهم ، فَتُوجّه لها الوجوه البعيدة ، لأنهم لا يوقعونها سدى ، ولا يُلقونها هملا ، وأما المحبوب فصَعْدة ثابتة ، وقضيب مُنآد ، يجفو ويرضى متى شاء لا لمعنى .

وفى ذلك أقول :

ليس التذلُّلُ فى الهوى يُستنكرُ فالحُبُّ فيه يَخْضَعُ المُستكبرُ
لا تعجبوا من ذِلّتِي فى حالةٍ قد ذلّ فيها قبلىَ المُستنصر[٢]
ليس الحبيبُ مماثلاً ومُكافياً فيكونَ صبرُك ذِلّةً إذ تصبر
تُفّاحةٌ وقعتْ فآلم وَقْعُها هل قَطْعها منك انتصاراً يُذْكر

(٢) فى الطبعات العربية « المستبصر » ، وصححها غرسية غومث المستنصر ، وترجمها كذلك ، إشارة إلى الخليفة الحكم الثانى ، وكان عاشقاً لجاريته صبح ، أم ابنه الخليفة هشام المؤيد ، وفيما بعد سوف تصبح عشيقة المنصور بن أبى عامر ، انظر :

- الباب الأول ، الهامش رقم ١ .
- الباب الثانى عشر ، الهامش رقم ١ .

* خبر :

وحدّثني أبو دلف الوراق ، عن مَسلمة بن أحمد الفيلسوف المعروف بالمجريطي[٣] ، أنه قال ، في المسجد الذي بشرقيّ مقبرة قريش بقرطبة ، الموازي لدار الوزير أبي عمرو أحمد بن محمد بن حدير[٤] رحمه الله : في هذا المسجد كان مرض مقدّم بن الأصفر أيام حداثته ، بعشق عجيب ، فتى الوزير أبي عمرو المذكور . وكان يترك

---

(٣) مسلمة المجريطي ، فلكي ورياضي أندلسي ، توفي عام ٣٩٧ هـ = ١٠٠٧ م ، ومن بين مأثور كتبه : « رسالة الاسطرلاب » و « ثمار العدد » ، وملخص لزيج البتاني سماه « تعديل الكواكب » . وله ترجمة لكتاب « قبة الفلك Planisphaerium » لبطليموس ، وقد نشرت ترجمته اللاتينية في بازل بسويسرا عام ١٥٣٦ ، بعنوان :

Sphaerae atque astrorum coelestium ratio, natura et motus.

أي « سرعة أفلاك السماء ونجومها وطبيعتها وحركتها » ، وينسب إليه مؤلف آخر هو أقرب إلى كتب الخرافات منه إلى كتب العلم ، يسمى « غاية الحكيم وأحق النتيجتين بالتقديم » ، ويعرف في الترجمات الإسبانية باسم « بكتاريش Pictarix » ، وهي تحريف لبقراطيش ، وهو أبقراط ، انظر :

* صاعد الأندلسي : طبقات الأمم ، ص ١٠٧ ، مطبعة السعادة ، القاهرة .
* ابن بشكوال : الصلة ، الترجمة رقم ١٣٧١ .
* González Palencia, Op. Cit, p. 283.

الترجمة العربية ص ٤٤٨ ، وتاريخ الوفاة هناك خطأ وقد صححناه .

(٤) أخطأت الطبعات العربية في كل مرة عرضت فيها لهذا الاسم ، فذكرت أنه : « الوزير ابن عمر أحمد بن محمد جدير » ، وصححته على نحو ما في الأصل .

وبنو حدير بيت أندلسي عريق ، من البيوتات الكبرى ، التي تقاسمت المناصب العالية ، وكان لهم دور ملحوظ في الحياة العامة طوال أيام الدولة الأموية .

كان حدير الجد الأعلى قائماً على باب السدة ، الباب الرئيسي في قصر الإمارة في قرطبة . على أيام الحكم الأول ، وحين اندلعت ثورة الربض عام ٢٠٢ هـ = ٨١٨ م وقضى عليها الحكم أمر حديراً أن يضرب رقاب الفقهاء الثائرين فلم يستجب له ، وتولى الحكم إعدامهم بعيداً عنه .

وولي ابنه موسى الخزانة الكبرى على أيام عبد الرحمن الأوسط .

وولي حفيد له ، موسى بن محمد بن سعيد بن موسى الحجابة ، أي رئاسة الوزارة تقريباً ، لعبد الرحمن الناصر . وتوفي ٣١٩ هـ = ٩٣١ م .

وكان أبو عمر أحمد بن محمد الذي معنا في نص الطوق ، شقيقاً لموسى الحاجب ، وقائماً على ديوان المظالم ، أيام عبد الرحمن الناصر ، وتوفي ٣٢٧ هـ = ٩٣٩ م .

انظر أخبارهم مفرقة في :

* ابن الأبار : الحلة السيراء ، جـ ١ ص ١٣٢ - ١٣٧ .

الصلاة فى مسجد مسرور وبها كان سكناه ، ويقصد فى الليل والنهار إلى هذا المسجد بسبب عجيب ، حتى أخذه الحرس غير ما مرة فى الليل ، فى حين انصرافه عن صلاة العشاء الآخرة ، وكان يقعد وينظر منه إلى أن كان الفتى يغضب ويضجر ، ويقوم إليه فيوجعه ضرباً ، ويلطم خديه وعينيه ، فيسر بذلك ويقول : هذا والله أقصى أمنيتى والآن قرّت عينى ، وكان على هذا زماناً يماشيه .

قال أبو دلف : ولقد حدّثنا مَسلمة بهذا الحديث غير مرة بحضرة عجيب ، عندما كان يَرى من وجاهة مقدم بن الأصفر وعَرْض جاهه وعافيته ، فكانت حال مقدم بن الأصفر هذا قد جلّت جدا ، واختص بالمظفَّر بن أبى عامر (٥) اختصاصاً شديداً ، واتصل بوالدته وأهله ، وجرى على يديه من بنيان المساجد والسقايات ، وتسهيل وجوه الخير غيرُ قليل ، مع تصرّفه فى كل ما يتصرّف فيه أصحاب السلطان من العناية بالناس وغير ذلك .

* خبر :

وأشنع من هذا أنه كانت لسعيد بن مُنذر بن سعيد (٦) ، صاحب الصلاة فى

---

* الخشنى : قضاة قرطبة ، ص ٨١ ، ٨٢ .
* المقرى نفح الطيب ، جـ ١ ص ٣٣٣ وما بعدها .
* ابن سعيد : المغرب ، جـ ١ ص ١٨٠ .

ولم أستطع ، فى ضوء ما لدى من مصادر ، تحديد شخصية أبى دلف الوراق ولا مقدم بن الأصفر .

(٥) المظفر ، الابن الأكبر للمنصور بن أبى عامر ، ولى الحجابة بعد أبيه ، من ١٠٠٢ إلى ١٠٠٨ م ، وسنلتقى به كثيراً عبر الكتاب ، وقد عرضنا له فى :

* الباب الثانى ، الهامش رقم ٤ ، والباب الرابع الهامش رقم ١ .

(٦) يعرض ابن حزم فى هذه الفقرة لثلاثة من أبناء منذر بن سعيد البلوطى . وكان منذر من أشهر الفقهاء والخطباء والقضاة فى عصر الخلافة . من أصل بربرى ، من فحص البلوط ، وتسمى اليوم وادى قلعة رباح Calatrava ، ورحل إلى المشرق ، حيث أمضى عامين دارساً بين مكة والقاهرة ، وعينه عبد الرحمن الناصر قاضى الجماعة فى قرطبة ، فكان شديد الصلابة فى أحكامه ، والمهابة فى أقضيته ، والقيام بالحق فى جميع ما يجرى على يده ، وظل فى منصبه هذا ١٦ عاماً ، إلى أن توفى ، وخلف ثلاثة أبناءهم :سعيد وحكم وعبد الملك .

انظر :

* ابن بشكوال : الصلة ، الترجمة ٤٧٥ .
* المقرى : نفح الطيب ، جـ١ ص ٣٤٨ وما بعدها ، و جـ٢ ص ١٠٨ و ٢٢٣ .

* Castejón Calderón Rafael : Los Juristas hispanomusulmanes, p. 153, Madrid 1948.

جامع قرطبة ، أيام الحكم المستنصر بالله رحمه الله ، جاريةً يحبها حبا شديدا ، فعرض عليها أن يُعتقها ويتزوجها . فقالت له ساخرة به ، وكان عظيم اللحية : إنّ لحيتك أستبشع عِظَمها ، فإنْ حذفْتَ منها كان ما ترغبه . فأعمل الجلمين [٧] فيها حتى لُطفت ، ثم دعا بجماعة شهود وأشهدهم على عتقها ، ثم خطبها إلى نفسه فلم ترض به . وكان فى جملة من حضر أخوه حكم بن منذر فقال لمن حضر : اعرض عليها أنىّ أخطبها أنا ، ففعل فأجابت إليه . فتزوجّها فى ذلك المجلس بعينه . ورضى بهذا العار الفادح على ورعه ونسكه واجتهاده .

فأنا أدركت سعيدا هذا ، وقد قتله البربر يوم دخولهم قرطبة عنوة ، وانتهابهم إياها [٨] وحَكَمٌ المذكور أخوه هو رأس المعتزلة بالأندلس وكبيرهم ، وأستاذهم ومتكلمهم وناسكهم ، وهو مع ذلك شاعر طيب وفقيه . وكان أخوه عبد الملك بن مُنذر متهما بهذا المذهب أيضاً . ولى خطة الرد [٩] أيام الحكم رضى الله عنه ، وهو الذى صلبه المنصـور بن أبى عامر إذ اتهمه هو ، وجماعة من الفقهاء والقضاة بقرطبة ، أنهم يُبايعون سرًّا لعبد الرحمن بن عبيد الله ابن أمير المؤمنين الناصر رضى الله عنهم ، فقُتل عبد الرحمن ، وصُلب عبد الملك بن منذر ، وبدّد شمل جميع من اتهم [١٠] ، وكان أبوهم قاضى القضاة منذر بن سعيد متهماً بمذهب الاعتزال أيضا . وكان أخطب

---

(٧) فى الطبعات العربية « الجملين » ، وصححتها على نحو ما فى الأصل .

(٨) كان اقتحام البرابر قرطبة عنوة ، وانتهابهم لها ، وتدميرهم لمعالمها ، فى نهاية شوال من عام ٤٠٣ هـ = مايو ١٠١٣ م ، وتعرف فى المصادر العربية بفتنة البربر ، وتسميها المصادر الأجنبية « الحرب الأهلية » ، وكانت سيئة النتائج إلى حد كبير ، وتركت فى نفس ابن حزم أثراً واضحاً ، وشكلت حياته بقوة ، وسوف أخصها بدراسة مفصلة فى كتابى قيد الطبع : « دراسات عن ابن حزم » .

(٩) فى الطبعات العربية « خطبة » وهو خطأ واضح ، وقد صححتها .

وخطة الرد أشبه ما تكون بمحاكم الاستئناف ، تعاود النظر فى أحكام القضاة إذا جدت ظروف تتطلب المراجعة ، وقد يحيل القاضى ، على صاحب خطة الرد مالا يتبين فيه وجه الحق ، وفيا بعد أدمجت فى خطة « صاحب المظالم » .

(١٠) إلى جانب التفصيلات التى أوردها ابن حزم لمعرفة المزيد عن هذه القضية ، انظر :

- ابن بسام : الذخيرة ، القسم الرابع ، المجلد الأول ، ص ٣٩ وما بعدها .
- ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ص ٤٨ وما يليها ، طبعة ١٩٥٦ .
- ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ٢ ص ٢٥٣ .
- ابن الأبار : الحلة السيراء ، جـ ١ ص ٢٧٨ - ٢٧٩ .

الناس وأعلمهم بكل فن ، وأورعهم وأكثرهم هزلا ودعابة .

وحكَمُ المذكور فى الحياة ، فى حين كتابتى إليك بهذه الرسالة ، قد كُف بصره ، وأسن جدا .

* خبر :

ومن عجيب طاعة المُحب لمحبوبه أنى أعرفُ مَن كان سَهِر الليالى الكثيرة ، ولقِى الجهد الجاهِد فقطَّعتْ قلبَهُ ضروب الوجد ، ثم ظفر بمن يحب وليس به امتناع ، ولا عنده دفع ، فحين رأى منه بعضَ الكراهة لما نواه تركه وانصرف عنه ، لاتعفُّفاً ولا تخوّفاً ، لكن توقُّفاً عند مُوافقة رضاه ، ولم يجد من نفسهُ مُعينا على إتيان ما لم يَرَ له إليه نشاطاً وهو يجد ما يجد . وإنى لأعرف من فعل هذا الفعل ثم تندَّم لعـــذر ظهر من المحبوب .

فقلت فى ذلك :

غافِصِ الفُرصـــــةَ واعلم أنَّهـــا كمُضيِّ البرقِ تمضى الفُرَصُ
كم أمـــورٍ أُمْكِنَتْ أمْهِلُهَـــا هِيَ عندى إذ تولّتْ غُصَصُ
بـــادرِ الكنزَ الـــذى ألفيتَـهُ وانتهـــزِ صَيْداً كبـــازٍ يَقْنص

ولقد عرض مثلُ هذا بعينه لأبى المظفّر عبد الرحمن بن أحمد بن محمود[11] صديقنا ، وأنشدته أبياتاً لى فطار بها كل مطار ، وأخذها منى فكانت هجيراه .

* خبر :

ولقد سألنى يوما أبو عبد الله محمد بن كليب[12] من أهل القيروان أيامَ كونى بالمرية[13] ، وكان طويل اللسان جدًّا ، مثقفاً للسؤال فى كل فن ، فقال لى ، وقد جرى

---

(١١) لم أجد أية ترجمة فيما بين يدى من مصادر لأبى المظفر عبد الرحمن بن أحمد بن محمود ، صديق ابن حزم هذا .

(١٢) لم أهتد له إلى أية ترجمة .

(١٣) فى الأصل العربى « بالمدينة » ، ولكن ابن حزم لم يعش أبداً فى مدينة قرطبة نفسها ، أو ما كان يطلق عليه اسم المدينة منها ، وإنما عاش حياته كلها فى ضواحيها ، أو بعيداً عنها ، ومن ثمّ رأى بروفنسال تصحيحها ، ورجح أن أصلها « المرية » ، وسياق النص يدعم رأيه ، ومن ثم صححتها فى الأصل .

* انظر مصور مدينة قرطبة فى القرن العاشر ، الملحق بهذا الكتاب .

بعض ذكر الحب ومعانيه : إذا كره من أحب لقائى ، وتجنب قربى فما أصنع ؟ قلت : أرى أن تسعى فى إدخال الروْح على نفسك بلقائه وإنْ كره . فقـــال : لكنّى لا أرى ذلك ، بل أوثر هواه على هواى ، ومُراده على مرادى ، وأصبر ولو كان فى ذلك الحَتف ، فقلت له : إنّى إنّما أحببته لنفسى ، ولا لتذاذها بصورته ، فأنا أتبع قياسى ، وأقود أصلى ، وأقفو طريقتى فى الرغبة فى سرورها . فقال لى : هذا ظلم من القياس ، أشد من الموت ما تمنى به الموت ، وأعز من النفس ما بذلت له النفس . فقلت له : إنْ بذلت نفسك لم يكن اختياراً بل كان اضطراراً ، ولو أمكنك ألاّ تبذلها لما بذلتها ، وتركك لقاءه اختياراً منك أنت فيه ملوم ، لإضرارك بنفسك ، وإدخالك الحتف عليها . فقال لى : أنت رجل جدلىّ ، ولا جدل فى الحب يلتفت إليه . فقلت له : إذا كان صاحبه مؤوفا . فقال : وأى آفة أُعظم من الحب .

١٥

باب المخالفة

وربما اتبع المحب شهوته ، وركب رأسه ، فبلغ شِفاءه من محبوبه ، وتعمّد مسرته منه على كل الوجوه ، سخط أو رضى . ومَن ساعده الوقت على هذا وثبت جنانه ، وأتيحت له الأقدار ، استوفى لذته جميعها ، وذهب غمه ، وانقطع همّه ، ورأى أمله ، وبلغ مرغوبه ، وقد رأيتُ مَن هذه صفتُه .

وفى ذلك أقول أبياتاً ، منها :

إذا أنـــا بَلّغْتُ نفسِى المُنى مِن رَشأٍ مازال لى مُمْرِضـــاً
فمـا أُبالى الكُرْهَ مـــن طاعةٍ ولا أبالِى سَخَطاً مِـــن رِضـاً
إذا وجدتُ المـــاءَ لا بُـــدّ أنْ أُطفى بـه مُشْعل جَمْرِ الغضـا

١٦
باب العاذل

وللحُب آفاتٌ .

فأولها العاذل ، والعُذّال أقسام ، فأفضلهم صديق قد أَسقطتَ مؤونة التحفظ بينك وبينه ، فعَذْلُه أفضل من كثير المساعدات ، وهى من الحظ والنهى ، وفى ذلك زاجر للنفس عجيب ، وتقوية لطيفة لها عرض ، وعمل ودواء تشتد عليه الشهوة ، ولا سيما إن كان رفيقاً فى قوله ، حسن التوصل إلى ما يورد من المعانى بلفظه ، عالماً بالأوقات التى يؤكّد فيها النهى ، وبالأحيان التى يزيد فيها الأمر ، والساعات التى يكون فيها وقفاً بين هذين ، على قدر ما يرى من تسهيل العاشق وتوعُّره ، وقبوله وعصيانه .

ثم عاذل زاجر لا يفيق أبداً من المَلامة ، وذلك خطب شديد وعبء ثقيل .

ووقع لى مثل هذا ، وإن لم يكن من جنس الكتاب ولكنه يشبهه ، وذلك أن أبا السرى عمار بن زياد[١] صديقنا ، أكثر من عذلى على نحوٍ نَحْوتُه ، وأعان علىّ بعض من لامنى فى ذلك الوجه أيضاً ، وكنت أظن أنه سيكون معى ، مخطئاً كنتُ أومصيباً ، لوَكيد صداقتى ، وصحيح أُخوتى به

ولقد رأيت من اشتد وجده ، وعظم كلفه ، حتى كان العَذل أحب شيء إليه ، ليرى العاذل عصيانه ، ويستلذ مخالفته ، ويحصِّل مقاومته اللائمة ، وغلبته إياه . كالملك الهازم لعدوه ، والمجادل الماهر الغالب لخصمه ، ويُسَرُّ بما يقع منه فى ذلك ، وربما كان هذا المستجلب لعذل العاذل بأشياء يوردها توجب ابتداء العذل .

وفى ذلك أقول أبياتاً ، منها :

أَحبُّ شيءٍ إلىّ اللـــومُ والعذَلُ	كَىْ أسمعَ اسم الذى ذكراهُ لى أملُ
كأنّنى شاربٌ بالعذْل صافيـــةً	وباسمِ مولاى بعد الشَرْبِ أنتقل[٢]

---

(١) التقينا به فى الباب الثالث ، وسنلتقى به مرات أخرى فيما بعد ، وهو شخصية لا تعرض لها المصادر التى بين ايدينا .

(٢) انتقل : أكل من النقل ، وهو ما يقدم مع الشراب من مشهيات .

١٧
باب المساعِد من الإخوان

ومن الأسباب المتمناة فى الحب أن يهب الله عز وجل للإنسان صديقاً مخلصاً ، لطيف القول ، بسيط الطول ، حسن المأخذ، دقيق المنفذ ، متمكن البيان ، مرهف اللسان ، جليل الحلم ، واسع العلم ، قليل المخالفة ، عظيم المساعفة ، شديد الاحتمال ، صابراً على الإدلال ، جم الموافقة ، جميل المخالفة ، مستوى المطابقة ، محمود الخلائق ، مكفوف البوائق ، محتوم المساعدة ، كارهاً للمباعدة ، نبيل المداخل ، مصروف الغوائل ، غامض المعانى ، عارفاً بالأمانى ، طيب الأخلاق ، سرى الأعراق ، مكتوم السر ، كثير البر ، صحيح الأمانة ، مأمون الخيانة ، كريم النفس ، نافذ الحس ، صحيح الحدس ، مضمون العون ، كامل الصون ، مشهور الوفاء ، ظاهر الغَنَاء ، ثابت القريحة ، مبذول النصيحة ، مستيقن الوداد ، سهل الإنقياد ، حسن الاعتقاد ، صادق اللهجة ، خفيف المهجة ، عفيف الطباع ، رحب الذراع ، واسع الصدر ، متخلقاً بالصبر ، يألف الإمحاض ، ولا يعرف الإعراض ، يستريح إليه ببلابله ، ويشاركه فى خلوة فكره ، ويفاوضه فى مكتوماته ، وإن فيه للمحب لأعظمَ الراحات . وأين هذا ؟ فإنْ ظفرت به يداك فشُدّهما عليه شد الضنين ، وأمسك بهما إمساك البخيل ، وصنه بطارفك وتالدك ، فمعه يكمل الأنس ، وتنجلى الأحزان ، ويقصر الزمان ، وتطيب الأحوال ، ولن يفقد الإنسان من صاحب هذه الصفة عوناً جميلا ، ورأيا حسنا .

ولذلك اتخذ الملوكُ الوزراء والدخلاء كى يخفّفوا عنهم بعضَ ما حملوه من شديد الأمور ، وطوّقوه من باهظ الأحمال . ولكى يستغنوا بآرائهم ، ويستمدوا بكفايتهم . وإلاّ فليس فى قوة الطبيعة أن تقاوم كل ما يَرد عليها دون استعانة بما يشاكلها وهو من جنسها . ولقد كان بعض المحبين ، لعدمه هذه الصفة من الإخوان ، وقلّة ثقته منهم ، لما جرّبه من الناس ، وأنه لم يعدم مَن باح إليه بشيء من سرّه أحد وجهين : إمّا إزراء على رأيه ، وإما إذاعة لسره ، أقام الوحدة مقام الأنس ، وكان ينفرد فى

المكان النازح عن الأنيس ، ويناجي الهوى ، ويكلّم الأرض ، ويجد فى ذلك راحة كما يجدها المريض فى التأوّه ، والمحزون فى الزفير ، فإن الهموم إذا ترادفت فى القلب ضاق بها ، فإن لم يُنْض منها شيء باللسان ، ولم يسترح إلى الشكوى ، لم يلبث أن يهلك غمّا ويموت أسفاً .

وما رأيت الإسعاد أكثر منه فى النساء ، فعندهن من المحافظة على هذا الشأن ، والتواصى بكتمانه ، والتواطؤ على طيّه إذا اطلعن عليه ، ما ليس عند الرجال ، وما رأيت امرأة كشفت سرّ متحابين إلاّ وهى عند النساء ممقوتة مستثقلة ، مرميّة عن قوس واحدة . وإنه ليوجد عند العجائز فى هذا الشأن مالا يوجد عند الفتيات ، لأن الفتيات منهن ربما كشفن ما علمن على سبيل التغاير . وهذا لا يكون إلا فى النُّدرة ، وأما العجائز فقد يئسن من أنفسهن فانصرف الإشفاق محضاً إلى غيرهن .

* خبر :

وإنى لأعلم امرأة مُوسرة ذات جوار وخَدَم ، فشاع على إحدى جواريها أنها تعشق فتى من أهلها ويعشقها ، وأن بينهما معانى مكروهة ، وقيل لها : إن جاريتك فلانة تعرف ذلك ، وعندها جليّة أمرها ، فأخذتها ، وكانت غليظة العقوبة ، فأذاقتها من أنواع الضرب والإيذاء مالا يَصبر على مثله جلداء الرجال ، رجاء أن تبوح لها بشيء مما ذُكرلها ، فلم تفعل البتة .

* خبر :

وإنى لأعلم امرأة جليلة حافظة لكتاب الله عزّ وجل ، ناسكة مقبلة على الخير ، وقد ظفرت بكتاب لفتى إلى جارية كان يَكْلَف بها ، وكان فى غير ملكها ، فعرّفته الأمر ، فرام الإنكار ، فلم يتهيأ له ذلك ، فقالت له : مالك ؟ ومن ذا عُصم ؟ فلا تُبال بهذا ، فو الله لا أُطلعتُ على سرٍّ كما أحداً أبداً ، ولو أمكنتنى أن أبتاعها لك من مالى ، ولو أحاط به كله ، لجعلتها لك فى مكان تصل إليها فيه ، ولا يَشعر بذلك أحد .

وإنك لترى المَرأة الصالحة المسِنَّة ، المُنقطعة الرجاء من الرجال ، وأحب أعمالها

إليها ، وأرجاها للقبول عندها ، سعيُها فى تزويج يتيمة ، وإعارة ثيابها وحَليها لعروس مُقلّة .

وما أعلم عِلّة تمكن هذا الطبعَ من النساء ، إلاّ أنّهن متفرّغات البال من كل شىء ، إلاّ من الجماع ودواعيه ، والغزل وأسبابه ، والتآلف ووجوهه ، لا شغل لهن غيره ، ولاخُلقن لسواه . والرجالُ مُقتسون فى كسب المال ، وصحبة السلطان ، وطلب العلم ، وحياطة العِيال ، ومُكابدة الأسفار ، والصيد ، وضُروب الصناعات ومُباشرة الحروب ، ومُلاقاة الفِتن ، وتحمُل المخاوف ، وعمارة الأرض ، وهذا كله مُتحيِّف للفراغ ، صارف عن طريق البُطْل ، وقرأت فى سير ملوك السودان أنّ الملك منهم يوكِّل ثقة له بنسائه ، يلقى عليهنّ ضريبةَ من غَزْل الصوف ، يشتغلن بها أبد الدهر ، لأنهم يقولون : إنّ المرأة إذا بقيت بغير شغل إنما تشوق إلى الرجال ، وتحنّ إلى النكاح .

ولقد شاهدت النساء وعلمتُ من أسرارهن مالا يكاد يعلمه غيرى ، لأنى رُبيت فى حجورهن ، ونشأت بين أيديهن ، ولم أعرف غيرَهن ، ولا جالستُ الرجال إلاّ وأنا فى حدّ الشباب ، وحين تفيّل وجهى ، وهن علمننى القرآن ، وروّيننى كثيراً من الأشعار ، ودرّبننى فى الخط ، ولم يكن وُكدى ، وإعمال ذهنى مذأول فهمى ، وأنا فى سن الطفولة جدًّا ، إلاّ تعرّف أسبابهن ، والبحث عن أخبارهن ، وتحصيل ذلك . وأنا لا أنسى شيئاً مما أراه منهن ، وأصل ذلك غيرة شديدة طبعتُ عليها ، وسوء ظن فى جهتهن فُطرتُ به . فأشرفتُ من أسبابهن على غير قليل ، وسيأتى ذلك مفسراً فى أبوابه إن شاء الله تعالى .

١٨
باب الرقيب

ومن آفات الحب الرقيبُ ، وإنّه لحُمّى باطنة ، وبرسام مُلحّ ، وفكر مُكِبّ .
والرقباء أقسام :

فأولهم مُثْقِل بالجلوس ، غير متعمد ، فى مكان اجتمع فيه المرء مع محبوبه ، وعزما على إظهار شيء من سرّهما ، والبوح بوجدهما ، والانفراد بالحديث . ولقد يعرض للمُحب من القلق بهذه الصفة مالا يعرض له مما هو أشدّ منها ، وهذا وإن كان يزول سريعاً فهو عائقٌ حالَ دون المُراد ، وقَطَعَ متوفّر الرجاء .

* خبر :

لقد شاهدت يوماً مُحبَّيْنِ فى مكان قد ظنّا أنّهما انفردا فيه ، وتأهّبا للشكوى ، فاستحليا ما هما فيه من الخلوة ، ولم يكن الموضع حِمَى ، فلم يلبثا أنْ طلع عليهما مَن كانا يَستثقلانه ، فرآنى فَعَدل إلىّ ، وأطال الجلوس معى ، فلو رأيتَ الفتى المحب ، وقد تمازج الأسفُ البادى على وجهه مع الغضب ، لرأيت عجباً .

وفى ذلك أقول قطعة ، منها :

يُطيلُ جُلوساً وهـــو أثقـلُ جالسٍ ... ويُبدى حديثاً لستُ أرضى فُنونَهُ
شَمامٌ ورَضْوى واللُّكامُ وَيَـــذْبُلٌ ... ولبنانُ والصَّمَّانُ والحزْنُ[1] دونه

ثم رقيب قد أحس من أمرهما بَطرف ، وتوجس من مذهبهما شيئاً ، فهو يريد أن يستبين حقيقة ذلك ، فُيدمن الجلوس ، ويطيل القعود ، ويتخفّى بالحركات ، ويرُمق الوُجوه ، ويحصِّل الأنفاس ، وهذا أعدى من الجرب . وإنّى لأعرف مَن همَّ أن يُباطش رقيباً هذه صفته .

---

(١) فى الطبعات العربية « والحرب » ، وصححتها « والحزن » ، لتوائم المعنى ، وأعتقد أنها فى الأصل كذلك ، وأن « والحرب » تحريف من الناسخ . وقد صححها غرسية غومث كذلك ، عند ترجمته الكتاب إلى اللغة الإسبانية .

وفى ذلك أقول قطعة ، منها :

مُواصِلٌ لا يُغِبُّ قَصْداً … أَعْظِمْ بهذا الوصالِ غَمَّا
صارَ وصِرْنا لفَرْطِ مالا … يَزُولُ كالاسمِ والمُسمَّى

ثم رقيب على المحبوب ، فذلك لا حيلةَ فيه إلاّ بترضيه . وإذا أُرضِىَ فذلك غاية اللذة ، وهذا الرقيب هو الذى ذكرتْه الشعراء فى أشعارها .

ولقد شاهدتُ مَن تلطَّف فى استرضاء رقيب حتى صار الرقيبُ عليه رقيباً له ، ومتغافلا فى وقت التغافل . ودافعاً عنه وساعياً له .

فنى ذلك أقول :

ورُبَّ رقيبٍ أَرْقبوه فلم يزلْ … على سَيِّدِى عمْداً لِيُبْعِدَنى عَنْهُ
فما زالتِ الألطافُ تحكمُ أمرَهُ … إلى أنْ غدا خوْفى له آمِناً منه
وكان حُساماً سُلَّ حتى يَهُدَّنى … فعادَ مُحِبًّا مالنعمتِهِ كُنْهُ

وأقول قطعة ، منها :

وكان سَهْمَ رَدىً … صارَ حياةً وكان سمًّا فصارَ دِرْياقاً

وإنى لأعرف من رقَب على بعض من كان يُشفق عليه رقيباً ، ووثِق به عند نفسه ، فكان أعظمَ الآفة عليه ، وأصلَ البلاء فيه .

وأمّا إذا لم يكن فى الرقيب حيلة ، ولا وجد إلى ترضِّيه سبيل ، فلا طمع إلّا بالإشارة بالعين همساً ، وبالحاجب أحياناً ، والتعريض اللطيف بالقول ، وفى ذلك مُتعة وبلاغ إلى حين يقنع به المشتاق .

وفى ذلك أقول شعراً أوّله :

على سَيِّدِى منِّى رقيبٌ محافظٌ … وفىٌّ لمن والاهُ ليس بناكِثِ

ومنه :

ويقطعُ أسبابَ اللُّبانةِ فى الهوَى … ويفعلُ فيها فِعْلَ بعضِ الحوادثِ
كأنَّ له فى قلبه ريبةً ترى … وفى كُلِّ عين مُخبرٌ بالأحادث

ومنه :

على كلِّ مَن حولِى رقيبانِ رُتِّبا … وقد خصَّنِى ذو العرشِ منهم بثالثِ

وأشنعُ ما يكون الرقيب إذا كان ممن امتُحن بالعشق قديماً ، ودُهى به ، وطالت مدته فيه ، ثم عُرِّىَ عنه بعد إحكامه لمعانيه ، فكان راغباً فى صيانة من رقّب عليه ، فتبارك الله أى رقبة تأتى منه ، وأى بلاء مصبوب يحل على أهل الهوى من جهته .

وفى ذلك أقول :

رقيبٌ طالما عَرَفَ الغرامَا وقاسَى الوَجْدَ وامْتنعَ المَنامَا
ولاَقَى فى الهوَى ألماً أليما وكاد الحُبُّ يُورِدُهُ الحِماما
وأتقنَ حيلةَ الصبِّ المُعَنَّى ولم يَضَعِ الإشارةَ والكلاما
وأَعْقبهُ التسلِّى بعد هذا وصار يرى الهوى عاراً وذاماً
وصُيِّر دون مَن أهوى رقيباً ليُبْعدَ عنه صَبًّا مُستهاما
فأىُّ بَلِيَّة صُبَّتْ علينا وأىُّ مصيبةٍ حلَّت لماما

ومن طريف معانى الرقباء أنى أعرف محبين مذهبهما واحد فى حُب محبوب واحد بعينه ، فلعهدى بهما كُل واحد منهما رقيب على صاحبه

وفى ذلك أقول :

صَبَّان هَيْمانان فى واحدٍ كِلاهُما عن خِدْنه مُنْحرِفْ
كالكلبِ فى الآرىِّ لا يعتلفْ ولا يُخلى الغَيْرَ أنْ يعتلفْ (٢)

---

(٢) الآرى : محبس الدابة .

وقد انتقل هذا المثل إلى اللغة الإسبانية فأصبح : «ككلب الجنان ، لا يأكل ، ولا يدع سيده يأكل» .

Como el perro del hortelano que ni come ni deja comer a su amo".

١٩
باب الواشى

ومن آفات الحب الواشي ، وهوعلى ضربين :

أحدهما واش يريد القطع بين المتحابَيْن فقط ، وإنّ هذا لأفترهما سوءة ، على أنه السم الذّعاف ، والصاب الممقر ، والحتف القاصد ، والبلاء الوارد ، وربما لم يَنجع ترقيشه .

وأكثر ما يكون الواشى فإلى المحبوب . وأما المحب فهيهات ، حال الجَريض دون القريض ، ومنع الحَرَب من الطرب ، شغله بما هو مانع له من استماع الواشى . وقد علم الوُشاة ذلك ، وإنما يقصدون إلى الخلىّ البال ، الصائل بحوزة الملك . المتعتب عند أقل سبب .

وإنّ للوُشاة ضروباً من التنقيل .

فمنها أن يذكر للمحبوب عمن يُحب أنه غير كاتم للسر ، وهذا مكان صعب المعاناة ، بطئ البُرء إلاّ أن يوافق معارضاً للمُحب فى محبته ، وهذا أمر يوجب النفار ، فلا فرج للمحبوب إلا بأن تُساعده الأقدار بالاطلاع على بعض أسرار من يُحب ، بعد أن يكون المحبوب ذا عقل ، وله حظ من تمييز ، ثم يدعه والمطاولة . فإذا تكذب عنده نَقْل الواشى مع ما أظهر من الجفاء والتحفّظ ، ولم يسمع لسره إذاعة ، علم أنه إنما زوّرله الباطل ، واضمحل ما قام فى نفسه .

ولقد شاهدت هذا بعينه لبعض المحبين مع بعض من كان يحب ، وكان المحبوب شديدَ المراقبة عظيم الكتمان ، وكثر الوشاة بينهما حتى ظهرت أعلام ذلك فى وجهه ، وحدَث فى حُب لم يكن ، وركبته رحمة ، وأظلّته فكرة ، ودهمته حيرة ، إلى أن ضاق صدره وباح بما نقل إليه . فلو شاهدت مقام المحب فى اعتذاره ، لعلمت أن الهوى سلطان مطاع ، وبناء مشدود الأواخى ، وسنان نافذ ، وكان اعتذاره بين الاستسلام والاعتراف ، والإنكاروالتوبة ، والرمى بالمقاليد ، فبعد لأْيٍ ما صَلُحَ الأمر بينهما .

وربما ذكر الواشى أن ما يظهر المُحبُّ من المحبة ليست بصحيحة ، وأنّ مذهبه

فى ذلك شفاء نفسه وبلوغ وطره . وهذا فصل وإن كان شديداً فى النقل فهو أيسر مُعاناة مما قبله ، فحالة المحب غير حالة المتلذّذ ، وشواهد الوجد متفرقة بينهما ، وقد وقع من هذا نبذ كافية فى باب الطاعة .

وربما نقل الواشى أن هوى العاشق مشترك وهذه النار المُحرقة والوجع الفاشى فى الأعضاء ، وإذا وافق الناقل لهذه المقالة أنْ يكون المُحب فتى حسن الوجه ، حُلو الحركات ، مرغوباً فيه ، مائلا إلى اللذات ، دنياوى الطبع ، والمحبوب امرأة جليلة القدر ، سريّة المنصب ، فأقرب الأشياء سعيها فى إهلاكه ، وتصدّيها لحتفه . فكم صريع على هذا السبب ، وكم من سُقى السم فقطّع أمعاءه لهذا الوجه . وهذه كانت ميتة مروان بن أحمد بن حُدَيْر ، والد أحمد المتنسِّك ، وموسى وعبد الرحمن ، المعروفين بابنى لُبْنَى ، من قبل قطر الندى جاريته[١]

وفى ذلك أقول محذراً لبعض إخوانى قطعة ، منها :

وهل يأمــنُ النسوانَ غَيْرٌ مُغفَّــلٍ   جهولٍ لأسبابِ الردَى مُتَأَرِّضِ
وكم واردٍ حوضــاً من الموتِ أسودٍ   تَرشَّفهُ من طيِّبِ الطعمِ أبيض

والثانى واش يسعى للقطع بين المُحبين ، لينفرد بالمحبوب ويستأثره ، وهذا أشد شىء وأقطعه ، وأجزم لاجتهاد الواشى واستنفاده جُهده .

ومن الوُشاة جِنس ثالث ، وهو واش يَسعى بهما جميعاً ، ويكشف سرّهما ، وهذا لا يُلتفت إليه إذا كان المحب مساعداً .

وفى ذلك أقول :

عجبتُ لواشٍ ظَلَّ يكشِفُ أمرَنَا   وما بِسوَى أخبــارنــا يَتنفَّسُ
وماذا عليــه من عَنائِى ولــوعتِى   أنا آكلُ الرُمَّانَ والوُلْدُ تَضْرس[٢]

ولابد أن أورد ما يُشبه ما نحن فيه ، وإن كان خارجاً منه ، وهو شىء فى بيان التنقيل والنمائم ، فالكلام يدعو بعضه بعضاً كما شرطنا فى أول الرسالة ،

---

(١) عن بنى حدير تكلمنا فى الباب الرابع عشر ، الهامش رقم ٤ .

(٢) يعكس هذا البيت ثقافة ابن حزم الواسعة ، ومعرفته بما فى الكتب الدينية الأخرى . فالبيت مقتبس من التوراة ، ونص الفقرة هناك : الآباء أكلوا الحصرم ، وأسنان الأبناء ضرست » . انظر :

• سفر حزقيال ، الإصحاح الثامن عشر .

وما فى جميع الناس شر من الوُشاة ، وهم النّمامون ، وإنّ النميمة لَطَبع يدُل على نتن الأصل ، ورداءة الفرع ، وفساد الطبع ، وخُبْث النشأة ، ولا بد لصاحبه من الكذب .

والنميمة فرع من فروع الكذب ونوع من أنواعه ، وكل نمّام كذّاب ، وما أحببت كذاباً قط ، وإنى لأسامح فى إخاء كلّ ذى عَيب وإن كان عظيما ، وأكِل أمره إلى خالقه عز وجل ، وآخذ ما ظَهر من أخلاقه ، حاشى مَن أعلمه يكذب ، فهو عندى ماح لكل محاسنه ، ومُعَف على جميع خِصاله ، ومذهب كل ما فيه ، فما أرجو عنده خيراً أصلا ، وذلك لأن كل ذنب فهو يتوب عنه صاحبه ، وكل ذام فقد يمكن الاستتار به والتوبة منه ، حاشى الكذب فلا سبيل إلى الرجعة عنه ، ولا إلى كتمانه حيث كان . وما رأيت قط ، ولا أخبرنى من رأى ، كذّاباً ترك الكذب ولم يعد إليه ، ولا بدأت قط بقطيعة ذى معرفة إلاّ أن أطّلع له على الكذب ، فحينئذ أكون أنا القاصد إلى مجانبته ، والمتعرِّض لمتاركته ، وهى سِمة ما رأيتها قط فى أحد إلاّ وهو مزنون فى نفسه إليه بشق ، مغموز عليه لعاهة سوء فى ذاته . نعوذ بالله من الخذلان .

وقد قال بعض الحكماء : آخِ من شئت واجتنب ثلاثة : الأحمق فإنه يريد أن ينفعك فيضرّك ، والملول فإنه أوثق ما تكون به لطول الصحبة وتأكّدها يخذلك ، والكذّاب فإنه يجنى عليك آمن ما كنت فيه من حيث لا تشعر .

وحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حسن العهد من الإيمان » .

وعنه عليه السلام : « لا يؤمن الرجل بالإيمان كله حتى يدع الكذب فى المُزاح » .

حدّثنا بهذا أبو عمر أحمد بن محمد ، عن محمد بن على بن رِفاعة ، عن على ابن عبد العزيز ، عن أبى عبيد القاسم بن سلام عن شيوخه . والآخر منهما مُسند إلى عمر بن الخطاب وابنه عبد الله رضى الله عنهما .

والله عز وجل يقول : « يا أيُّها الذين آمنوا لِمَ تَقولونَ مالا تَفْعلون . كَبُرَ مَقْتاً عندَ اللهِ أنْ تَقولوا مالا تفْعلون »(٣).

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سئل : هل يكون المؤمن بَخيلا ؟ فقال :

---

(٣) سورة الصف ، الآيتان ٣ و ٤ .

نعم . قيل : فهل يكون المؤمنَ جَباناً ؟ فقال : نعم . قيل : فهل يكون المؤمن كذّاباً ؟ قال : لا » .

حدّثناه أحمد بن محمد بن أحمد ، عن أحمد بن سعيد ، عن عبيد الله بن يحيى عن أبيه ، عن مالك بن أنس ، عن صفوان بن سليم .

وبهذا الإسناد ، أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا خير فى الكذب فى حديث سئل فيه » .

وبهذا الإسناد عن مالك أنّه بلغه عن ابن مسعود أنه كان يقول : لا يزال العبد يكْذب وينكت فى قلبه نُكتة سوداء ، حتى يسودّ القلب ، فيُكتب عند الله من الكذابين .

وبهذا الإسناد عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال : عليكم بالصدق فإنه يهدى إلى البر ، والبرّ يهدى إلى الجنة . وإياكم والكذب فإنه يهدى إلى الفجور . والفجور يهدى إلى النار » .

وروى أنه أتاه صلى الله عليه وسلم رجل فقال: يارسول الله إنى أستتر بثلاث: الخمر والزنا والكذب، فمُرنى أيها أترك. قال اترك الكذب فذهب منه. ثم أراد الزنا ففكّر فقال : آتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسألنى : أزنيت ؟ فإنْ قلت : نعم ، حدّنى ، وإنْ قلت : لا ، نقضت العهد ، فتركه . ثم كذلك فى الخمر . فعاد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، إنى تركت الجميع .

فالكذب أصل كل فاحشة ، وجامع كل سوءٍ ، وجالبٌ لمقت الله عز وجل ، وعن أبى بكر الصديق رضى الله عنه أنه قال : لا إيمان لمن لا أمانة له . وعن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال : « كل الخلال يطبع عليها المؤمن إلا الخيانة والكذب » . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ثلاث من كنّ فيه كان منافقاً : مَن إذا وعد أخلف ، وإذا حدّث كذب ، وإذا أؤتمن خان » .

وهل الكُفر إلا كذب على الله عز وجل ، والله الحق ، وهو يحب الحق ، وبالحق قامت السموات والأرض . وما رأيت أخزى من كذّاب ، وما هلكت الدول ، ولا هلكت الممالك ولا سفكت الدماء ظلماً ولا هتكت الأستار بغير النمائم والكذب ، ولا أكْدت البغضاء والإحن المردية إلاّ بنمائم لا يحظى صاحبها إلا بالمقت والخزى

والذل ، وأن ينظر منه الذى ينقل إليه ، فضلا عن غيره ، بالعين التى ينظر بها من الكلب . والله عز وجل يقول : « ويلٌ لكلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَة »(٤) ويقول جل من قائل : « يا أيُّها الذين آمَنوا إنْ جاءكم فاسقٌ بنبإٍ فَتبيَّنوا »(٥) . فسمى النقل باسم الفسوق . ويقول : « ولا تُطِعْ كلَّ حلَّافٍ مَهين هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بنميم . مَنَّاعٍ للخيرِ مُعتدٍ أثيم عُتُلٍّ بعد ذلك زَنيم » (٦) والرسول عليه السلام يقول : « لا يدخل الجنة قَتَّات »(٧) ويقول : « إياكم وقاتل الثلاثة » . يعنى المنقِّل والمنقول إليه والمنقول عنه . والأحنف يقول : الثقة لا يبلِّغ ، وحق لذى الوجهين ألاَّ يكون عند الله وجيهاً . وهو ما يجعله من أخسِّ الطبائع وأرذلها » .

وَلِى إلى أبى إسحاق إبراهيم بن عيسى الثقفى الشاعر رحمه الله(٨) ، وقد نقل إليه رجل من إخوانى عنى كذباً على جهة الهزل ، وكان هذا الشاعر كثيرَ الوهم ، فأغضبه وصدّقه ، وكلاهما كان لى صديقاً ، وما كان الناقل إليه من أهل هذه الصفة ، ولكنه كان كثير المُزاح جم الدعابة . فكتبت إلى أبى إسحاق ، وكان يقول بالجبر ، شعراً منه :

ولا تَتبدَّلْ قالــةً قــد سمعتَها ... تُقالُ ولا تَدرِى الصحيحَ بما تدرِى
كمن قد أراقَ الماءَ للآلِ أنْ بـدا ... فلاقَى الردَى فى الأفْيَحِ المَهْمَهِ القفْرِ

وكتبتُ إلى الذى نقل عنى شعراً ، منه :

ولا تَزْعُماً فى الجِـدِّ مَزْحاً كمُولجٍ ... فسادَ علاجِ النفسِ طىَّ صلاحِها
ومَن كان نَقْلُ الزورِ أمضى سلاحِهِ ... كمثلِ الحُبارَى تَتَّقِى بِسُلاحِهـا

وكان لى صديق مرة ، وكثر التدخيلُ بينى وبينه ، حتى كدح ذلك فيه ، واستبان فى وجهه . وفى لحظه ، وطُبعتُ على التأنّى والتربّص والمُسالمة ما أمكنتْ ، ووجدت بالانخفاض سبيلا إلى معاودة المودّة ، فكتبت إليه شعراً . منه :

---

(٤) سورة الهمزة ، الآية رقم ١ .
(٥) سورة الحجرات ، الآية رقم ٦ .
(٦) سورة القلم ، الآيات ١٠ و ١١ و ١٢ و ١٣ .
(٧) قتات : نمام .
(٨) لم أهتد إلى أية ترجمة لأبى إسحاق إبراهيم بن عيسى التقفى .

ولى فى الـذى أُبْـدِى مرامِ لوانَّها بَدَتْ ما ادَّعى حُسْنَ الرمايةِ وَهْرِزُ [٩]

وأقول مخاطباً لُعبيد الله بن يحيى الجزيرى[١٠] ، الذى يُحْفَظُ لعمه الرسائل البليغة ، وكان طبْع الكذب قد استولى عليه ، واستحوذ على عقله ، وألفه ألفة النفس الأمل ، ويؤكد نقله وكذبه بالأيمان المؤكّدة المُغلّظة ، مجاهراً بها ، أكذب من السراب مستهتراً بالكذب مشغوفاً به ، لا يزال يحدّث من قد صحّ عنده أنه لا يصدّقه ، فلا يزجره ذلك عن أن يحدّث بالكذب :

بدا كلُّ ما كتَّمْتَهُ بينَ مُخْـبِرٍ وحالٍ أرَتْنى قُبْـحَ عَقدِك بَيِّنـا
وكم حالـةٍ صارتْ بَياناً بحالـةٍ كما تُثبِتُ الأحكامُ بالحَبَلِ الزنا

وفيه أقول قطعة منها :

أَنَمُّ مـن المرآة فى كلِّ ما دَرَى وأَقطعُ بين الناسِ مِن قُضُبِ الهِنْدِ
أظنُّ المنايـا والزمانَ تعلَّمـا تَحيُّلَـهُ بالقطْع بين ذوى الوُدّ

وفيه أيضاً من قصيدة طويلة :

وأَكْـذَبُ من حُسْنِ الظنونِ حديثُهُ وأَقْبَحُ مـن دَيْنٍ وفقـرٍ مُلازِمِ
أوامرُ ربِّ العرشِ أَضْيعُ عنـدَهُ وأهـونُ من شكوَى إلى غيرِ راحم
تجمَّعَ فيه كلُّ خِـزْىٍ وفَضْحَـةٍ فلم يُبقِ شَتْماً فى المقال لشاتم

---

(٩) وهرز : قوّاس صائب الرماية ، فارسى الأصل ، كان مشهوراً بذلك فى الجاهلية .

(١٠) لا نتوفر على معلومات تساعد على تكوين فكرة واضحة عن عبيد الله بن يحيى هذا ، ولكن المصادر التاريخية تمدنا بمعلومات طيبة عن عمه أبى مروان عبد الملك بن أدريس الجزيرى ، المشار إليه فى النص ، فقد ذكر الحميدى أنه : «عالم أديب شاعر ، كثير الشعر ، غزير المادة ، معدوداً فى أكابر البلغاء ، من ذوى البديهة ، وله فى ذلك رسائل وأشعار مروية» . وكان شاعر المنصور بن أبى عامر ، ثم ابنه المظفر من بعده ، وقد سخط عليه المظفر ، واتهمه بالتآمر ، وألقى به فى السجن ، فتوفى بالمطبق فى ذى القعدة من عام ٣٩٤ هـ = ١٠٠٤ م . انظر :

- الحميدى : جذوة المقتبس ، الترجمة رقم ٦٢٤ ، طبعة القاهرة .
- ابن بشكوال : الصلة ، الترجمة رقم ٧٦٢ .
- ابن الأبار : الحلة السيراء ، جـ ١ ص ٢٦٦ ، و جـ ٢ ص ٢٢٤ .
- وسوف نلتقى به مرة أخرى فى الباب التاسع والعشرين من هذا الكتاب .

وأثْقلُ مــن عَذْلٍ على غيرِ قابلٍ   وأبردُ برداً من مدينة سالم[١١]
وأبغضُ من بَيْنٍ وهَجــرٍ ورِقْبــةٍ   جُمِعْنَ على حَرَّانَ حَيْرانَ هائِم

وليس من نبّه غافلا ، أو نصح صديقاً ، أو حفظ مسلماً ، أو حكى عن فاسق ، أو حدّث عن عدو مالم يكن يكذب ولا يكذب ، ولا تعمد الضغائن ، منقِّلاً . وهل هلك الضعفاء ، وسقط من لا عقل له ، إلاّ فى قلّة المعرفة بالناصح من النمام ، وهما صفتان متقاربتان فى الظاهر ، متفاوتتان فى الباطن ، إحداهما داء ، والأخرى دواء ، والثاقب القريحة لا يخفى عليه أمرهما ، لكن الناقل من كان تنقيله غير مرضىّ فى الديانة ، ونوى به التشتيت بين الأولياء ، والتضريب بين الإخوان ، والتحريش والتوبيش والترقيش .

فمن خاف إنْ سلك طريق النصيحة أن يقع فى طريق النميمة ، ولم يثق لنفاذ تمييزه ، ومضاء تقديره ، فيما يَرده من أمور دنياه ، ومعاملة أهل زمانه ، فليجعل دينه دليلا له ، وسراجاً يستضىء به ، فحيثما سلك به سلك ، وحيثما أوقفه وقف . فشارع الشريعة ، وباعث الرسول عليه السلام ، ومرتّب الأوامر والنواهى ، أعلم بطريق الحق ، وأدرى بعواقب السلامة ، ومغبّات النجاة ، من كل ناظر لنفسه بزعمه ، وباحث بقياسه فى ظنه .

---

(١١) مدينة سالم Medinaceli ، مدينة كبيرة ، لا تزال تحتفظ باسمها العربى حتى يومنا هذا ، فى الطريق بين مدريد وسرقسطة ، وعلى بعد ١٣٥ ك. م. من مدريد ، وهى من أعمال مقاطعة سورية Soria ، وتدين بعمرانها إلى بربرى من قبيلة مصمودة ، يدعى سالم بن ورعمال ، وإليه تنسب ، وكان سالم ، فيما يبدو ، من كبار قادة البربر ، ودخل الأندلس فى سن مبكرة ، وقد أصبحت المدينة مركزاً عسكريًّا هامًّا ، وعنى بها عبد الرحمن الناصر ، وانتدب لبنائها أكبر قواده ، وبها توفى المنصور بن أبى عامر ، عام ١٠٠٢ م ، أثناء عودته من حملة قام بها ضد قشتالة Castilla ، وهى الحملة الخمسون من حملاته ، ودفن معه فى القبر الغبار الذى تجمع على درعه أثناء حملاته المتعددة ، وكان يحتفظ به لهذا الغرض ، ونقش على قبره الأبيات الآتية :

آثاره تنبيك عن أخبــاره   حتى كأنك بالعيــان تراه
تا لله لا يأتى الزمان بمثله   أبداً ولا يحمى الثغور سواه

غير أن تعليق صاحب تاريخ إسبانيا المقدسة ، كان يتضح بغضاً يقول : « وفى سنة ١٠٠٢ مات المنصور ودفن فى الجحيم » .

ولقد ترددت على المدينة أكثر من مرة ، وذكرى المنصور ما تزال فى أذهان الناس، أقاصيص وحكايات ، ولكن المدينة لا تعرف له قبراً ! .

٢٠

باب الوصل

ومن وجوه العشق الوصل ، وهو حظ رفيع ، ومرتبة سريّة ، ودرجة عالية ، وسعد طالع ، بل هو الحياة المجدّدة[١]، والعيش السنىّ ، والسرور الدائم ، ورحمة من الله عظيمة ، ولولا أن الدنيا دار مَمَر ومحنة وكدر ، والجنة دار جزاء وأمان من المكاره ، لقلنا إنّ وصْل المحبوب هو الصفاء الذى لا كدر فيه ، والفرح الذى لا شائبة فيه ولا حزن معه ، وكمال الأمانى ، ومنتهى الأراجى .

ولقد جرّبت اللذات على تصرّفها ، وأدركت الحظوظ على اختلافها ، فما للدنوّ من السلطان ، ولا للمال المستفاد ، ولا الوجود بعد العدم ، ولا الأوْبة بعد طول الغيبة ، ولا الأمن بعد الخوف ، ولا التروّح على المال ، من الموقع فى النفس ، ما للوصل لا سيما بعد طول الامتناع ، وحلول الهجر ، حتى يتأجّج عليه الجوى ، ويتوقّد لهيب الشوق ، وتتضرم نار الرجاء .

وما أصناف النبات بعد غِبّ القطر ، ولا إشراق الأزاهير بعد إقلاع السحاب الساريات فى الزمان السجسج ، ولا خرير المياه المتخللة لأفانين النوّار ، ولا تأنق القصور البيض قد أحدقت بها الرياض الخضر ، بأحسن من وصل حَبيب قد رضيت أخلاقه ، وحُمدت غرائزه ، وتقابلت فى الحسن أوصافه . وإنه لمعجز ألسنة البلغاء ، ومقصّر فيه بيان الفصحاء ، وعنده تطيش الألباب ، وتعزب الأفهام .

وفى ذلك أقول :

وسائِلٍ لِىَ عمَّا لِى مِـــن العُمُرِ ... وقد رأى الشيبَ فى الفوْدَيْن والعُذُر

أَجَبْتُــهُ ساعةً لا شىءَ أحسبُه ... عُمْراً سواها بحكْمِ العقْل والنظَر

(١) منذ نشر بتروف ، المستشرق الروسى ، النص العربى لطوق الحمامة ، عام ١٩١٤ ، وتوالت ترجماته ، وعامة المستشرقين يقفون عند هذه الجملة لابن حزم : « الحياة المجددة » ، فقد كانت العنوان الذى أعطاه الشاعر الإيطالى دانتى Dante (١٢٢٥ – ١٣٢١ م) ، لأهم أعماله الأدبية : « الحياة المجددة La Vita Nova » . أكان مجرد التقاء فكر بين عبقريين ، أم أن الأديب الإيطالى عرف كتاب الطوق ؟ سؤال فى انتظار من يجيب عليه .

فقال لي : كيف ذا ؟ بيِّنْه لي ، فلقد أَخبَرْتَني أشنعَ الأنبــاءِ والخَبر
فقلت : إنّ التي قلبي بهــا عَلِقٌ قَبَّلْتُهــا قبلةً يوماً على خطَر
فما أعُدُّ ولــو طالتْ سِنِيٌّ سِوَى تلكَ السويعةِ بالتحقيقِ مِن عُمُري

ومن لذيذ معاني الوصل المواعيد ، وإن للوعد المنتظر مكاناً لطيفاً من شِغاف القلب ، وهوينقسم قسمين : أحدهما الوعد بزيارة المحب لمحبوبه .

وفيه أقول قطعة ، منها :

أُسامِرُ البــدرَ لمّا أبطأتْ وأرى في نورِه من سَنــا إشْراقها عَرَضا
فبِتُّ مُشْترطا والوُدُّ مختلطــاً والوَصْــلُ مُنبسطاً والهجرُ مُنقبضاً

والثاني انتظار الوعد من المحب أن يزور محبوبه ، وإن لمبادئ الوصل ، وأوائل الإسعاف ، لتولّجا على الفؤاد ليس لشيء من الأشياء .

وإني لأعرف من كان مُمتحنا بهوى في بعض المنازل المصاقبة ، فكان يصل متى شاء بلا مانع ، ولا سبيل إلى غير النظر والمحادثة زماناً طويلا ، ليلا متى أحب ونهاراً ، إلى أن ساعدته الأقدار بإجابة ، ومكنته بإسعاد بعد يأسه لطول المدة ، ولعهدي به قد كاد أن يختلط عقله فرحاً ، وما كاد يتلاحق كلامه سروراً . فقلت في ذلك :

برغبــةٍ لو إلى ربي دعوتُ بهــا لكان ذنبيَ عنــد اللهِ مغفــورَا
ولو دعوتُ بهــا أُسْــدَ الفلا لَغَدا إضرارُها عن جميع الناسِ مقصورَا
فجاد باللثْم لِي من بَعْــد مَنْعتِــهِ فاهتاجَ من لوعتِي مــا كان مغمورا
كشاربِ الماءِ كي يُطْفِي الغليلَ بــه فغُصّ فانصاع في الأجداثِ مقبورا

وقلت :

جرى الحبُّ مِنِّي مجرى النَفَسْ وأَعطيْتُ عَيني عِنــانَ الفَرَسْ
ولِي سيّدٌ لم يــزل نافــــرا ورُبَّما جادَ لِي في الخُلَس
فقبَّلْتُــهُ طالبــاً راحــةً فــزاد أليــلا بقلبِي اليَبَس
وكان فــؤادي كَنَبْتٍ هَشِيمٍ يَبيسٍ رمَى فيــه رامٍ قَبَس

ومنهــا :

ويا جوهــرَ الصينِ سُحْقاً فقــد غَنِيتُ بيــاقــوتــةِ الأندلسْ

* خبر :

وإنى لأعرف جارية اشتد وجدها بفتى من أبناء الرؤساء ، وهو لا علم عنده ، وكثر غمها ، وطال أسفها ، إلى أن ضَنِيَتْ بحبه ، وهو بغرارة الصِّبى لا يشعر . ويمنعها من إبداء أمرها إليه الحياءُ منه ، لأنها كانت بكرا بخاتمها ، مع الإجلال له عن الهجوم عليه بما لا تدرى لعله لا يوافقه . فلمّا تمادى الأمر ، وكانا إلفين فى النشأة ، شكت ذلك إلى امرأة جزلة الرأى ، كانت تثق بها لتوليها تربيتها ، فقالت لها : عرِّضى له بالشعر . ففعلت المرة بعد المرة وهو لا يأبه فى كل هذا . ولقد كان لقناً ذكيا لم يظن ذلك فيميل إلى تنتيش الكلام بوهمه ، إلى أن عِيل صبرُها ، وضاق صدرها ، ولم تمسك نفسها فى قعدة كانت لها معه فى بعض الليالى منفردَيْن ، ولقد كان يعلم الله عفيفاً مُتصاوناً بعيداً عن المعاصى ، فلما حان قيامها عنه بَدرت إليه فقبلته فى فَمه ، ثم ولت فى ذلك الحين ولم تكلمه بكلمة ، وهى تتهادى فى مشيها ، كما أقول فى أبيات لى :

كأنَّهـا حين تخطو فى تأوُّدِهـــا ... قضيبُ نَرجسةٍ فى الروضِ ميّاسُ
كأنمّـا خُلْدُهــا فى قلبِ عاشِقها ... ففيهِ مِن وقْعها خَطْر وَوَسْواس
كأنمّـا مَشْيُها مَشْىُ الحمــامةِ لا ... كَدٌّ يُعابُ ولا بُطءٌ بـــه باس

فبُهت وسُقط فى يده ، وفُت فى عضده ، ووجد فى كبده وعلته وجمة ، فما هو إلا أن غابت عنه ، ووقع شرك الرَّدى ، واشتعلت فى قلبه النار وتصعّدت أنفاسه ، وترادفت أوجاله وكثر قلقه ، وطال أرقه ، فما غمض تلك الليلة عيناً ، وكان هذا بدء الحب بينهما دهراً ، إلى أن جذت جملتها يدُ النوى ، وإن هذا لمن مصائد إبليس ، ودواعى الهوى التى لا يقف لها أحد ، إلاّ من عصمه الله عز وجل .

ومن الناس من يقول : إنّ دوام الوصل يُودى بالحب ، وهذا هجين من القول ، إنما ذلك لأهل الملل ، بل كلما زاد وصلا زاد اتصالا .

وعنى أخبرك أنى ما رويتُ قط من ماء الوصل ولا زادنى إلا ظمأ . وهذا حكم من تداوى برأيه وإن رفّه عنه سريعاً . ولقد بلغتُ من التمكن بمن أُحبُّ أبعد الغايات التى لا يجد الإنسان وراءها مرمى ، فما وجدُتنى إلا مستزيداً ، ولقد طال بى ذلك فما

أحسست بسآمة ولا رهقتنى فترة .

ولقد ضمّنى مجلس مع بعض من كنتُ أحب ، فلم أجل خاطرى فى فن من فنون الوصل ، إلاّ وجدته مقصراً عن مرادى ، وغير شاف وجْدى ، ولا قاض أقل لبانة من لباناتى ، ووجدُتنى كلما ازددت دُنوًّا ازددتُ ولوعا ، وقدحتْ زناد الشوق نار الوجد بين ضلوعى ، فقلت فى ذلك المجلس :

وَدِدْتُ بأنَّ القلبَ شُقَّ بُمديــةٍ ... وأُدخلتِ فيهِ ثمّ أُطبِقَ فى صَدْرى

فأصبحتِ فيه لا تحلِّينَ غــيرَه ... إلى مُقْتضى يوم القيامةِ والحَشْر

تعيشينَ فيــه ما حييتُ فإنْ أَمُتْ ... سكنْتِ شغافَ القلبِ فى ظُلَم القبر

وما فى الدنيا حالة تعدل محبّيْن إذا عدما الرقباء ، وأمنا الوشاة ، وسلما من البيْن ، ورغبا عن الهجر ، وبَعُدا عن الملل ، وفقدا العذّل ، وتوافقا فى الأخلاق ، وتكافيا فى المحبة ، وأتاح الله لهما رزقاً دارّا ، وعيشاً قارّا ، وزماناً هادياً ، وكان اجتماعُهما على ما يرضى الرّب من الحال ، وطالت صُحبتهما ، واتصلت إلى وقتُ حلول الحِمامِ الذى لا مردّ له ، ولا بد منه . هذا عطاء لم يحصُل عليه أحد ، وحاجة لم تُقض لكل طالب ، ولولا أنّ مع هذه الحال الإشفاق من بغتات المقادير المحكمة فى غيب الله عز وجل ، من حُلول فراق لم يكتسب ؛ واخترام منية فى حال الشباب أوما أشبه ذلك ، لقلت إنها حال بعهدة من كل آفة ، وسليمة من كل داخلة .

ولقد رأيتُ مَن اجتمع له هذا كله ، إلاّ أنه كان دُهى فيمن كان يحبه بشراسة الأخلاق ، ودالّة على المَحبة ، فكانا لا يتهنّيان العيش ، ولا تطلع الشمس فى يوم إلاّ وكان بينهما خلاف فيه ، وكلاهما كان مطبوعاً بهذا الخُلق ، لثقة كل واحد منهما بمحبة صاحبه ، إلى أن دنت النوى بينهما فتفرّقا بالموت المرتب لهذا العالم .

وفى ذلك أقول :

كيف أذُمُّ النــوَى وأظْلِمُهَا ... وكلُّ أخلاقِ مَن أُحِبُّ نَــوَى

قــد كان يَكفى هــوًى أضيقُ به ... فكيفَ إذْ حَلَّ بِى نَوىً وهَــوَى

وروى عن زياد بن أبى سفيان رحمه الله أنه قال لجُلسائه : من أنعم الناس عيشة ؟ قالوا : أمير المؤمنين . فقال : وأين ما يلقى من قريش ؟ قيل ؟ فأنت . قال أين ما ألقى من الخوارج والثغور؟ قيل فمن أيها الأمير. قال : رجل مُسلم ، له زوجة

مسلمة ، لهما كفاف من العيش ، قد رضيت به ورضى بها ، لا يعرفنا ولا نعرفه .

وهل فيما وافق إعجاب المخلوقين ، وجلا القلوب ، واستمال الحواس ، واستهوى النفوس ، واستولى على الأهواء ، واقتطع الألباب ، واختلس العقول ، مستحسن يعدل إشفاق مُحب على محبوب .

ولقد شاهدت من هذا المعنى كثيراً ، وإنه لمن المناظر العجيبة الباعثة على الرقة ، الرائقة المعنى ، لاسيما إن كان هوى يتكتّم به . فلو رأيتَ المحبوبَ حين يعرض بالسؤال عن سبب تغضّبه بمحبَّه ، وخجلته فى الخروج مما وقع فيه بالاعتذار ، وتوجيهه إلى غير وجهه ، وتحيّله فى استنباط معنى يُقيمه عند جلسائه ، لرأيت عجباً ، ولذة مخفيّة لا تقاومها لذة ، وما رأيت أجلب للقلوب ، ولا أغوص على حياتها ، ولا أنفذ للمقاتل من هذا الفعل ، وإنّ للمُحبين فى الوصل من الاعتذار ما أعجزَ أهلَ الأذهان الذكيّة ، والأفكار القوية .

ولقد رأيت فى بعض المرات هذا فقلت :

إذا مزجتَ الحــقَّ بالبــاطلِ ۝ جوزتَ ما شئتَ على الغافلِ
وفيهما فـرْقٌ صحيـحٌ لــه ۝ علامةٌ تبــدو إلى العاقل
كالتِّبر إنْ تمزجْ به فِضَّــة ۝ جازتْ على كلِّ فتىً جاهل
وإنْ تُصادِفْ صائغــاً ماهراً ۝ ميَّز بَيْنَ المحْضِ والحـــائل

وإنى لأعلم فتى وجارية ، وكان يكلف كل واحد منهما بصاحبه ، فكانــا يضطجعان إذا حضرهما أحد ، وبينهما المُسند العظيم من المساند الموضوعة عند ظهور الرؤساء على الفرش ، ويلتقى رأساهما وراء المسند ، ويقبِّل كل واحد منهما صاحبه ولا يُريان ، وكأنهما إنما يتمددان من الكلل . ولقد كان بلغ من تكافيهما فى المودة أمراً عظيماً ، إلى أن كان الفتى المُحب ربما استطال عليها .

وفى ذلك أقول :

ومِن أعاجيبِ الـزمـانِ التى ۝ طمَّتْ على السامعِ والقائلِ
رَغبــةُ مَركـوبٍ إلى راكبٍ ۝ وذِلّــةُ المسؤولِ للســائــل
وطَــولُ مأســورٍ إلى آسرٍ ۝ وصَوْلــةُ المَقتـولِ للقاتــل

مـا إنْ سمعنَـا فى الوَرَى قبلَهَا   خُضوعَ مأمـولٍ إلى آمـل
هـل هَـاهُنـا وجـهٌ تراه سِوى   تواضع المَفعـولِ للفـاعـل

ولقد حدثتنى امرأة أثق بها أنها شاهدت فتى وجارية ، كان يَجد كل واحد منهما بصاحبه فضل وجد ، اجتمعا فى مكان على طرب ، وفى يد الفتى سكين يقطع بها بعض الفواكه ، فجرَّها جرًّا زائداً فقطع إبهامه قطعاً لطيفاً ظهر فيه دم ، وكان على الجارية غلالة قصب خزائنية لها قيمة ، فصرفت يدها وخرقتها ، وأخرجت منها فضلة شد بها إبهامه . وأما هذا الفعل للمحب فقليل فيما يجب عليه ، وفرض لازم وشريعة مؤداة ، وكيف لا وقد بذل نفسه ووهب روحه فما يمنع بعدها .

* خبر :

وأنا أدركت بنت زكريا بن يحيى التميمى المعروف بابن برطال ، وعمها كان قاضى الجماعة بقرطبة محمد بن يحيى ، وأخوها[٢] الوزير القائد ، الذى كان قتله غالبٌ وقائدين له فى الوقعة المشهورة بالثغور ، وهما مروان بن أحمد بن شهيد ، ويوسف ابن سعيد العكّى ، وكانت متزوجة بيحيى بن محمد ، ابن الوزير يحيى بن إسحاق[٣] .

---

(٢) فى الأصل ، وفى الطبعات العربية « وأخوه » ، وقد صححها ليفى بروفنسال فى ضوء المراجع التاريخية « وأخوها » ، والهامش التالى يزيد الأمر وضوحاً .

(٣) * يحيى بن زكريا التميمى ، يعرف بابن برطال ، كان والد بريهة أم المنصور بن أبى عامر ، وكان ابنه زكريا ، خال المنصور ، قاضياً على بطليوس وباجة ، فى أيام الخلفاء الأول ، وتوفى عام ٣٥٩ هـ = ٩٦٩ م .

* وكان ابنه الثانى محمد قاضى الجماعة فى قرطبة ، من ٣٨١ هـ = ٩٩١ م إلى ٣٩٢ هـ = ١٠٠١ م ، ثم ظهر اختلاله لكبر سنه ، فتخوف منه المنصور ، فنقله من القضاء إلى الوزارة ، ولكن ما لبث أن توفى عام ٣٩٤هـ = ١٠٠٤ م .

* أما الوزير القائد الذى أشار إليه نص « طوق الحمامة » دون أن يذكر اسمه ، فقد كان أخاً لبنت زكريا التى يتحدث عنها ابن حزم ، وليس أخا القاضى كما يفهم من النص قبل تصحيحه . والمعركة التى يشير إليها ابن حزم ، وقعت عام ٣٧٠ هـ = ٩٨١ م ، بين المنصور بن أبى عامر وغالب بن عبد الرحمن ، من قواد الحكم الثانى .

* ويحيى بن إسحاق كان من قواد عبد الرحمن الناصر .

* أما القائدان الآخران ، مروان بن أحمد بن شهيد ويوسف بن سعيد العكى ، فلم اهتد لهما إلى ترجمة فيما بين يدى من مصادر . انظر :

* ابن سعيد : المغرب ، جـ ١ ص ٢١٥ .
* ابن الأبار : الحلة السيراء ، جـ ١ ص ٢٧٥ .

فعاجلته المنية وهما فى أغض عيشهما ، وأنضر سرورهما ، فبلغ من أسفها عليه أن باتت معه فى دثار واحد ليلة مات ، وجعلته آخر العهد به وبوصله ، ثم لم يفارقها الأسف بعده إلى حين موتها .

وإن للوصل المختلس الذى يُخاتل به الرقباء ، ويحتفظ به من الحضر ، مثل الضحك المستور ، والنحنحة ، وجولان الأيدى ، والضغط بالأجناب ، والقرص باليد والرجل ، لموقعاً من النفس شهياً .

وفى ذلك أقول :

إنّ للوصْـــلِ الخفىِّ مَحَـلاًّ ليس للوصلِ المـكينِ الجلىِّ
لَـــذَّةٌ تمزجُهَـــا بارتقــــابٍ كمسيرٍ فى خـــلالِ النقىِّ

* خبر :

ولقد حدثنى ثقة من إخوانى جليل من أهل البيوتات ، أنه كان عَلق فى صباه جارية كانت فى بعض دُور آله ، وكان ممنوعا منها فهام عقله بها . قال لى : فتنزهنا يوماً إلى بعض ضياعنا بالسهلة ، غربى قرطبة ، مع بعض أعمامى ، فتمشينا فى البساتين ، وأبعدنا عن المنازل ، وانبسطنا على الأنهار ، إلى أن غيمت السماء وأقبل الغيث ، فلم يكن بالحضرة من الغطاء ما يفى الجميع . قال : فأمر عمى ببعض الأغطية فألقى علىّ ، وأمرها بالاكتنان معى ، فظُنّ بما شئت من التمكن على عين الملأ وهم لا يشعرون ، ويالك من جمع كخلاء ، واحتفال كانفراد . قال لى : والله لا نسيت ذلك اليوم أبدا . ولعهدى به ، وهو يحدثنى بهذا الحديث وأعضاؤه كلها تضحك ، وهو يهتز فرحاً على بعد العهد وامتداد الزمان . فى ذلك أقول شعراً منه :

يضحكُ الروضُ والسحائبُ تَبكِى كحبيبٍ رآه صَبٌّ مُعَنّى

---

* ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ، الترجمة رقم ٤٤٩ ، ورقم ١٣٨٨ .
* النباهى : المرقبة العليا ، ص ٨٤ ، طبعة القاهرة .
* Lévi - Provençal, Espana musulmana, trad. espanola, en Historia de Espana, tomo IV, p. 416, Madrid 1957.
* Dozy R. : Histoire des Musulmans d'Espagne, trad, espanola, tomo 2, p. 140 ss. Buenos Aires 1946.

* خبر :

ومن بديع الوصل ما حدثني به بعض إخواني أنه كان في بعض المنازل المصاقبة له هوى ، وكان في المنزلين موضع مطلع من أحدهما على الآخر . فكانت تقف له في ذلك المَوضع ، وكان فيه بعض البعد ، فتسلم عليه ويدها ملفوفة في قميصها ، فخاطبها مستخبراً لها عن ذلك ، فأجابته : إنه ربما أحس من أمرنا شيء ، فوقف لك غيري فسلم عليك . فرددت عليه ، فصح الظن ، فهذه علامة بيني وبينك . فإذا رأيت يداً مكشوفة تشير نحوك بالسلام فليست يدي فلا تجاوب .

وربما استُحْلِي الوصال ، واتفقت القلوب ، حتى يقع التخلّج في الوصال ، فلا يُلتفت إلى لائم ، ولا يُستتر من حافظ ، ولا يُبالى بناقل ، بل العذل حينئذ يُغرى .

وفي صفة الوصل أقول شعراً ، منه :

كم دُرْتَ حوْلَ الحُبِّ حتى لقدْ ... حَصلْتَ فيه كَحصُولِ الفراشْ

ومنه :

تَعْشُو إلى الوصْلِ دواعِي الهَوَى ... كما سَرَى نحو سَنَا النارِ عاشْ

ومنه :

عَلّلَني بالوصِل من سيِّدي ... كمثْلِ تَعْليلِ الظَمَاءِ العِطاشْ

ومنه :

لا تُوقفِ العينَ على غايةٍ ... فالحُسنُ فيه مُستزيدٌ وباشْ

وأقول من قصيدة لي :

هلْ لقتيلِ الحبِّ مِن وَادي ... أمْ هل لعاني الحبِّ من فَادِي

أم هل لدهري عودةٌ نحوَهَا ... كمثْلِ يومٍ مَرَّ في الوادي

ظللتُ فيه سابحاً صادياً ... يا عجباً للسابحِ الصادي

ضَنِيتُ يا مولايَ وَجْداً فما ... تَبْصرُني ألحاظُ عُوَّادي

كيف اهتدى الوجدُ إلى غائبٍ ... عن أعينِ الحاضِرِ والبادِي

مَلَّ مُداواتي طبيبي فقدْ ... يَرْحمني للسُّقمِ حُسَّادي

٢١

باب الهجر

ومن آفات الحب أيضاً الهجر ، وهو على ضروب :

فأولها هجر يوجبه تحفظ من رقيب حاضر ؛ وإنه لأحلى من كل وصل ، ولولا أن ظاهر اللفظ ، وحكم التسمية ، يوجب إدخاله فى هذا الباب ، لرجعت به عنه ، ولأجللته عن تسطيره فيه . فحينئذ ترى الحبيب منحرفاً عن مُحبه ، مقبلا بالحديث على غيره ، معرضاً بمعرض لئلا تلحق ظنته ، أو تسبق استرابته .

وترى المحب أيضاً كذلك ، ولكن طبعه له جاذب ، ونفسه له صارفة بالرغم ، فتراه حينئذ منحرفاً كمُقبل ، وساكتاً كناطق ، وناظراً إلى جهة نفسه فى غيرها .

والحاذق الفطن إذا كشف بوهمه عن باطن حديثهما عَلِمَ أن الخافى غير البادى ، وما جَهَر به غير نفس الخبر ، وأنه لمن المشاهد الجالبَة للفتن ، والمناظر المحركة للسواكن ، الباعثة للخواطر ، المهيجة للضمائر الجاذبة للفتوة .

ولى أبيات فى شيء من هذا أوردتها ، وإن كان فيها غير هذا المعنى على ما شرطنا ، منها :

يلومُ أبو العباسِ جهلاً بطبعِهِ ... كما عَيَّر الحوتُ النعامةَ بالصدَى

ومنها :

وكم صاحبٍ أكرمتُهُ غيرَ طائعٍ ... ولا مُكرَهٍ إلاّ لأمرٍ تعمُّدَا

ومـا كان ذاك البِرُّ إلاّ لغيرِهِ ... كما نَصَبُوا للطيرِ بالحبِّ مِصْيَدا

وأقول من قصيدة محتوية على ضروب من الحِكَم وفنون الآداب الطبيعية :

وسَرَّاء أحشائى لمـنْ أنا مؤثرٌ ... وسَراء أنبائى لمـن أتحبَّبُ

فقد يُشربُ الصابُ الكريهُ لعلّةٍ ... ويُتْرك صفوُ الشَّهْدِ وهو مُحبَّب

وأعْدلُ فى إجْهاد نفسىَ فى الذى ... أريدُ وإنِّى فيه أشْقَى وأَتْعب

هل اللؤلُؤ المكنونُ والدُّرُّ كُلُّه ... رأيتَ بغيرِ الغوْصِ فى البحر يُطلب

وأصرفُ نفسى عن وجوهِ طِباعِها ... إذا فى سواها صَحَّ ما أنا أرغب

كما نَسخَ اللهُ الشرائعَ قَبْلَنا بما هو أدنى للصلاحِ وأَقرب
وألقَى سَجايا كلِّ خَلقٍ بمثلها ونعتُ سجاياىَ الصحيحُ المهذّب
كما صار لونُ الماءِ لونَ إنائِهِ وفى الأصْل لونُ الماء أبيضُ مُعْجِب

ومنها :

أقمتُ ذَوِى وُدّى مُقامَ طبائعى حَياتِى بها والموتُ منهنّ يَرْهَب

ومنها :

وما أنا ممن تَطَّبيهِ بشاشةٌ ولا يقتضى ما فى ضميرى التحبُّبُ
أريدُ نِفاراً عندَ ذلك باطِناً وفى ظاهرى أهلٌ وسهلٌ ومَرْحب
فإنّى رأيتُ الحرْبَ يَعْلُو اشتعالُهَا ومبدؤُها فى أوّلِ الأمرِ مَلْعب
وللحيّةِ الرقشاءِ وَشْى ولونُها عجيبٌ وتحتَ الوشْى سُمٌّ مركّب
وكم مأكلٍ أرْبتْ عواقبُ غَيِّهِ ورُبَّ طَوًى بالخِصْبِ آتٍ ومُعْقب
وإنّ فِرِنْدَ السّيفِ أعجبُ منظراً وفيه إذا هُزَّ الحِمامُ المُذرّب
وأجعَلُ ذُلَّ النفس عِزّةَ أهلِهَا إذا هى نالتْ ما بها فيه مذْهب
فقد يضعُ الإنسانُ فى التّرْبِ وَجْهَهُ ليأتِى غداً وهو المَصونُ المقرَّب
فذُلٌّ يسوقُ العزَّ أجودُ للفتى من العزِّ يَتلوه من الذلِّ مَركب
وكم مأكلٍ أرْبتْ عواقبُ غَيِّهِ ورُبَّ طَوًى بالخِصْبِ آتٍ ومُعْقب
وما ذاقَ عِزّ النفس مَن لا يُذِلُّها ولا التذَّ طعْمَ الروحِ مَن ليس يَنصَب
ورُودُك نهل الماءِ مِن بَعْدِ ظَماْةٍ ألَذُّ مِن العَلِّ المكينِ وأعْذب

ومنها :

وفى كلِّ مَخلوقٍ تراه تَفاضُلٌ فَرِدْ طيّباً إنْ لم يُتِحْ لك أَطيبُ
ولا ترْضَ وِرْد الرَّنْقِ إلاَّ ضرورة إذا لم يكن فى الأرض حاشاه مَشرب
ولا تقربنْ مِلحَ المِياهِ فإنّها شَجىً والصدَى بالحُرِّ أولى وأوجب

ومنها :

فَخُذْ من جَرَاها ما تيسَّرَ واقتنعْ ولاتَكُ مشغولاً بمن هو يَغْلبُ
فما لكَ شرطٌ عندها لَا ولا يدٌ ولا هىَ إنْ حَصَّلتْ أمٌّ ولا أب

ومنها :

ولا تيأسنْ مما يُنال بحيلةٍ   وإنْ بَعُدَتْ فالأمرُ ينأى ويَصْعُب
ولا تأمنِ الإظلامَ فالفجرُ طالعٌ   ولا تلتبسْ بالضوْءِ فالشمسُ تَغْرب

ومنها :

أَلِحَّ فإنَّ الماء يكدحُ فى الصفا   إذا طال ما يأتى عليه ويذهب
وكثِّرْ ولا تَفْشلْ وقلِّلْ كثيرَ ما   فَعلْتَ فماءُ المزْنِ جَمٌّ وينضب
فلو يتغذَّى المرءُ بالسمِّ قاته   وقام لهُ منه غِذاءُ مُجرَّب

ثم هَجْر يوجبه التدلل ، وهو ألذ من كثير الوصال ، ولذلك لا يكون إلا عن ثقة كل واحد من المتحابين بصاحبه ، واستحكام البصيرة فى صحة عقده ، فحينئذ يُظهر المحبوب هجراناً ليرى صبر مُحبِّه ، وذلك لئلا يصفو الدهر ألبتة ، وليأسف المحبّ إن كان مفرط العشق عند ذلك ، لا لما حلّ لكن مخافة أن يترقى الأمر إلى ما هو أجل ، يكون ذلك الهجر سبباً إلى غيره ، أو خوفاً من آفة حادث ملل .

ولقد عرض لى فى الصبا هجر مع بعض من كنت آلف على هذه الصفة وهو لا يلبث أن يضمحل ثم يعود ، فلما كثر ذلك قلت على سبيل المزاح شعراً بديهياً ، ختمتُ كل بيت منه بقسم من قصيدة طرفة بن العبد المعلّقة ، وهى التى قرأناها مشروحة على أبى سعيد الفتى الجعفرى(١) ، عن أبى بكر المقرئ(٢) ، عن أبى جعفر النحاس(٣) ، رحمهم الله ، فى المسجد الجامع بقرطبة ، وهى :

تذكَّرْتُ وُدًّا للحبيبِ كأنَّه   لخوْلَةَ أطْلالٌ ببرقةَ ثَهْمَدِ
وعهدِى بعهدٍ كان لِى منهُ ثابتٍ   يلوحُ كباقِى الوشمِ فى ظاهِرِ اليد
وقفتُ به لا مُوقناً برجوعه   ولا آيساً أبكِى وأبكِى إلى الغد

---

(١) لا تمدنا المصادر بأية معلومات عن أبى سعيد الفتى الجعفرى هذا ، ولكن كلمة الفتى كانت تطلق على من يعملون فى قصر الخلافة ، وهم من الخصيان عادة ، وكلمة الجعفرى تومئ إلى أنه كان مولى الحاجب جعفر ابن عبد الرحمن .

(٢) لم أهتد له إلى ترجمة .

(٣) أبو جعفر النحاس ، أحمد بن محمد ، من أعلام النحاة بمصر فى القرن الرابع الهجرى ، غزير العلم ، واسع الرواية ، كثير التآليف ، تزيد مصنفاته فى رواية ياقوت على الخمسين ، وقد ضاع أغلبها . توفى فى ٥ من ذى الحجة عام ٣٣٨ هـ = ٢٦ من مايو ٩٤٩ هـ .

إلى أنْ أطالَ الناسُ عذْلِى وأكثروا ... يقولون : لا تهلِكْ أسىً وتجلّد
كأنَّ فنونَ السخْطِ ممــن أحِبّه ... خلايا سَفينٍ بالنواصفِ من دَدِ
كأنَّ انقلابَ الهجرِ والوصْلِ مَرْكبٌ ... يجورُ به الملاّحُ طوراً ويهتدى
فَوَقْتُ رضىً يتلوهَ وَقْتُ تسخُّطٍ ... كما قَسم التُّرْبَ المفايِلُ باليــد
ويبسم نحوى وهو غضبانُ معرضٌ ... مظاهرُ سِمْطَىْ لؤلؤ وزَبَرْجَــدِ

ثم هجر يوجبه العتاب لذنب يقع من المحب ، وهذا فيه بعض الشدة ، لكن فرحة الرجعة ، وسرور الرضى ، يعدل ما مضى ، فإن لرضى المحبوب بعد سخطه لذة فى القلب لا تعدلها لذة ، وموقعا من الروح لا يفوقه شىء من أسباب الدنيا . وهل شاهد مشاهد ، أو رأت عين ، أو قام فى فكر ، ألذُّ وأشهى من مقام قد قام عنه كل رقيب ، وبعد عنه كل بغيض ، وغاب عنه كل واش ، واجتمع فيه محبان قد تصارما لذنب وقع من المحبّ منهما وطال ذلك قليلا ، وبدأ بعض الهجر ولم يكن ثَمَّ مانع من الإطالة للحديث ، فابتدأ المحبّ فى الاعتذار والخضوع والتذلل ، والإدلاء بحجته من الإدلال والإذلال والتذمم بما سلف، فطورًا يدلى ببراءته، وطورًا يرد بالعفو ، ويستدعى المغفرة ، ويقر بالذنب ولا ذنب له ، والمحبوب فى كل ذلك ناظر إلى الأرض ، يسارقه اللحظ الخفى ، وربما أدامه فيه ، ثم يبسم مخفياً لتبسمه ، وذلك علامة الرضى . ثم ينجلى مجلسهما عن قبول العذر ، ويقبل القول ، وامتحت ذنوب النقل ، وذهبت آثار السخط ، ووقع الجواب بنعم وذنبك مغفور ، ولو كان فكيف ولا ذنب ، وختما أمرهما بالوصل الممكن ، وسقوط العتاب والإسعاد ، وتفرقا على هذا .

هذا مكان تتقاصر دونه الصفات ، وتتلكن بتحديده الألسنة ؛ ولقد وطئت بساط الخلفاء ، وشاهدت محاضر الملوك ، فما رأيت هيبة تعدل هيبة محب لمحبوبه ، ورأيت تمكن المتغلبين على الرؤساء ، وتحكم الوزراء ، وانبساط مدبرى الدوَل ، فما رأيت أشد تبجحاً ، ولا أعظم سروراً بما هو فيه مِن مُحِبٍّ أيقن أن قلب محبوبه عنده ، ووثق بميله إليه ، وصحة مودته له .

وحضرت مقام المعتذرين بين أيدى السلاطين ، ومواقف المتهمين بعظيم الذنوب مع المتمردين الطاغين ، فما رأيت أذل من موقف محب هيمان بين يدى محبوب

غضبان، قد غمره السخط وغلب عليه الجفاء . ولقد امتحنت الأمرين ، وكنت فى الحالة الأولى أشد من الحديد وأنفذ من السيف ، لا أجيب إلى الدنيّة ، ولا أساعد على الخضوع ، وفى الثانية أذل من الرداء ، وألين من القطن ، أبادر إلى أقصى غايات التذلل لو نفع ، وأغتنم فرصة الخضوع لو نجع ، وأتحلل بلسانى ، وأغوص على دقائق المعانى ببيانى ، وأفنّن القول فنونا ، وأتصدّى لكل ما يوجب الترضّى .

والتجنّى بعض عوارض الهجران ، وهو يقع فى أول الحب وآخره ، فهو فى أوله علامة لصحة المحبة ، وفى آخره علامة لفتورها وباب للسلو.

* خبر :

وأذكر فى مثل هذا أنّى كنت مجتازاً فى بعض الأيام بقرطبة ، فى مقبرة باب عامر ، فى لمة من الطلاب وأصحاب الحديث ، ونحن نريد مجلس الشيخ أبى القاسم عبد الرحمن بن أبى يزيد المصرى(٤) بالرصافة ، أستاذى رضى الله عنه ، ومعنا أبو بكر عبد الرحمن بن سليمان البلوى(٥)من أهل سبتة (٦). وكان شاعراً مفلقاً ، وهو ينشد لنفسه فى صفة متجن معهود أبياتاً له ، منها :

(٤) أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن أبى يزيد الأزدى ، مصرى الأصل والنشأة ، قدم قرطبة تاجراً عام ٣٩٤ هـ = ١٠٠٣ م ، وفيها أقام يتاجر فى الأصواف ، ويضطلع بالتدريس ، وكان واسع الثقافة فى اللغة والأدب والأنساب والأشعار ، فعظمت حلقته واتسعت ، وتكاثر عليه الطلاب ، وكان ابن حزم أحد طلابه ، وهو هنا يدعوه أستاذى ، وترك قرطبة عائداً إلى مصر عام الفتنة ، عندما اقتحم البرابر عاصمة الخلافة . وفى مصر توفى عام ٤١٠ هـ = ١٠١٩ م . انظر :

* ابن بشكوال ، الصلة ، الترجمة رقم ٧٥٨ . * ابن الابار : تكملة الصلة ، ص ١٢٥

* Asin Palacios : Abenhazam, Vol. I, p. 102

(٥) أديب شاعر ، وخصه الضبى بترجمة قصيرة . لبست بذات أهمية . انظر :

* الضبى : بغية الملتمس ، الترجمة رقم ١٠١٤ . * الحميدى : جذوة المقتبس، الترجمة ٥٩٨ .

(٦) سبتة Ceuta ، مدينة أندلسية عامرة على شاطئ البحر الأبيض المتوسط من عدوة المغرب ، فى مواجهه الجزيرة الخضراء ، وخلال دولة الإسلام فى الأندلس كانت تكون جزءاً منه تارة ، ومن المغرب تارة أخرى . وقد استولى عليها البرتغاليون عام ١٤١٥ م ، أى قبل سقوط دولة الإسلام فى الأندلس بثلاثة أرباع القرن ، وآل أمرها إلى إسبانيا عام ١٦٤٠ م .

وكانت فى عصرها الإسلامى مزدهرة ثقافياً ، تزخر بالأدباء والعلماء والصلحاء ، وبالمساجد والمدارس ، وألف عدد من المؤرخين كتباً ورسائل فى تاريخها ، على رأسهم القاضى عياض فله كتاب : « الفنون الستة فى أخبار سبتة » . وإليها ينسب سيدى عبد الرحيم القنائى ، صاحب المزار الشهير فى مدينة قنا بأعلى مصر .

ولقد اندثر ذلك كله الآن ، استعجم لسانها ، وعفت رسومها الإسلامية ، وأصبح سكانها البالغ عددهم ٧٦ ألفاً كلهم من الإسبان . ويرجى لها مع تحرر المغرب ، وبقظة المسلمين أن تعود فى القريب العاجل إلى الوطن الأم .

سريعٌ إلى ظهرِ الطريـقِ وإنّـــهِ ... إلى نَقْضِ أسبابِ المودَّةِ يُسْرِع
يطــولُ علينــا أن نرقِّــع ودَّهُ ... إذا كان فى ترقيعِــهِ يَتَقطَّع

فوافق إنشاد البيت الأول من هذين البيتين خطور أبى علىّ الحسين بن على الفاسى رحمه الله تعالى[7]؛ وهو يؤم أيضاً مجلس ابن أبى يزيد ، فسمعه فتبسّم رحمه الله نحونا ، وطوانا ماشياً وهو يقول : بل إلى عقد المودة إن شاء الله فهو أولى ، هذا على جِدِّ أبى علىّ الحسين رحمه الله وفضله ، وتقربه وبراءته ، ونسكه وزهده وعلمه . فقلت فى ذلك :

دعْ عنكَ نقضَ مودَّتى متعمِّــداً ... واعقدْ حبـالَ وصالِنَا يا ظالمُ
ولترجعنَّ أردْتَهُ أو لم تـــرد ... كَرْهاً لِمَا قال الفقيـــهُ العالم

ويقع فيه الهجر والعتاب . ولعمرى إن فيه إذا كان قليلا للذة ، وأما إذا تفاقم فهو فأل غير محمود ، وأمارة وبيئة المصدر ، وعلامة سوء ، وهى بجملة الأمر مطية الهجران ، ورائد الصريمة ، ونتيجة التجنى ، وعنوان الثقل ، ورسول الانفصال ، وداعية القلى ، ومقدمة الصد ، وإنما يستحسن إذا لطف وكان أصله الإشفاق .
وفى ذلك أقول :

لعلّك بَعْدَ عُتْبك أنْ تجـودا ... بما منهُ عَتَبْتَ وأنْ تَزيدا
فكم يـوم رأينَا فيـــه صحْـوًا ... وأَسْمَعنـا بِآخـــرِهِ الرعـــودا
وعاد الصحْوُ بعـدُ كما علمنا ... وأنتَ كذاكَ نرجو أن تعودا

وكان سبب قولى هذه الأبيات عتاب وقع فى يوم هذه صفته من أيام الربيع ، فقلتها فى ذلك الوقت ، وكان لى فى بعض الزمن صديقان ، وكانا أخوين ، فغابا فى سفر ثم قدما ، وقد أصابنى رَمَد فتأخرا عن عيادتى ، فكتبتُ إليهما ، والمخاطبة للأكبر منهما ، شعراً منه :

---

(٧) صححته « أبى على الحسين » بدلا من « أبى الحسين » ، وذكر ابن بشكوال فى الصلة أن اسمه الحسن ، وأجمع كلاهما على أنه يكنى أبا على . وأورد له حواراً مع ابن حزم ، وقد وصفه بقوله : « ناهيك به سروا ودينا وعقلا وعلماً وورعا وتهذيباً وحسن خلق » . انظر :
- ابن القاضى : جذوة الاقتباس، جـ١ ، ص١٧٨ .
- ابن بشكوال : الصلة ، الترجمة رقم ٣٢٠ .
- الحميدى : الجذوة، الترجمة ٣٧٣ .
- الضبى : البغية ، الترجمة رقم ٦٤٨ .
- الباب التاسع والعشرون ، الهامش رقم ٨ من هذا الكتاب .

وكنتُ أعَـدِّد أيضـاً عَلَى أخيكَ بمُوْلِـــةِ السَّامعِ
ولكنْ إذا الدَّجْنُ غَطّى ذُكا ء فمـا الظنُّ بالقمرِ الطالع

ثم هجر يُوجبه الوُشاة ، وقد تقدم القول فيهم ، وفيما يتولّد من دبيب عقاربهم ، وُربما كان سبباً للمقاطعة البتة .

ثم هجر الملل . والملل من الأخلاق المطبوعة فى الإنسان ، وأحرى لمن دُهى به ألاّ يصفو له صديق ، ولا يصح له إخاء ، ولا يثبت على عهد ، ولا يصبر على إلْف ، ولا تطولُ مُساعدته لمحبّ ، ولا يعتقد منه ودّ ولا بغض . وأولى الأمور بالناس ألا يعدّوه منهم ، وأن يفرّوا عن صحبته ولقائه ، فلن يظفروا منه بطائل . ولذلك أبعدنا هذه الصفة عن المحبين وجعلناها فى المحبوبين ، فهم بالجملة أهل التجنّى والتظنّى ، والتعرض للمقاطعة . وأما من تزيّا باسم الحُب وهو ملول فليس منهم ، وحقه ألا يتجرع مذاقه ، ويُنْفَى عن أهل هذه الصفة ، ولا يدخل فى جملتهم .

وما رأيت قط هذه الصفة أشدّ تغلباً منها على أبى عامر محمد بن عامر(٨) رحمه الله ، فلو وصف لى واصف بعضَ ماعلمته منه لما صدقته .

وأهل هذا الطبع أسرع الخلق محبة ، وأقلهم صبراً على المحبوب وعلى المكروه والصدّ ، وانقلابهم على الودّ على قدر تسرعهم إليه ، فلا تثق بملول ، ولا تشغل به نفسك ، ولاتعنها بالرجاء فى وفائه . فإن دُفِعْتَ إلى محبته ضرورةً فعدّه ابن ساعته ، واستأنفه كل حين من أحيانه بحسب ماتراه من تلوّنه ، وقابله بما يشاكله . ولقد كان أبو عامر المحدَّثُ عنه يرى الجارية فلا يصبر عنها ، ويحيق به من الاغتمام والهم ما يكاد أن يأتى عليه حتى يملكها ، ولو حال دون ذلك شوك القتاد ، فإذا أيقن بتصيُّرها إليه عادت المحبة نفاراً ، وذلك الأنس شروداً ، والقلق إليها قلقاً منها ، ونزاعه نحوها نزاعاً عنها ، فيبيعها بأوكس الأثمان .

---

(٨) يرد على الخاطر للوهلة الأولى أنه المنصور بن أبى عامر ، ولكن ذلك مستحيل ، لأن المنصور توفى وعمر بن حزم ثمانى سنوات ، وفى سن كهذه يستحيل أن يقص عليه الحكايات التى سوف يوردها ابن حزم فى آخر الباب نقلا عنه ، وأرجح على سبيل اليقين أنه ابن لعبد الملك المظفر ، أى أنه حفيد المنصور بن أبى عامر ، وكان يحمل اسم جده . انظر :

- الباب الثانى ، الهامش رقم ٤ .
- والباب الرابع ، الهامش رقم واحد .
- والباب ٢٩ ، الهامش رقم ١٨

هذا كان دأبه حتى أتلف فيما ذكرنا من عشرات ألوف الدنانير عدداً عظيماً ، وكان رحمه الله مع هذا من أهل الأدب والحذق والذكاء والنبل والحلاوة والتوقّد ، مع الشرف العظيم ، والمنصب الفخم ، والجاه العريض .

وأمّا حسن وجهه ، وكمال صُورته ، فشيء تقف الحدود عنه . وتكِل الأوهام عن وصف أقله ، ولا يتعاطى أحد وصفه .

ولقد كانت الشوارع تخلو من السيَّارة ، ويتعمدون الخطور على باب داره ، فى الشارع الآخذ من النهر الصغير ، على باب دارنا فى الجانب الشرقى بقُرطبة ، إلى الدرب المتصل بقصر الزاهرة ، وفى هذا الدرب كانت داره رحمه الله ملاصقة لنا ، لا لشيء إلا للنظر منه . ولقد مات من محبّته جوارٍ كنّ علّقْن أوهامهن به ، ورثين له ، فخانهن مما أمّلْنه منه ، فصرن رهائن البِلىَ ، وقتلتهنّ الوحدة[٩]

وأنا أعرف جارية منهن كانت تسمى عفراء ، عهدى بها لا تتستر بمحبته حيثما جلست ، ولا تجف دموعها . وكانت قد تصيرت من داره إلى أبى البركات الخيالى صاحب البنيان[١٠] ولقد كان رحمه الله يُخبرنى عن نفسه أنه يمل اسمه ، فضلاً عن غير ذلك .

وأماً إخوانه فإنّه تبدّل بهم فى عُمره على قِصره مراراً ، وكان لايثبُت على زى واحد كأبى بَراقش ، حيناً يكون فى ملابس المُلوك ، وحيناً فى ملابس الفتّاك .

فيجب على من امتحن بمخالطة من هذه صفته ، على أى وجه كان ، ألا يستفرغ عامة جُهده فى محبته ، وأن يُقيم اليأس من دوامه خصماً لنفسه ، فإذا لاحت له مخايل الملل قاطعه أياماً حتى ينشط باله ، ويبعد به عنه ، ثم يُعاوده ، فربما دامت المودّة مع هذا .

---

(٩) تقدم لنا هذه الفقرة معلومات جيدة ومفصلة عن بعض ألوان الحياة العامة فى قرطبة ، وعن سكن ابن حزم وداره بخاصة .

(١٠) جاء هذا النص فى المخطوطة وفى الطبعات العربية على النحو التالى : « إلى البركات الخيال صاحب الفتيان » . وصححه ليفى بروفنسال إلى : « إلى أبى البركات الخيالى صاحب البنيان » . فقد كان فى قصر الخلافة إدارة يطلق على صاحبها اسم : « صاحب البنيان » ، ولم تكن هناك خطة يطلق على القائم بها « صاحب الفتيان » . وكلمة « الخيالى » تشير إلى أنه كان مولى للسيدة خيال ، زوجة المظفر ، أكبر أبناء المنصور بن أبى عامر ، فنسب إليها . وقد تزوجت السيدة خيال ، بعد موت المظفر من القاسم بن حمود ، أحد مؤسسى دولة الحموديين ، وأمير قرطبة لسنوات . وقد أخذنا بتصحيح ليفى بروفنسال . انظر :

- ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ٣ ص ١٣٣ .
- الباب الثانى ، الهامش رقم ٤ .

وفى ذلك أقول :

لا تَرجُوَنَّ ملـــولاً ليس الملـــول بعُـــدَّةْ
وُدُّ المــلولِ فدَعْهُ عاريَةٌ مســـتردَّةْ

ومن الهجر ضَرب يكون متولّيه المحبّ ، وذلك عندما يرى من جفاء محبوبه والميل عنه إلى غيره ، أو لثقيل يلازمه ، فيرى الموت ويتجرّع غُصص الأسى ، والعض على نقيف الحنظل أهون من رؤية مايكره ، فينقطع وكبده تتقطّع .

وفى ذلك أقول :

هجرتُ من أهــواهُ لا عن قـلًى ... يا عجبــاً للعــاشقِ الهــاجِرِ
لكنَّ عينِي لم تُطِــقْ نظــرةً ... إلى مُحيَّــا الرَّشــأ الغــادر
فالموتُ أحلى مَطْعمــاً من هَوىً ... يُبــاحُ للــواردِ والصــادِرِ
وفى الفــؤادِ النــارُ مَــذْكيَّــةٌ ... فاعجبْ لصَبٍّ جَزِعٍ صــابرِ
وقــد أبــاحَ اللهُ فى دِينِـــه ... تقيَّـــةَ المــأســورِ للآسر
وقــد أحــلَّ الكفرَ خوفَ الردى ... حتى ترى المــؤمنَ كــالكـافر

* خبر :

ومن عجيب ما يكون فيها وشنيعه ، أنى أعرف مَن هام قلبه بمتناء عنه ، نافر منه ، فقاسى الوجد زمناً طويلا ، ثم سَنحت له الأيام بسانحة عجيبة من الوصل ، أشرف بها على بلوغ أمله ، فحين لم يكن بينه وبين غاية رجائه إلا كهؤلاء ، عاد الهجر والبعد إلى أكثر ماكان قبل .

فقلت فى ذلك :

كانتْ إلى دهـرىَ لِى حاجــةٌ ... مقرونــةٌ فى البعـدِ بالمُشترى
فســـاقها باللطف حتى إذا ... كانتْ من القُـربِ عـلى مَخْجرِ
أبْعـدهــا عنِّى فعــادتْ كـأنْ ... لم تَبْــدُ للعيــنِ ولم تظهر

وقلت :

دنــا أملِى حتى مَــدَدْتُ لأَخْـــذِهِ ... يَــداً فانثنَى نحــوَ المجرَّةِ راحــلاَ
فأصبحتُ لا أرجـو وقــد كنتُ موقنــاً ... وأُضحِي مَعَ الشِّعْرَى وقد كان حاصِلا

وقد كنتُ محسوداً فأصبحتُ حاسداً　　وقد كنتُ مأمولاً فأصبحتُ آمـلا
كـذا الـدهرُ فى كرَّاتـه وانتقالِـهِ　　فلا يأمَنَنَّ الـدهرَ من كان عاقـلا

ثم هَجْر القلى ، وهنا ضلَّت الأساطير ، ونفدت الحيل ، وعظم البلاء ، وهو الذى خلَّى العقول ذواهل ، فمن دُهى بهذه الداهية فليتصد لمحبوب محبوبه ، وليتعمّد ما يعرف أنه يستحسنه ، ويجب أن يجتنب ما يدرى أنه يكرهه ، فربما عطفه ذلك عليه ، إنْ كان المحبوب ممن يدرى قدر المُوافقة والرغبة فيه ، وأمّا من لم يعلم قدر هذا فلا طمع فى استصرافه ، بل حسناتك عنده ذنوب ، فإن لم يقدر المرء على استصرافه فليتعمد السُّلوان ، وليحاسب نفسه بما هو فيه من البلاء والحرمان ، ويسعى فى نيل رغبته على أى وجه أمكنه .

ولقد رأيت من هذه صفته ، وفى ذلك أقول قطعة أولها :

دُهيتُ بمن لـو أدفـعُ المـوتَ دونَـهُ　　لقــالَ إذاً ياليتنِى فى المقــابرِ

ومنها :

ولا ذنبَ لى إذ صرْتُ أحْـدو ركائبِى　　إلى الوِرْدِ والدُّنيا تُسىء مَصادرى
وماذا على الشمس المُنـيرةِ بالضُّحى　　إذا قَصَّرتْ عنها ضِعـافُ البصـائر

وأقول :

ما أقبحَ الهجرَ بَعْـدَ وَصْـلٍ　　وأحسنَ الوصـلَ بعـد هَجْرِ
كالوفْرِ تحويـه بعـد فَقْرٍ　　والفقْرِ يأتيـكَ بَعْـدَ وَفْـرِ

وأقول :

معهود أخـلاقِـك قسمـانِ　　والدهرُ فيـك اليوم صِنْفانِ
فإنَّك النعمانُ فيما مَضَى　　وكانَ للنعمانِ يومـانِ
يومُ نعيمٍ فيه سعْدُ الورى　　ويومُ بأساء وعُـدْوان
فيومُ نعماكَ لغيرى ويو　　مى منكَ ذو بُؤسٍ وهِجران
أليس حيْـنٌ لك مُسْتاً هِلاً　　لأن تُجـازيهِ بإحسانِ

وأقول قطعة منها :

يامن جميعُ الحُسْن مُنتظمٌ　　فيه كنْظم الدرِّ فى العِقْد
ما بال حَتْنِى منك يطْرقُنى　　قَصْدا ووجْهُكَ طالعُ السَّعد

وأقول قصيدة أولها :

أساعةُ تَوْدِيعِيك أمْ ساعةُ الحَشْرِ ‌ ‌ ‌ ‌ وليلةُ بَيْنِي منك أمْ ليلةُ النشْرِ
وهجرُك تعْذيبُ الموحِّد ينقضِي ‌ ‌ ‌ ‌ ويرجو التلاقِى أمْ عذابُ ذوِى الكُفْرِ

ومنها :

سقى اللهُ أياماً مضتْ ولياليــاً ‌ ‌ ‌ ‌ تحاكى لنا النّيلُوفرَ الغضَّ فى النشْرِ
فأوراقهُ الأيامُ حُسناً وبهجةً ‌ ‌ ‌ ‌ وأوْسَطُه الليلُ المُقصِّرُ للعُمر
لهونا بها فى غمرةٍ وتآلفٍ ‌ ‌ ‌ ‌ تَمُرُّ فلا تدْرى وتأتى فلا ندرى
فأعْقبنَا منهُ زمانٌ كـــأنّه ‌ ‌ ‌ ‌ ولاشكَ حُسْنُ العَقْدِ أُعْقِبَ بالغدر

ومنها :

فلا تيأسِى يانفْس علَّ زمانَنَا ‌ ‌ ‌ ‌ يعُودْ بوجهٍ مُقبلٍ غيرُ مُدْبرِ
كما صَرفَ الرحمنُ مُلكَ أميّةٍ ‌ ‌ ‌ ‌ إليهم ولُوذى بالتجمُّل والصبر

وفى هذه القصيدة أمدح أبا بكر هشام بن محمد ، أخا أمير المؤمنين عبدالرحمن المرتضى[١١] رحمه الله ، فأقول :

أليسَ يُحيط الرُّوح فينا بكل ما ‌ ‌ ‌ ‌ دنَا وتناءى وهو فى حُجبِ الصدْر
كذا الدهرُ جِسمٌ وهو فى الدّهرِ رُوحُه ‌ ‌ ‌ ‌ مُحيطٌ بما فيه وإن شِئْتَ فاسْتقر

ومنها :

إتاوتُها تُهْدَى إليه ومنّــــةٌ ‌ ‌ ‌ ‌ تقبُّلُهاَ منهُمْ يقاومُ بالشُّكر
كذا كلُّ نَهْر فى البلاد وإن طمت ‌ ‌ ‌ ‌ غزارتُه ينصبُّ فى لُجَجِ البَحْر

---

(١١) عبد الرحمن المرتضى ، أول أموى ثار على حنجابة بنى عامر وطالب بالخلافة ، ومعه ناضل ابن حزم من أجل أن تكون لهم ، وقد هزم المرتضى فى غرناطة على يد زاوى بن زيرى .

أما أبو بكر هشام بن محمد الذى يهديه ابن حزم قصيدته ، فكان الأخ الأكبر لعبد الرحمن المرتضى ، وهو آخر خليفة أموى فى قرطبة ، ولد ٣٦٤ هـ = ٩٧٤ م ، وبويع بالخلافة فى ٤١٨ هـ = ١٠٢٧ م ، ودخل قرطبة فى ٤٢٠ هـ = ١٠٢٩ م ، وأزيح عن الخلافة فى ٤٢٢ هـ = ١٠٣١ م ، ليموت مغموراً فى لاردة Lérida ، مدينة أندلسية فى الشمال الشرقى ، بعد ذلك بخمسة أعوام . انظر :

- المقرى : نفح الطيب ، جـ ١ ص ٤١١ وما بعدها .
- ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ٣ ص ١٤٥ .
- الباب السابع ، الهامش رقم ٦ .

٢٢
باب الوفاء

ومن حميد الغرائز ، وكريم الشيم ، وفاضل الأخلاق فى الحُب وغيره الوفاء وإنه لمن أقوى الدلائل ، وأوضح البراهين ، على طيب الأصل ، وشَرف العنصر . وهو يتفاضل بالتفاضل اللازم للمخلوقات .

وفى ذلك أقول قطعة منها :

أفعالُ كلِّ امرئٍ تُنْبى بعُنصره ‌ ‌ ‌ ‌ والعينُ تُغنيكَ عن أنْ تطلب الأثَرا

ومنها :

وهل ترى قطُّ دِفْلى أنبتت عنبا ‌ ‌ ‌ ‌ أو تذْخَرُ النحلُ فى أوكارها الصبِرَا

وأول مراتب الوفاء أن يفى الإنسان لمن يفى له ، وهذا فرض لازم ، وحق واجب ، على المُحب والمحبوب ، لايحول عنه إلاّ خبيث المحتد ، لاخلاق له ، ولا خير عنده .

ولولا أن رسالتنا هذه لم نقصد بها الكلام فى أخلاق الإنسان وصفاته المطبوعة والتطبُّع بها ، وما يزيد من المطبوع بالتطبع ، وما يضمحل من التطبع بعدم الطبع ، لزدْتُ فى هذا المكان مايجب أن يوضع فى مثله . ولكنّا إنّما قصْدُنا التكلُّم فيما رغبتُه من أمر الحب فقط ، وهذا أمر كان يطول جدًّا ، إذ الكلام فيه يتفنن كثيراً .

* خبر :

ومن أرفع ماشاهدته من الوفاء فى هذا المعنى ، وأهوله شأناً ، قصة رأيتها عياناً ، وهو أنى أعرفُ مَنْ رضى بقطيعة محبوبه ، وأعز الناس عليه ، ومَنْ كان الموت عنده أحلى مِن هجر ساعة فى جَنب طيّه لسر أُودعه ، والتزم محبوبه يميناً غليظة ألا يكلمه أبداً ، ولا يكون بينهما خبر أو يفضح إليه ذلك السر . على أن صاحب ذلك السر كان غائباً فأبى من ذلك ، وتمادى هو على كتمانه ، والثانى على هجرانه ، إلى أن فرقت بينهما الأيام .

ثم مرتبة ثانية ، وهو الوفاء لمن غدر ، وهى للمُحبّ دون المحبوب . وليس للمحبوب هاهنا طريق ولا يلزمه ذلك ، وهى خُطّة لايُطيقها إلا جلد قوىّ واسع الصدر ، حر النفس ، عظيم الحِلمْ ، جليل الصبر ، حَصيف العقل ، ماجد الخلق . سالم النية .

ومن قابل الغدر بمثله فليس بمُستأهل للملامة ، ولكن الحال التى قدمنا تفوقها جدًّا ، وتفوتها بعداً . وغاية الوفاء فى هذه الحال تَرْكُ مكافأة الأذى بمثله ، والكف عن سيئ المعارضة بالفعل والقول ، والتأنىٌ فى جز حَبل الصحبة ما أمكن ، ورُجيت الألفة ، وطُمع فى الرجعة ، ولا حت للعودة أدنى مخيلة ، وشيمت منها أقل بارقة ، أو توجس منها أيسر علامة .

فإذا وقع اليأس ، واستحكم الغيظ حينئذ ، والسلامة مِن غُرّك . والأمن مِن ضرّك ، والنجاة من أذاك . وأن يكون ذكر ماسلف مانعاً من شفاء الغيظ فيما وقع ، فرَعْىُ الأذمّة حق وَكِيدُ ، على أهل العقول . والحنينُ إلى مامضى . وألاّ ينسى ما قد فرغ منه ، وفنيت مدته ، أثبتُ الدلائل على صحة الوفاء . وهذه الصفة حسنة جداً . وواجب استعمالها فى كل وجه من وجوه معاملات الناس فيما بينهم ، على أى حال كانت .

* خبر :

ولعهدى برجل من صَفوة إخوانى قد عَلق بجارية فتأكد الود بينهما ثم غدرت بعهده ، ونقَضتْ وُده ، وشاع خبرهما ، فوَجد لذلك وجداً شديدا .

* خبر :

وكان لى مرة صديق ففسدت نيّته بعد وكيد مودّة لا يُكفر بمثلها ، وكان عَلِمَ كل واحد منا سرّ صاحبه ، وسقطت المئونة ، فلما تغيّر علىّ أفشى كل ما اطلع لى عليه مما كنتُ اطلعتُ منه على أضعافه ، ثم اتصل به أن قوله فىّ قد بلغنى ، فجزع لذلك ، وخشى أن أقارضه على قبيح فعلته . وبلغنى ذلك فكتبت إليه شعراً أؤنسه فيه ، وأعلمه أنى لا أقارضه .

* خبر :

ومما يدخل فى هذا الدّرج ، وإن كان ليس منه ، ولا هذا الفصل المتقدم من جنس الرسالة والباب ، ولكنه شبيه له على ماقد ذكرنا وشرطنا ، وذلك أن محمد بن

وليد بن مكسير[١] الكاتب كان مُتصّلا بى ، ومنقطعاً إلىّ أيام وزارة أبى رحمة الله عليه ، فلما وقع بقرطبة ماوقع[٢] ، وتغيرت أحوال ، خرج إلى بعض النواحي فاتصل بصاحبها ، فعرض جاهُه ، وحدثت له وجَاهة وحالِ حسنة . فحللتُ أنا تلك الناحية فى بعض رحلتى ، فلم يوَفّنى حتى بل ثقل عليه مكانى ، وأساء معاملتى وصُحبتى ، وكلفته فى خلال ذلك حاجة لم يقم فيها ولا قَعد ، واشتغل عنها بما ليس فى مثله شغل ، فكتبت إليه شعراً أعاتبه فيه ، فجاوبنى مستعتباً على ذلك ، فما كلفته حاجة بعدها .

وبما لى فى هذا المعنى وليس من جنس الباب ولكنه يشبهه أبيات قلتها ، منها :

وليس يُحمدُ كِتمانٌ لمُكتتمٍ ... لكنَّ كَتْمكَ ما أفشاهُ مُفشيهِ

كالجُودِ بالوفْرِ أسنى مايكون إذاً ... قلَّ الوجودُ له أوضنَّ مُعطيه

ثم مرتبة ثالثة ، وهى الوفاء مع اليأس الباتّ ، وبعد حلول المنايا ، وفجاءات المنون . وإن الوفاء فى هذه الحالة لأجلّ وأحسن منه فى الحياة ومع رجاء اللقاء .

* خبر :

ولقد حدّثتنى امرأة أثق بها ، أنها رأت فى دار محمد بن أحمد بن وهب المعروف بابن الركيزة ، من ولد بدر الداخل مع الإمام عبد الرحمن بن معاوية رضى الله عنه ،[٣] جارية رائعة جميلة ، كان لها مولى فجاءته المنية فبيعت فى تركته ، فأبت أن ترضى بالرجال بعده ، وما جامعها رجل إلى أن لقيت الله عز وجل . وكانت تحسن الغناء فأنكرت علمها به ، ورضيت بالخدمة ، والخروج عن جملة المتخذات للنسل واللذة والحال الحسنة ، وفاء منها لمن قد دَثُر ووارته الأرض ، والتأمت عليه الصفائح ، ولقد رامها سيدها المذكور أن يضمها إلى فراشه مع سائر جواريه ، ويخرجها مما هى فيه فأبت ، فضربها غير مرة وأوقع بها الأدب ، فصبرت على ذلك كله ، فأقامت على

---

(١) لم أهتد إلى شخصية محمد بن وليد بن مكسير هذا ، ولعل لفظ « مكسير » محرّف .

(٢) يشير إلى اقتحام البربر مدينة قرطبة ، وانتهابهم لها عام ٤٠٣ هـ = ١٠١٣ م .

(٣) بدر ، خادم عبد الرحمن الداخل ومولاه ، ورفيقه فى رحلته المضنية إلى شمال أفريقية تلاحقه سيوف بنى العباس ، ورسوله إلى أهل الأندلس بعد أن استقر به المقام لاجئاً فى رحاب أخواله من البربر ، وظل إلى جواره بعد أن انتصر ، وأقبلت عليه الدنيا ، وأصبح أول أمير أموى فى قرطبة .

أما محمد بن وهب المعروف بابن الركيزة فلم أعثر له على ترجمة .

امتناعها ، وإن هذا من الوفاء غريب جداً .

واعلم أن الوفاء على المحبّ أوجب منه على المحبوب ، وشرطه له ألزم ، لأن المحبّ هو البادى باللصوق والتعريض لعقد الأذمة ، والقاصد لتأكيد المودة ، والمستدعى صحة العشرة ، والأول فى عدد طلاب الأصفياء ، والسابق فى ابتغاء اللذة باكتساب الخلة ، والمقيد نفسه بزمام المحبة قد عقلها بأوثق عقال ، وخطمها بأشد خطام ، فمن قسره على هذا كله إنْ لم يرد إتمامه ؟ ومن أجبره على استجلاب المقة إن لم يَنْو خَتمها بالوفاء لمن أراده عليها ، والمحبوب إنما هو مجلوب إليه ، ومقصود نحوه ، ومخيّر فى القبول أو الترك ، فإن قبل فغاية الرجاء ، وإن أبى فغير مستحق للذم . وليس التعرض للوصل والإلحاح فيه ، والتأنى لكل مايُستجلب به من الموافقة ، وتصفية الحضرة والمغيب من الوفاء فى شيء ، فحظ نفسه أراد الطالب ، وفى سروره سعَى وله احتطب ، والحب يدعوه ويَحْدوه على ذلك ، شاء أو أَبى ، وإنما يَحمد الوفاء ممن يقدر على تركه .

وللوفاء شروط على المُحبين لازمة :

فأولها أن يحفظ عهدَ محبوبه ، ويرعى غيبته ، وتستوى علانيته وسريرته . ويطوى شره ، وينشر خيره ، ويغطى على عيوبه ، ويحسّن أفعاله ، ويتغافل عما يقع منه على سبيل الهفوة ، ويرضى بماحمله ولايكثر عليه بما ينفر منه ، وألا يكون طُلَعَة ثؤوباً ، ولا مَلّة طَروفاً .

وعلى المحبوب إن ساواه فى المحبة مثل ذلك ، وإن كان دونه فيها فليس للمحب أن يكلفه الصعود إلى مرتبته ، ولا له الا ستشاطة عليه بأن يسومه الاستواء معه فى درجته . وبحسبه منه حينئذ كتمان خبره ، وألا يقابله بما يكره ، ولا يخيفه به .

وإن كانت الثالثة وهى السلامة مما يلق بالجملة فليقنع بما وجد ، وليأخذ من الأمر ما استدف ، ولا يطلب شرطاً ، ولايقترح حقاً ، وإنما له ماسنح بجده ، أوماحان بكده ، واعلم أنه لايستبين قبح الفعل لأهله ، ولذلك يتضاعف قبحه عند من ليس من ذويه ولا أقول قولى هذا مُمتدحاً ، ولكن آخذاً بأدب الله عز وجل « وأمَّا بِنعْمةِ رَبِّكَ فحَدِّثْ »[٤] .

(٤) سورة الضحى ، الآية ١١ .

لقد مَنحنى الله عز وجل من الوفاء لكُلّ من يَمُت إلىّ بِلُقْيَةٍ واحدة،ووهبنى من المحافظة لمن يتذمم منى ولو بمحادثته ســـاعة حظًّا ، أنا له شاكر وحامد ، ومنه مُستمِدّ ومُستزيد .

وما شىء أثقل علىّ من الغدر ، ولعمرى ماسمحت نفسى قط فى الفكرة فى إضرار مَن بينى وبينه أقل ذمام ، وإنْ عظمت جريرته ، وكثرت إلىّ ذنوبه ، وَلقد دَهمنى من هذا غيرُ قليل فما جزيت على السُّوءى إلاّ بالحسنى . والحمدلله على ذلك كثيراً .

وبالوفاء أفتخر فى كلمة طويلة ، ذكرت فيها مامضّنا من النكبات . ودهمنا من الحل وَالترحال والتحول فى الآفاق ، أولها :

وَلّى فوَلّىجميـــلُ الصبر يَتبعُـــهُ وصَرَّحَ الدمعُ ماتُخفيه أَضْلُعُهُ
جِسْمُمَلـولٌ وَقَلبٌ آلــفٌ فـإذا حلّ الفراقُ عليه فهو مُوجعُهُ
لمتستقــرَّ بــــه دارٌ ولا وطــنٌ ولا تَدَفَّأَ منه قطُ مَضْجعُهُ
كأنَّما صيغَ مِن رهْوِالسحاب فما تَزال ريحٌ إلى الآفاقِ تدفَعُهُ
كأنّما هو توحيدُ تضـــيق به نفسُ الكفورِ فتأبىَ حين تُودَعُهُ
أوكوكبٌ قاطعٌ فى الأفقِ منتقلٌ فالسيرُ يُغرِبُهُ حيناً ويُطلعُهُ

. . . .

أظنُّـــهُ لوجَزَتْــــهُ أو تُساعِـــدُه أَلقتْ عليه انهمالَ الدمعِ يَتْبعُهُ (٥)

بالوفاء أيضاً أفتخر فى قصيدة لى طويلة أوردتها ، وإن كان أكثرها ليس من جنس الكتاب ، فكان سبب قولى لها أن قوماً من مخالفى شرقوا بى ، فأساءوا العتب فى وجهى ، وقذفونى بأنى أعضّد الباطل بحجتى ، عجزاً منهم عن مُقاومة ماأوردته من نصر الحق وأهله ، وحسداً لى ، فقلت ، وخاطبت بقصيدتى بعض إخوانى ، وكان ذا فهم ، منها :

وخُذْنِى عصا موسى وهاتِ جميعَهُمْ ولو أَنَّهُمْ حيَّاتُ ضالٍ نَضانِضُ

---

(٥) يرى غرسية غومث ، وبحق ، أن هنـــاك فجوة بين فكرة البيت الأخير ، والبيت السابق له ، مما يقطع بأن الناسخ حذف أبياتاً بينهما ذهبت بتكامل المعنى ، وجعلت معنى البيت الأخير غامضاً . ولهذا آثرت ان أشير إلى الحذف بسطر من النقط .

ومنها :

يُريغونَ فى عينى عجائبَ جَمَّةً   وقد يُتمنَّى الليثُ والليثُ رابِض

ومنها :

ويَرْجونَ مالا يَبْلغونَ كمثْلِ ما   يُرجِّى مُحالاً فى الإمامِ الروافضُ (٦)

ومنها :

ولو جَلَدِى فى كلِّ قلْبٍ ومُهْجَةٍ   لَمَا أَثَّرتْ فِيها العيونُ المرائضُ

أبتْ عن دنىِّ الوصْفِ ضرْبةُ لازبٍ   كما أبتِ الفعلَ الحروفُ الخوافِضُ

ومنها :

ورأيى لَهُ فى كلِّ ماغابَ مَسْلكٌ   كما تَسْلُكُ الجسمَ العروقُ النوابضُ

يَبينُ مَدَبُّ النملِ فى غيرِ مُشْكِلٍ   ويُسْتَرُ عنهم للقبول المرابض

---

(٦) يشير إلى الرافضة ، وهى فرقة شيعية غالية . انظر :

• أحمد أمين : ضحى الإسلام ، جـ ٣ ص ١٣٦ ، ط ٣ ، القاهرة ١٣٦٢ هـ = ١٩٤٣ م .

٢٣

باب الغدر

وكما أنّ الوفاء من سريّ النعوت ، ونبيل الصفات ، فكذلك الغدر من ذميمها ومكروهها ، وإنما يسمى غدراً من البادي به ، وأمّا المقارض بالغدر على مثله ، وإن استوى معه فى حقيقة الفعل ، فليس بغدر ولا هو معيباً بذلك ، والله عزوجل يقول : « وجزاءُ سيِّئة سيئةٌ مِثْلُها »(١) وقد علمنا أن الثانية ليست بسيئة ، ولكن لما جانست الأولى فى الشبه أوقع عليها مثل اسمها . وسيأتى هذا مفسراً فى باب السلو إن شاء الله .

ولكثْرة وجود الغدر فى المحبوب استغرب الوفاء منه ، فصار قليله الواقع منهم ، يقاوم الكثير الموجود فى سواهم ، وفى ذلك أقول :

قليلُ وفاءِ مَنْ يُهوَى يَجِلُّ ... وعُظْمُ وفاءِ مَنْ يَهوى يَقِلُّ

فنادِرَةُ الجبانِ أجلُّ مِمّا ... يجيءُ به الشجاعُ المسْتَقِلُّ

ومن قبيح الغدر أن يكون للمحبّ سفير إلى محبوبه ، يستريح إليه بأسراره فيسعى حتى يقلبه إلى نفسه ، ويستأثر به دونه . وفيه أقول :

أقمتُ سفيراً قاصداً فى مطالبى ... وَثِقْتُ به جَهْلاً فضرَّبَ بيْنَنَا

وحلَّ عُرَى ودِّى وأثبتَ وُدَّه ... وأبعدَ عنِّى كلَّ ماكانَ مُمْكنا

فصرتُ شهيداً بعد ماكنتُ مُشْهِداً ... وأصبحتُ ضَيْفاً بعدَ ماكانَ ضَيْفنا

* خبر :

ولقد حدّثنى القاضى يونس بن عبد الله(٢) قال : أذكر فى الصبي جارية فى بعض

---

(١) سورة الشورى ، الآية ٤٠ .

(٢) يونس بن عبد الله بن محمد بن مغيث ، يكنى أبا الوليد ، ويعرف بابن الصفار ، قاضى الجماعة بقرطبة وصاحب الصلاة والخطبة بجامعها .

وقد تقلب فى مناصب كثيرة ، فكان قاضى بطليوس ، وخطيب مسجد الزهراء ، وتولى خطة الرد ، وكان مشاوراً ، وأصبح وزيراً . وكان محدثاً وفقيهاً ، وعالماً بالعربيـــة ، وله مؤلفات عديدة فى الزهد ، ويقول الشعر النفيس

السُّدَد ، يهواها فتى من أهل الأدب ، من أبناء الملوك ، وتهواه ويتراسلان . وكان السفير بينهما ، والرسول بكتبهما ، فتى من أترابه كان يصل إليها ، فلما عُرضت الجارية للبيع أراد الذى كان يُحبها ابتياعها ، فبدر الذى كان رسولا فاشتراها . فدخل عليها يوماً فوجدها قد فتحت درجاً لها تطلب فيه بعض حوائجها ، فأتى إليها ، وجعل يفتش الدرج ، فخرج إليه كتاب من ذلك الفتى الذى كان يهواها ، مضمخاً بالغالية ، مَصوناً مُكرماً ، فغضب وقال : من أين هذا يافاسقة ؟ قالت : أنت سقته إلىّ . فقال : لعله مُحدَث بعد ذاك الحين . فقالت : ماهو إلاّ مِن قديم تلك التى تعرف ، قال فكأنما ألقمته حجراً ، فسقط فى يديه وسكت .

فى معانى الزهد وما شابهه . ولد عام ٣٣٨ هـ = ٩٤٩ م ، وتوفى عام ٤٢٩هـ = ١٠٣٨م . انظر :

- ابن بشكوال : الصلة ، الترجمة رقم ١٥١٢ .
- الضبى : البغية ، الترجمة رقم ١٥٠٠ .
- ابن سعيد : المغرب ، جـ ١ ص ١٥٩ .

* Asin Palacios : Abenházam, vol. I, p. 159

٢٤

باب البين

وقد علمنا أنه لابد لكل مجتمع من افتراق ، ولكل دان من تناء ، وتلك عادة الله فى العباد والبلاد ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، وهو خير الوارثين .

وماشيء من دواهى الدنيا يَعدل الافتراق ، ولو سالت الأرواح به فضلاً عن الدموع كان قليلاً . وسمع بعض الحكماء قائلاً يقول : الفراق أخو الموت ، فقال : بل الموت أخو الفراق .

والبين ينقسم أقساماً :

فأولها مُدة يُوقن بانصرامها وبالعودة عن قريب ، وإنّه لشجى فى القلب ، وغصة فى الحلق ، لاتبرأ إلا بالرجعة ، وأنا أعلم مَن كان يَغيب مَن يُحب عن بصره يوماً واحداً ، فيعتريه من الهلع والجزع وشُغل البال ، وترادُف الكرَب ، مايكاد يأتى عليه .

ثم بَيْنٌ منع من اللقاء ، وتحظير على المحبوب من أن يراه محبه ، فهذا – ولو كان من تحبه معك فى دار واحدة – فهو بين : لأنه بائن عنك . وإنّ هذا ليولّد من الحزن والأسف غير قليل ، ولقد جرّبناه فكان مُرًّا .

وفى ذلك أقول :

أرَى دارَهافى كلِّ حينٍ وساعةٍ ... ولكنَّ من فى الدارِ عنِّى مُغيَّبُ
وهل نافعِى قُرْبُ الدِّيار وأهلُهاَ ... على وصْلِهِمْ منِّى رقيبٌ مُرَقَّبُ
فيالكَ جار الجَنْبِ أسمعُ حِسَّهُ ... وأعلَمُ أن الصِّينَ أدنى وأقرب
كصادٍ يَرى ماءَ الطوىِّ بعينهِ ... وليس إليه من سبيلٍ يُسبَّب
كذلك مَن فى اللحْدِ عنكَ مُغيَّبٌ ... وما دونَه إلاّ الصفيحُ المُنصَّب

وأقول من قصيدة مطوَّلة :

مَتى تشتفى نفسٌ أضَرَّ بها الوْجدُ ... وتصْقَبُ دارٌ قدطوى أهلَهَا البعْدُ
وعهدى بهنْدٍ وهى جارةُ بَيتنا ... وأقربُ من هِنْدٍ لطالبها الهِنْد

بَلَى إنّ فى قُربِ الديارِ لراحةً كما يُمسِكُ الظمآنَ أنْ يَدْنُوَ الوِرْدُ

ثم بَيْنٌ يتعمده المحب بُعداً عن قول الوُشاة ، وخوفاً أن يكون بقاؤه سبباً إلى منع اللقاء ، وذريعة إلى أنْ يفشو الكلام فيقع الحجابُ الغليظ .

ثم بَيْنٌ يولده المُحب لبعض مايدعوه إلى ذلك من آفات الزمان وعَذره مقبول أو مطرح على قدر الحافز له إلى الرحيل .

* خبر :

ولعهدى بصديق لى داره المرية ، فعنّتْ له حوائج إلى شاطبة فقصدها ، وكان نازلا بها فى منزلى مدة إقامته بها[١]. وكان له بالمرية علاقة هى أكبر همه ، وأدهى غمه ، وكان يؤمِّل بَتّها و فراغ أسبابه. وأن يُوشك الرَّجعة ، ويُسرع الأوبة ، فلم يكن إلاّ حينٌ لطيفٌ بعد احتلاله عندى ، حتى جَيَّش الموفَّق أبوالجيش مجاهد صاحب الجزائر الجيوش وقرَّب العساكر ، ونابذ خيران صاحب المرية[٢] وعزم على استئصاله ، فانقطعت الطرق بسبب هذه الحرب ، وتُحوُمِيَت السبل . واحترس البحر بالأساطيل

---

(١) يرى نيكل Nykl المستشرق التشيكى ، والمهاجر إلى الولايات المتحدة ، فى ترجمته الإنجليزية للطوق ، أن هذه الفقرة تتصل بالصديق الذى أشار ابن حزم فى المقدمة إلى أنه اقترح عليه أن يصنّف له رسالة «فى صفة الحب ، ومعانيه وأسبابه وأغراضه» . وهو اجتهاد مصيب منه ، أشاركه فيه .

(٢) يطلق عليها فى المصادر العربية «الجزائر الشرقية» ، أو «جزائر شرقى الأندلس» ، وأصبحت تعرف منذ القرن الماضى باسم «جزر البليار» . وهى مجموعة من الجزر فى البحر الأبيض المتوسط على مقربة من الأندلس ، وشاركتها على امتداد تاريخها نفس المصير ، وأشهر جزرها : ميورقة ومنورقة ويابسة .

وقد حكم أبو الجيش ، الموفق بالله ، مجاهد بن عبد الله العامرى ، خلال عصر الطوائف ، جزر البليار ودانية من عام ٤٠٠ هـ = ١٠٠٩ م إلى ٤٣٦ هـ = ١٠٤٤ م . وحكم خيران العامرى المرية من ٤٠٣ هـ = ١٠١٢ م إلى ٤١٩ هـ = ١٠٢٨ م .

ومجاهد وخيران كلاهما مولى صقلبى ، من موالى المنصور بن أبى عامر ، ولعبا فى الأحداث السياسية دوراً هاماً ، وبعد زوال العامريين ، وسقوط الخلافة ، أخذا بحظهما من التركة . وقد درست المستشرقة الإيطالية كليليا سارنللى تشركوا Clelia Sarnelli Cerqua مجاهدا العامرى دراسة جيدة ، فى بحث تقدمت به لنيل درجة الماجستير من كلية الآداب فى جامعة القاهرة ، عام ١٩٥٧ ، ثم نشرته فيما بعد . انظر :

* الحميرى : الروض المعطار ، الصفحات : ١٨٥ و ١٨٨ و ١٩٨ .
* ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٣ ص ١٥٥ و ١٦٦ .
* كليليا سارنللى تشركوا : مجاهد العامرى ، قائد الأسطول العربى فى غربى البحر المتوسط ، فى القرن الخامس الهجرى ، ص ١٢٣ وما بعدها . الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٦١ .

فتضاعف كربه إذ لم يجد إلى الانصراف سبيلاً ألبتة ، وكاد يَطفأ أسفاً ، وصار لا يأنس بغير الوحدة ، ولا يلجأ إلاّ إلى الزفير والوجوم ، ولعمرى لقد كان ممن لم أُقدّر قط فيه أن قلبه يُذعن للود ، ولا شراسة طبعه تجيب إلى الهوى .

وأذكر أنى دخلت قرطبة بعد رحيلى عنها(٣) ثم خرجتُ منصرفاً عنها ، فضمنى الطريق مع رجلٍ من الكتّاب قد رحل لأمر مهم ، وتخلف سَكن له ، فكان يَرتمض لذلك .

وإنّى لأعلم من عَلِق بهوى له ، وكان فى حال شَظف ، وكانت له فى الأرض مذاهبُ واسعة ، ومناديح رَحبة ، ووجوه متصرف كثيرة ، فهان عليه ذلك ، وآثر الإقامة مع مَن يحب .

وفى ذلك أقول شعراً ، منه :

لكَ فى البلاد مَنادِحُ مَعلومَةٌ ... والسيفُ غُفل أو يَبين قِرابه

ثم بَيْن رحيلٍ وتباعد ديار ، ولا يكون من الأَوْبة فيه على يقين خَبر ، ولا يَحدث تلاق . وهو الخطب الموجع ، والهم المُفظع ، والحادث الأشنع والداء الدوىّ ، وأكثر ما يكون الهلع فيه إذا كان النائى هو المحبوب ، وهو الذى قالت فيه الشعراء كثيراً

وفى ذلك أقول قصيدة ، منها :

وذى عِلّةٍ أعيا الطبيبَ علاجُها ... ستوردُنى لاشكَّ مَنْهلَ مَصْرعِ

رضيتُ بأنْ أُضْحَى قتيلَ ودادِهِ ... كجارعِ سِمٍّ فى رَحيق مُشعشع

فما لليالى ما أقلَّ حيــاءها ... وأَوْلعَها بالنفسِ من كلّ مُولع

كأنَّ زَمانِى عَبْشمىٌّ يخالُنِى ... أعنتُ على عثمانَ أهلَ التشيُّعِ

وأقول من قصيدة :

أظنَّكَ تمثالَ الجنانِ أباحَهُ ... لمُجتهدِ النسّاكِ مِنْ أوليــائِهِ

وأقول من قصيدة :

لِأُبْرِدَ باللُّقْيا غليلاً من الهوَى ... توقَّع نيرانَ الغَضَى هيمانُهُ

(٣) سوف يشير ابن حزم فيما بعد بإيضاح أكثر إلى هذه الرحلة ، التى قام بها إلى قرطبة ، وربما تمت فى الخفاء ، بعد أن غادرها مع دخول البربر إليها عام ٤٠٣ هـ = ١٠١٣ م

وأقول شعراً منه :

خَفِيت عن الأبصارِ والوَجْدُ ظاهرٌ ... فأَعجب بأعْراضٍ تَبِينُ ولا شَخْصُ

غدا الفلكُ الدوّارُ حلقةَ خاتمٍ ... مُحيطٍ بما فيه وأنتَ له فَصّ

وأقول من قصيدة :

غنيتَ عن التشبيه حُسناً وَبهْجةً ... كما غَنِيت شَمس السماءِ عن الحلى

عجبتُ لنفسي بعدَه كيف لم تمُتْ ... وهجرانُه دَفْنِي وفقدانه نَعْيِي

وللجَسدِ الغضِّ المُنعَّمِ كيف لَمْ ... تُذِبْهُ يد خشناء . . (٤)

وإن للأَوْبة من البَيْنْ الذى تشفق منه النفس لطول مسافته ، وتكاد تيأس من العودة فيه ، لروعة تبلغ مالا حد وراءه ، وربما قتلت .

وفى ذلك أقول :

للتلاقى بعـــدَ الفراقِ سرورُ ... كسُرورِ المُفيقِ حانتْ وفاتُهْ

فرحةٌ تُبهجُ النفوسَ وتحيِ ... مَن دنا مِنه بالفراقِ مماتُهْ

ربّمـــا قد تكون داهيةُ المَوْ ... تِ وتودِى بأهلِهِ هجماتُهْ

كم رأينا من عبٍّ فى الماء عطشا ... ن فزارَ الحِمامَ وهو حياتُهْ

وإنى لأعلم من نأت دارُ محبوبه زمناً ، ثم تيسرت له أوبة فلم يكن إلا بقدر التسليم واستيفائه ، حتى دعته نوى ثانية فكاد أن يهلك .

وفى ذلك أقول :

أطلتَ زمانَ البعدِ حتى إذا انقضَى ... زمانُ النَوى بالقربِ عُدتَ إلى البعدِ

فلم يكُ إلا كَرَّة الطرْفِ قُرْبُكُمْ ... وعاودكم بُعْدِى وعاوَدَنِى وَجْدِى

كذا حائرٌ فى الليل ضاقتْ وجوهُه ... رأى البرقَ فى داجٍ من الليل مُسوَدٍّ

فأَخلَفه منـــهُ رجاءُ دوامِهِ ... وبعضُ الأراجِى لا تفيدُ ولا تُجدى

وفى الأوبة بعد الفراق أقول قطعة ، منها :

لقد قرَّتِ العينانِ بالقرب منكُمُ ... كما سَخُنَت أيامَ يَطْوِيكمُ البعْدُ

فللّه فيما قد مضىَ الصبرُ والرضى ... ولله فيما قدْ قضَى الشكرُ والحمدُ

---

(٤) بياض فى الأصل .

* خبر :

ولقد نُعى إلىّ بعض من كنت أحب من بلدة نازحة ، فقمت فارًا بنفسى نحو المقابر ، وجعلت أمشي بينها وأقول :

ودِدتُ بأنّ ظهرَ الأرضِ بَطنٌ وأنّ البطنَ منها صارَ ظهْرا
وأنى متٌّ قبل ورودِ خطبٍ أتى فأثارَ فى الأكبادِ جمْرا
وأنّ دمي لمن قد بان غُسْلٌ وأنّ ضلوعَ صدرى كنٌّ قبرا

ثم اتصل بعد حين تكذيب ذلك الخبر فقلت :

بُشْرَى أتتْ واليأسُ مُسْتحكمٌ والقلبُ فى سَبعِ طِباق شِدادْ
كستْ فؤادِى خُضْرةً بعدما كان فؤادى لابساً للحدادْ
جَلَى سوادُ الغمِّ عنىّ كما يُجلىَ بلون الشمسِ لون السواد
هذا وما آملُ وصلاً سِوَى صدْقِ وفاءٍ بقديم الوِدَاد
فالمُزْنُ قد تُطلبُ لا للحيَا لكنْ لظلٍّ باردٍ ذى امتداد

ويقع فى هذين الصنفين من البيْن الوداع ، أعنى رحِيل المُحبّ أو رحيل المحبوب . وإنه لمن المناظر الهائلة ، والمواقف الصعبة ، التى تفتضح فيها عزيمة كل ماضى العزائم ، وتذهب قوة كل ذى بصيرة ، وتسكب كلُّ عين جمود ، ويظهر مكنون الجوى . وهو فصل من فصول البيْن يجب التكلّم فيه ، كالعتاب فى باب الهجر .

ولعمرى لو أن ظريفاً يموت فى ساعة الوداع ، لكان معذوراً إذا تفكر فيما يحل به بعد ساعة من انقطاع الآمال ، وحلول الأوجال ، وتبدل السرور بالحزن . وإنّها ساعة تُرقّ القلوب القاسية ، وتُلين الأفئدة الغلاظ . وإنّ حركة الرأس ، وإدمان النظر ، والزفرة بعد الوداع ، لهاتكةٌ حجابَ القلب ، وموصلة إليه من الجزع بمقدار ماتفعل حركةُ الوجد فى ضد هذا .

والإشارة بالعين والتبسم ، ومواطن الموافقة والوداع ، تنقسم قسمين : أحدهما لايتمكن فيه إلاّ بالنظر والإشارة ، والثانى يتمكن فيه بالعناق والملازمة ، وربما لعله كان لايمكن قبل ذلك ألبتة مع تجاور المحال وإمكان التلاقى ، ولهذا تمنى بعض

الشعراء البَيْنَ ومدحوا يوم النوى ، وما ذاك بحسن ولا بصواب ولا بالأصيل من الرأى ، فما يفى سرورُ ساعة بحزن ساعات ، فكيف إذا كان البين أياماً وشهوراً وربما أعواماً ، وهذا سوء من النظر ومعوّج من القياس ، وإنما أثنيت على النوى فى شعرى تمنياً لرجوع يومها ، فيكون فى كل يوم لقاء ووداع . على أن تحمُّل مضض هذا الاسم الكريه ، وذلك عند مايمضى من الأيام التى لا التقاء فيها ، فحينئذ يرغب المحب عن يوم الفراق لو أمكنه فى كل يوم .

وفى الصنف الأول من الوداع أقول شعراً ، منه :

تنوب عن بهجةِ الأنوارِ بهجتُه ... كما تنوبُ عن النيرانِ أنفاسِى

وفى الصنف الثانى من الوداع أقول شعراً منه :

وجهٌ تخِرُّ له الأنوارُ ساجدةً ... والوجهُ تِمٌّ فلم يَنقُص ولم يَزدِ
دفءٌ وشمسُ الضحى بالجَدْى نازلةٌ ... وباردٌ ناعمٌ والشمسُ فى الأسدِ

ومنه :

يومُ الفِراق لعَمرى لستُ أكرهُهُ ... أصْلاً وإن شتَّ شملُ الروحِ عن جسدِى
ففيه عانقتُ من أهوى بلا جَزَعِ ... وكان مِن قَبْلِهِ إن سِيلَ لم يَجِد
أليسَ من عَجبٍ دمعى وَعبْرتها ... يومُ الوصالِ ليوم البَيْنِ ذو حَسَد

وهل هَجَسَ فى الأفكار ، أوقام فى الظنون ، أشنع وأوجع من هجر عتاب وقع بين محبين ، ثم فجأتهما النوى قبل حلول الصلح ، وانحلال عقدة الهجران ، فقاما إلى الوداع وقد نُسى العِتاب ، وجاء ماطمّ عن القُوى ، وأطال الكرى ؟ .

وفيه أقول شعراً ، منه :

وقد سَقَطَ العَتْبُ المـقدَّمُ وامّحىَ ... وجاءتْ جيوش البيْنِ تجرِى وتُسْرِعُ
وقد ذَعَرَ البَيْنُ الصدودَ فراعَهُ ... فولّىَّ فما يُدرَى له اليومَ مَوْضعُ
كذئبٍ خلا بالصيدِ حتى أضَلَّه ... هِزَ برٌ له من جانب الغيلِ مَطْلعِ
لئن سَرَّنى فى طَرْده الهجرَ أنَّنى ... لإبعادِه عنىِّ الحبيبَ لَموجَعُ
ولا بُدَّ عندَ الموتِ مِن بعضِ راحةٍ ... وفى غبِّها المُوت الوحِىُّ المصرَّعُ

وأعرف من أتى ليودِّع محبوبه يوم الفراق فوجده قد فات ، فوقف على آثاره

ساعة ، وتردّد فى الموضع الذى كان فيه ،ثم انصرف كئيباً متغير اللون كاسف البال ، فما كان بعد أيام قلائل حتى اعتل ومات رحمه الله .

وإن للبيْن فى إظهار السرائر المطوية عملاً عجباً ، ولقد رأيت من كان حبه مكتوماً ، وبما يجد فيه مستتراً ، حتى وقع حادثُ الفراق فباح المكنون ، وظهر الخفى .

وفى ذلك أقول قطعة ، منها :

بذلتَ من الـودِّ مـا كان قبل مَنَعْتَ وأعطيتنيه جُزافا
وما لِى به حاجة عند ذاك ولو جُدْتَ قَبْلُ بلغتَ الشغافا
وما ينفعُ الطبُّ عنــد الحِمام وينفعُ قبل الردَى مِن تِلافا

وأقول :

الآن إذ حلّ الفراقُ جُدْت لِى بخفِىٍّ حبٌّ كنتَ تُبدى بُخْلَهُ
فزدتنى فى حَسْرتِى أضعافَها وَيْحِى فهلاَّ كانَ هذا قَبْلَهُ

ولقد أذكرنى هذا أنى حظيت ، فى بعض الأزمان ، بمودة رجل من وزراء السلطان ، أيام جاهه ، فأظهر بعض الامتساك ، فتركته حتى ذهبت أيامه ، وانقضت دولته ، فأبدى لى من المودة والأخوة غير قليل ، فقلت :

بذلتَ لىَ الإعراضَ والدهرُ مقبلُ وتبذلُ لِى الإقبالَ والدهرُ مُعرضُ
وتبسُطُنى إذ ليس ينفعُ بسطُكُم فهلاَّ أبحتَ البسطَ إذ كنتَ تَقْبض

ثم بَيْنُ الموتِ وهو الفوْت ، وهو الذى لايُرجى له إياب ، وهو المصيبة الحالّة ، وهو قاصمة الظهر ، وداهية الدهر ، وهو الويل ، وهو المغطِّى على ظلمة الليل ، وهو قاطع كل رجاء ، ومَاحِى كل طمع ، والمؤيس من اللقاء . وهنا حارت الألسن ، وانجذم حبل العلاج ، فلا حيلة إلا الصبر طوعاً أوكرهاً ، وهو أجل مايبتلى به المحبون ، فما لِمن دُهِى به إلاّ النوح والبكاء إلى أن يتلف أو يمل ، فهى القرحة التى لاتُنكى ، والوجع الذى لايَفنى ، وهو الغم الذى يتجدد على قدر بلاء من اعتمدته فى الثرى ، وفيه أقول :

كلُّ بيْن واقـــــع فمرجًّى لم يَفتْ
لاتُعجَّـــــــلْ قَنِطاً لم يَفُتْ مَنْ لم يمت
والذى قد مـــــات فالـ يأس عنه قد ثَبتْ

وقد رأينا مَن عرض له هذا كثيراً .

وعنى أخبرك أنى أحدُ من دُهى بهذه الفادحة . وتعجّلت له هذه المصيبة ، وذلك أنى كنت أشدَّ الناس كلفاً ، وأعظمهم حبًّا بجارية لى ، كانت فيما خلا اسمها نُعْم . وكانت أمنية المتمنِّى ، وغاية الحسن خَلْقاً وخُلُقا ، ومُوافقة لى ، وكنت أبا عذرها ، وكنّا قد تكافأنا المودة ، ففجعتنى بها الأقدار ، واخترمتها الليالى ومرُّ النهار ، وصارت ثالثة التراب والأحجار . وسنِّى حين وفاتها دون العشرين سنة . وكانت هى دونى فى السن ، فلقد أقمتُ بعدها سبعة أشهر لا أتجرد عن ثيابى ، ولا تفتر لى دمعة على جُمود عينى ، وقلة إسعادها،وعلى ذلك فوالله ماسلوتُ حتى الآن ، ولو قبل فداء لفديتها بكل ماأملك من تالــد وطارف ، و ببعض أعضاء جسمى العزيزة علىّ ، مسارعا طائعاً ، وما طاب لى عيش بعدها ، ولا نسيت ذكرها ، ولا أنست بسواها ، ولقد عَفَّى حُبِّى لها على كل ماقبله ، وحرّم ما كان بعده[٥].

ومما قلت فيها :

مهذَّبةٌ بيضاءُ كالشمس إنْ بدتْ ... وسائرُ رَبّاتِ الحِجالِ نُجومُ

أطارَ هواها القلبَ عن مُستقرِّهِ ... فبعدَ وقوعٍ ظلَّ وَهْوَ يحوم

ومن مراثىّ فيها قصيدة منها :

كأنِّىَ لم آنسْ بألفاظكَ التى ... على عُقَدِ الألبابِ هُنَّ نَوافثُ

ولم أتحكَّمْ فى الأمانِى كأنَّنى ... لإفراط ما حُكِّمتُ فيهن عابث

ومنها :

ويبدينَ إعراضاً وهنَّ أوالفُ ... ويُقسِمْنَ فى هَجرى وهنَّ حوانثُ

وأقول أيضاً فى قصيدة أخاطب فيها ابن عمى أبا المغيرة عبدالوهاب أحمد بن عبدالرحمن بن حزم بن غالب[٦] وأقرضه ، فأقول :

---

(٥) سبق لابن حزم أن تحدث عن نعم هذه ، وعن قصة أخرى له معها فى الباب الثانى .

(٦) ابن عم ابن حزم ، ورفيقه فيما بعد وزيرين فى وزارة عبد الرحمن بن هشام المستظهر ، توفى فى طليطلة عام ٣٤٨ هـ = ١٠٤٦ م ، وكان أديباً وشاعراً ومؤلفاً ، ولدينا عنه معلومات وافرة ، انظر :

- ابن بسام : الذخيرة ، القسم الأول ، المجلد الأول ، ص ١١٠ .
- ابن خاقان : مطمح الأنفس ، ص ٢٢ .
- ابن بشكوال : الصلة ، الترجمة رقم ٨١٥ .
- ابن سعيد : المغرب ، جـ ١ ص ٣٥٧ .

قِفا فاسألاَ الأطلالَ أين قطينُها　　أمرتْ عليها بالبِلى المَلَوان
علىَ دارساتٍ مقفراتٍ عَواطلٍ　　كأن المغانىِ فى الخفاء معانى

واختلف الناس فى أى الأمرين أشدّ : البين أمِ الهجر؟ وكلاهما مُرتقى صعب ، وموت أحمر ، وبلية سوداء ، وسنة شَهباء . وكل يستبشع من هذين ماضادّ طبعه ، فأمّا ذو النفس الأبية ، الألوف الحنّانة ، الثابتة على العهد ، فلاشيء يعدل عنده مُصيبة البين ، لأنه أتى قصداً ، وتعمدتْه النوائب عمداً ، فلا يجد شيئاً يسلِّى نفسه ، ولا يصرف فكرته فى معنى من المعانى ، إلاّ وجـد باعثاً على صبابته ، ومحركا لأشجانه ، وعليه لا لَهُ ، وحجة لوجده ، وحاضاً على البكاء على إلفه . وأمَّا الهجر فهو داعية السلوّ ، ورائد الإقلاع .

وأما ذو النفس التوّاقة ، الكثيرة النزوع والتطلع ، القلوق العزوف ، فالهجر داؤه ، وجالبُ حتفه ، والبين له مَسلاة ومنساة .

وأما أنا فالموت عندى أسهل من الفراق ، وما الهجر إلا جالب للكمد فقط ، ويوشك إنْ دام أن يحدث إضراراً .

وفى ذلك أقول :

وقالوا ارتحـــلْ فلعلّ السُّلُوَّ　　يكونُ وترغبُ أن تَرْغبهْ
فقلـــتُ الردَى لِى قبلَ السلوِّ　　ومَنْ يشربُ السمَّ عن تجرِبَهْ

وأقول :

سبىَ مهجتى هـــواهُ　　وأودتْ بها نــــواهُ
كأنَّ الغرامَ ضيفٌ　　وروحى غـــدَا قِراهُ

ولقد رأيت من يستعمل هجر محبوبه ، ويتعمده خوفاً من مرارة يوم البين ، وما يحدث به من لوعة الأسف عند التفرق ، وهذا وإن لم يكن عندى من المذاهب المرضية ، فهو حجة قاطعـــة على أن البين أصعب من الهجر ، وكيف لا وفى الناس من يلوذ بالهجر خوفاً من البين ، ولم أجد أحداً فى الدنيا يلوذ بالبين خوفاً من الهجر ، إنما يأخـــذ الناسُ أبـــداً الأسهـــل ويتكلفون الأهـــون . وإنمـــا قلنـــا إنـــه ليس من المذاهب المحمودة ، لأن أصحابه قد استعجلوا البلاء قبل نزوله ، وتجرّعوا غصة الصبر قبل وقتها ، ولعلّ ماتخوفوه لايكون ، وليس من يتعجل المكروه ، وهو على

غير يقين مما يتعجل ، بحكيم . وفيه أقول شعراً ، منه :

لبس الصبُّ للصبابةِ بيْنــاً ليس مَن جانَبَ الأحبةَ منّــا
كغنىٌّ يعيشُ عيشَ فقــيرٍ خوفَ فقْرٍ وفقرُهُ قد أبناً

وأذكر لابن عمى أبى المغيرة هذا المعنى ، من أن البين أصعب مِن الصدّ،أبياتاً من قصيدة خاطبنى بها ، وهو ابن سبعة عشر عاماً أو نحوها ، وهى :

أجزعْتَ أنْ أزِفَ الرّحيــلُ وَوَلَهْتَ أنْ نُصَّ الذميلُ
كلاَّ مُصـــابُك فادِحٌ وأَجَلْ فراقُهُم جليـــل
كذَبَ الأُلَى زعمـــوا بأن الصدَّ مرتعُهُ وَبيل
لم يعرفوا كُنْهَ الغليـــلِ وقد تحمَّلَت الحُمُول
أماَّ الفِـــــراقُ فإنَّهُ للموتِ إنْ أَهوَى دليــل

ولى فى هذا المعنى قصيدة مطولة ، أولها :

لامِثْلُ يومِك ضَحْوَةُ التنعيم فى مَنْظرٍ حَسَن وفى تَنْغيمِ
قد كانَ ذاكَ اليومُ نُدْرَةَ عاقرٍ وصوابَ خاطئةٍ ووُلْدَ عقيم
أيامَ بَرْقُ الوصْلِ ليس بخلَّبٍ عندى ولا رَوضُ الهوَى بهشيم
مِنْ كلِّ غانيةٍ تقول ثُديُّها سِيرى أمامَكِ والإزارُ أقِيمى
كلٌّ يُجاذِبُها فحُمرةُ خدِّها خَجلٌ من التأخيرِ والتقديمِ
مابِى سِوَى تلكَ العيونِ وليس فِى بُرْئِى سِواها فى الورَى بزعيم
مثلُ الأفاعِى ليس فى شىءسوَى أجسادها إبراءُ لدغ سليمِ

والبين أبكى الشعراءَ على المعاهد ، فأدرُّوا على الرسوم الدموع ، وسقوا الديار ماء الشوق ، وتذكروا ما قد سلف لهم فيها فأعولوا وانتحبوا ، وأحيت الآثار دفين شوقهم فناحوا وبكوا .

ولقد أخبرنى بعض الوراد من قرطبة ، وقد استخبرته عنها ، أنه رأى دورنا ببلاط مغيث ، فى الجانب الغربى منها ، وقد امحت رسومها ، وطمست أعلامها ، وخفيت معاهدها ، وغيّرها البلى ، وصارت صحارى مجدبة بعد العمران ، وفيافى مُوحشة بعد الأنس ، وخرائب منقطعةبعد الحُسن ، وشعاباً مفزِّعة بعد الأمن ، ومأوى للذئاب ، ومعازف للغيلان ، وملاعب للجان ، ومكامن للوحوش ، بعد رجال كالليوث ،

وخرائد كالدمى ، تفيض لديهم النعم الفاشية . تبدّد شملهم فصاروا فى البلاد أيادى سبا ، فكأن تلك المحاريب المنمّقة ، والمقاصير المزيّنة ، التى كانت تشرق إشراق الشمس ، ويجلو الهموم حسن منظرها ، حين شملها الخراب ، وعمها الهدم ، كأفواه السباع فاغرة ، تؤذن بفناء الدنيا ، وتُريك عواقب أهلها ، وتخبرك عما يصير إليه كل من تراه قائماً فيها ، وتزهد فى طلبها ، بعد أن طال مازهدت فى تركها ، وتذكرت أيامى بها ، ولَذّاتى فيها،وشهور صباى لديها ، مع كواعب إلى مثلهن صبا الحليم ، ومثلت لنفسى كونهن تحت الثرى ، وفى الآثار النائية ، والنواحى البعيدة ، وقد فرّقتهن يدُ الجلاء ، ومزقتهن أكفُّ النوى ، وخيل إلى بصرى فناء تلك النصبة بعد ماعلمتُه من حسنها وغضارتها ، والمراتب المحكمة التى نشأت فيا لديها ، وخلاء تلك الأفنية بعد تضايقها بأهلها ، وأوهمتُ سمعى صوت الصدى والهام عليها ، بعد حركة تلك الجماعات التى رُبّيت بينهم فيها ، وكان ليلُها تبعاً لنهارها فى انتشار ساكنها ، والتقاء عمارها ، فعاد نهارها تبعاً لليلها فى الهدوء والاستيحاش ، فأبكى عينى ، وأوجع قلبى ، وقرع صفاة كبدى ، وزاد فى بلاء لُبى ، فقلت شعراً منه[٧]

لئنْ كان أظمانا فقد طالما سَقىَ ... وإنْ ساءَنا فيها فقد طالَما سَرَّا

والبيْن يولِّد الحنين والاهتياج والتذكّر . وفى ذلك أقول :

ليتَ الغرابَ يُعيدُ اليومَ لى فعسىَ ... يَبينُ بينَهُمُ عنِّى فقد وقفا

---

(٧) فى هذه الفقرة يبكى ابن حزم، فى نثر بليغ، وعاطفة صادقة، ما حل بمدينته قرطبة، وما أصاب منازل أهله فيها على يد البرابر، بعد أن اقتحموا المدينة ونهبوها عام ٤٠٣هـ/١٠١٣م، وأورد لنا ابن الخطيب فى كتابه «أعمال الأعلام»، ونشره ليفى بروفنسال فى بيروت بعنوان : «تاريخ إسبانيا الإسلامية»، تفاصيل الأحداث كاملة صفحة ١٠٩ وما بعدها، وأتى على نص ابن حزم فى بكاء مدينته الحزينة، وجاء الشعر منه فى عشرين بيتا، واكتفى ناسخ مخطوطة الطوق ببيت واحد منها.

والنثر فى أعمال الأعلام يختلف عن النثر فى «الطوق» زيادة ونقصا. ويقول ابن الخطيب أنه وجد النص بخط ابن حزم فى خبر ذكره، والمناسبة فيه تختلف عما فى الطوق، ففى هذا يبكى ابن حزم ديارهم منفيا بعيدا، حين جاءه خبرها وما حلّ بها، وعند ابن الخطيب أنه بكاها بعد أن عاد إليها، وألقى نظرة على خرائبها. وبين النصين بعض الاختلاف، ومع فقدان أية مخطوطة أخرى ترجح واحدا من النصين على الآخر، يصعب التفضيل بينهما، والجزم بأيهما أقرب إلى إرادة المؤلف. ولهذا آثرت أن أحتفظ بنص الطوق كما هو، وألحقت بآخر الكتاب النص كما أورده ابن الخطيب، ليوازن القارئ بينهما إذا شاء.

أقولُ والليلُ قد أرخَى أجِلّتَهُ وقد تأَنَّى بألاَّ ينقضِى فوقَى
والنجمُ قد حارَ فى أفقِ السماء فما يمضِى ولا هو للتغوير مَنصْرِفا
تخالُهُ مخطِئاً أو خائِفاً وَجِـــلاً أوْ راقباً مَوعداً أوعاشقاً دَنِفا

٢٥

باب القنوع

ولا بد للمحب . إذا حُرم الوصل . من القنوع بما يجد ! وإن فى ذلك لمتعللا للنفس . وشغلا للرجا . وتجديدا للمنى . وبعض الراحة . وهو مراتب على قدر الإصابة والتمكن :

فأولها الزيارة . وإنها لأمل من الآمال . ومن سرى مايسنح فى الدهر مع ماتبدى من الخفر والحياء لما يعلمه كل واحد منهما مما فى نفس صاحبه . وهى على وجهين :

أحدهما أن يزور المحبّ محبوبه . وهذا الوجه واسع .

والوجه الثانى أن يزور المحبوب مُحبّه . ولكن لا سبيل إلى غير النظر والحديث الظاهر . وفى ذلك أقول :

فإنْ تنأَ عنِّى بالوصالِ فإننى سأرضَى بلحظِ العينِ إنْ لم يكنْ وصلْ
فحسبى أنْ ألقاكَ فى اليوم مرّة وما كنتُ أرضى ضعفَ ذا منك لى قبل
كذا هِمّةُ الوالى تكونُ رفيعةً ويرضى خلاصَ النفسِ إنْ وقع العزل

وأمّا رجع السلام والمخاطبة فأمل من الآمال . وإن كنت أنا أقول فى قصيدة لى :

فها أنا ذا أُجْنِى وأقنــــعُ راضياً برجعِ سلامٍ إنْ تيسَّرَ فى الحين

فإنما هذا لمن ينتقل من مَرتبة إلى ماهو أدنى منهاً . وإنما تتفاضل المخلوقات فى جميع الأوصاف على قدر إضافتها إلى ماهو فوقها أو دونها .

وإنى لأعلم من كان يقول لمحبوبه : عدنى واكذب . قنوعاً بأن يسلى نفسه فى وعده . وإن كان غير صادق . فقلت فى ذلك :

إنْ كان وصلُكَ ليس فيه مَطمعٌ والقربُ ممنوعٌ فعِدْنِىَ واكذبِ
فعسى التعلّلُ بالتقائك مُمسكٌ لحياة قلبٍ بالصُّدودِ مُعذَّب
فقد يُســــلِّى المجدبينَ إذا رأوْا فى الأفقِ يلمعُ ضوءُ برْقٍ خُلَّب

ومما يدخل فى هذا الباب شيءٌ رأيته ورآه غيرى معى . أنَّ رجلا من إخوانى

جرحه من كان يُحبّه بمدية ، فلقد رأيته وهو يُقبِّل مكان الجُرح ، ويندُبه مرة بعد مرة .
فقلت فى ذلك :

يقولون : شَجَّكَ مَن هِمْتَ فيه فقلتُ : لعمــــرىَ ما شجَّنى
ولكنْ أَحسَّ دمى قُـــــربَه فطارَ إليــــــه ولم ينثنِ
فيا قاتِلِى ظالمــاً مُحسنــــاً فديتُكَ مِن ظالمٍ مُحسنِ

ومن القنُوع أن يُسَرَّ الإنسان ويَرضى ببعض آلات محبوبه . وإنّ لَه من النفس لموقعا حسنا ، وإن لم يكن فيه إلاّ ما قص الله تعالى علينا ، من ارتداد يعقوب بصيراً حين شَم قميص يوسف عليهما السلام .

وفى ذلك أقول :

لَمَّا مُنعتُ القربَ من سَيِّدى ولجَّ فى هجرى ولم يُنصفِ
صِرْتُ بإبصـــارِىَ أثوابَهُ أو بعض ماقد مسَّهُ أَكْتَفى
كذاكَ يعقوبُ نـــبى الهدى إذ شفَّهُ الحزنُ على يوسف
شمَّ قميصاً جاء مِن عندِه وكان مكفوفاً فمنــهُ شُفِى

وما رأيت قط متعاشقين إلاّ وهما يتهاديان خصل الشعر مبخرة بالعَنبر ، مرشوشة بماء الورد ، وقد جمعت فى أصلها بالمصطكى وبالشمع الأبيض المصفى ، ولُفَّتْ فى تطاريف الوَشْى والخز وما أشبه ذلك ، لتكون تذكرة عند البين .

وأما تهادى المساويك بعد مضغها ، والمصطكى إثراستعمالها ، فكثير بين كل متحابين قد حظر عليهما اللقاء . وفى ذلك أقول قطعة منها :

أرَى ريقَها ماءَ الحيــــاة تيقُّنــاً على أنها لم تُبقِ لى فى الهوَى حَشَا

* خبر :

وأخبر نى بعض إخوانى عن سليمان بن أحمد الشاعر ، أنه رأى ابن سهل الحاجب بجزيرة صقلية[١] ، وذكر أنه كان غاية فى الجمال ، فشاهده يوما فى بعض المتنزهات

(١) لا تمدنا المصادر بأية معلومات عنهما ، فقط يتحدث ابن بشكوال فى كتابه « الصلة » ، الترجمة رقم ٤٥٣ ، فى إيجاز شديد عمن يدعى : سليمان بن أحمد بن محمد الأندلسى ، من أهل سرقسطة ، يكنى أبا الربيع ، وكانت له رحلة إلى المشرق . وثمة احتمال بأن يكون سليمان هذا هو الذى يشير إليه ابن حزم .

ماشياً ، وامرأة خلفه تنظر إليه . فلما أبعد أتت إلى المكان الذى قد أثّر فيه مشيه ، فجعلت تقبّله وتلثم الأرض التى فيها أثر رجله .

وفى ذلك أقول قطعة ، أولها :

يلوموننى فى مَوْطئ خُفِّــه خطّا ... ولو عَلموا عادَ الذى لَامَ يَحْسُدُ
فيا أهل أرضٍ لاتجودُ سحابُها ... خُذوا بوصَاتى تستقلّوا وتُحمدوا
خذوا من ترابٍ فيه موضعُ وَطئه ... وأضمنُ أن المَحْل عنكم يُبعَّد
فكلُّ ترابٍ واقعٌ فيه رجــلهُ ... فذاك صعيدٌ طيِّبُ ليس يُجحد
كذلك فِعْلِ السامرىّ وقد بدا ... لعينيه من جبريل إثْرٌ ممجّد
فصيّر جوفَ العِجل من ذلك الثرى ... فقــام له مِنــه خُوَارٌ ممدّد

وأقول :

لقد بُوركتْ أرضٌ بها أنت قاطنٌ ... وبوركَ من فيها وَحلّ بها السعدُ
فأحجارُها دُرٌّ وسَعدانُها وَرْدٌ ... وأمواهُهـا شُهدٌ وتربتُها نَدٌّ

ومن القنوع الرضا بمزار الطيف ، وتسليم الخيال . وهذا إنما يحدث عن ذكر لايفارق ، وعهد لايحول ، وفكر لا ينقضى ، فإذا نامت العيون ، وهدأت الحركات سرى الطيف . وفى ذلك أقول :

زار الخيالُ فتىً طالتْ صَبابتهُ ... على احتفاظٍ من الحُرَّاس والحفظهْ
فبتُّ فى ليلتى جذلانَ مُبتهجاً ... ولذَّةُ الطيفِ تُنسى لذَّةَ اليقظه

وأقول :

أتَى طيفُ نُعْمٍ[٢] مَضْجعى بعدهَدْأَةٍ ... ولليــلِ ســلطانٌ وظلٌّ ممدّدُ
وعهدِى بها تحتَ الترابِ مُقيمةٌ ... وجاءتْ كما قدكنتُ مِن قبلُ أعهد
فعُدْنا كما كنّا وعاد زمانُنـــا ... كما قد عهدْنا قبلُ والعودُ أحمدُ

وللشعراء فى علة مزار الطيف أقاويل بديعة المرمى مخترعة ، كلٌّ سبق إلى معنى من المعانى ، فأبو إسحاق بن سيّار النّظام[٣] رأس المعتزلة جعل علة مزار الطيف خوف الأرواح من الرقيب المرقّب على بهاء الأبدان . وأبو تمام حبيب بن أوس الطائى

---

(٢) نعم : الجارية التى كان يعشقها ابن حزم ، وتحدث عنها فى الفصل السابق ، انظر الهامش رقم ٥ .

(٣) أبو إسحاق بن سيار النظام ، سبق أن عرفنا به ، فى الباب الأول ، الهامش رقم ١١ .

جعل علّته أنّ نكاح الطيف لايفسد الحب ونكاح الحقيقة يفسده . والبُحترى جعل علة إقباله استضاءته بنار وجده ، وعلّة زواله خوف الغرق فى دموعه .

وأنا أقول من غير أن أمثل شعرى بأشعارهم ، فلهم فضل التقدم والسابقة ، وإنما نحن لاقطون وهم الحاصدون ، ولكن اقتداء بهم ، وجريا فى ميدانهم ، وتتبعاً لطريقتهم التى نهجوا وأوضحوا ، أبياتاً بينت فيها مزار الطيف مقطّعة :

أغارُ عليك من إدْراكِ طَرْفى ... وأشفقُ أنْ يُذيبك لمسُ كَفّى
فأمتنعُ اللقاءَ حـذارَ هـذا ... وأعتمدُ التـلاقِ حين أُغفى
فروحى إنْ أنمْ بك ذو انفرادٍ ... من الأعضاءِ مُسـتترٌ ومَخْفى
وَوَصْلُ الروحِ ألطفُ فيكَ وَقْعاً ... من الجسم المواصلِ ألْفَ ضِعْف

وحال المزُور فى المنام ينقسم أقساماً أربعة :

أحدها محب مهجور قد تطاول غمه ، ثم رأى فى هجعته أن حبيبه وصله فسر بذلك وابتهج ، ثم استيقظ فأسف وتلهّف ، حيث علم أن ماكان فيه أمانى النفس وحديثها .

وفى ذلك أقول :

أنت فى مشرقِ النهارِ بخيـلٌ ... وإذا الليلُ جنَّ كنتَ كريما
تجعلُ الشمسَ منك لى عِوَضاً هيـ ... ـهاتَ ماذا الفعالُ منك قويما
زارنى طيفُكَ البعيدُ فيـأتى ... واصلاً لى وعائداً ونديمـا
غير أنىِّ مَنَعْتنى مِن تمام الـ ... ـعيش لكنْ أَبحتَ لى التشميا
فكأنِّى مِن أهل الاعراف لاالفر ... دَوْسُ دارى ولا أخافُ الجحيما

والثانى محب مواصل مشفق من تغير يقع ، قد رأى فى وسنه أن حبيبه يهجره فاهتمّ لذلك هماً شديداً ، ثم هب من نومه فعلم أن ذلك باطل وبعض وساوس الإشفاق .

والثالث محب دانى الديار يرى أنّ التنائى قد فدحه ، فيكترث ويوجل ، ثم ينتبه فيذهب مابه ويعود فرحاً .

وفى ذلك أقول قطعة ، منها :

رأيتُكَ فى نومى كأنَّكَ راحـلٌ ... وقمنا إلى التوديع والدمعُ هاملُ

وزال الكرَى عنّى وأنتَ معانقى   وغَمّى إذا عاينتُ ذلك زائل
فجدَّدتُ تَعْنيقـــاً وضمّاً كأنّنى   عليكَ من البيْنِ المفرِّق واجل

والرابع محب نائى المزار ، يرى أن المزار قد دنا ، والمنازل قد تصاقبت ، فيرتاح ويأنس إلى فقد الأسى ، ثم يقوم من سنته فيرى أن ذلك غير صحيح ، فيعود إلى أشدما كان فيه من الغم ، وقد جعلت فى بعض قولى علة النوم الطمع فى طيف الخيال . فقلت :

طاف الخيالُ على مستهترٍ كَلِفٍ   لولا ارتقابُ مزارِ الطيفِ لم يَنمِ
لاتعجبوا إذ سرَى والليلُ مُعتكرٌ   فنورُهُ مُذهبٌ فى الأرض للظلَمَ

ومن القنوع أن يقنع المحبّ بالنظر إلى الجدران ، ورؤية الحيطان التى تحتوى على من يحبّ ، وقد رأينا من هذه صفته . ولقد حدثنى أبو الوليد أحمد بن محمد ابن إسحاق الخازن[٤] رحمه الله ، عن رجل جليل ، أنه حدث عن نفسه بمثل هذا .

ومن القنوع أن يرتاح المحبّ ، إلى أنْ يرى مَن رأى محبوبه ، ويأنس به ، ومَن أتى من بلاده ، وهذا كثير . وفى ذلك أقول :

تَوحَّشَ من سُكّانه فكأنَّهمْ   مساكنُ عادٍ أعقبتْهُ ثمـــودُ

ومما يدخل فى هذا الباب أبيات لى ، موجبها أنى تنزهت أنا وجماعة من إخوانى ، من أهل الأدب والشرف ، إلى بستان لرجل من أصحابنا ، فجلنا ساعة ، ثم أفضى بنا القعود إلى مكان دونه يتمنى ، فتمددنا فى رياض أريضة ، وأرض عريضة للبصر فيها منفسح ، وللنفس لديها مسرح ، بين جداول تطرد كأباريق اللجين ، وأطيار تغرد بألحان تزرى بما أبدعه معبد و الغريض[٥] ، وثمار مهدلة قد ذللت للأيدى ، ودنت للمتناول ، وظلال مظلة تلاحظنا الشمس من بينها ، فتتصور بين

---

(٤) أبو الوليد أحمد بن محمد بن إسحاق ، والد أبى بكر محمد ، الذى عرفنا به فى الباب الثانى ، الهامش رقم ٤ ، وكان أبو بكر صديقاً ودوداً لابن حزم . وكلمة الخازن تومئ إلى وظيفته ، أى القائم على الشئون المالية فى دار الخلافة .

(٥) • معبد ، أبو عباد معبد بن وهب ، زنجى الأب ، مولى لعبد الرحمن بن قطن فى المدينة المنورة ، وعمل فى شبابه صيرفياً ، ثم احترف الموسيقى فيما بعد ، وأصبح مغنى الأمراء من بنى أمية فى المشرق ، ويصفه إسحاق الموصلى بأنه « من أحسن الناس غناء ، وأجودهم صنعة ، وأحسنهم خلقاً ، وهو فحل المغنيين » .وتوفى عام ١٢٥ هـ = ٧٤٣ م .

• الغريض ، ويكنى أبا يزيد ، أو أبا مروان ، والغريض لقب معناه المغنى المجيد ، وهو من أصل بربرى ،

أيدينا كرقاع الشطرنج ، والثياب المدبجة ، وماء عذب يوجدك حقيقة طعم الحياة . وأنهار متدفقة تنساب كبطون الحيات ، لها خرير يقوم ويهدأ ، ونواوير مونقة ، مختلفة الألوان ، تصفقها الرياح الطيبة النسيم ، وهواء سجسج ، وأخلاق جلاس تفوق كل هذا ، فى يوم ربيعى ذى شمس ظليلة ، تارة يغطيها الغيم الرقيق ، والمزن اللطيف ، وتارة تتجلى ، فهى كالعذراء الخفرة ، والخريدة الخجلة ، تتراءى لعاشقها من بين الأستار ثم تغيب فيها ، حذر عَيْنٍ مُراقِبَة . وكان بعضنا مطرقاً كأنه يحادث أخرى ، وذلك لسر كان له ، فعرض لى بذلك ، وتداعبنا حيناً ، فكلفت أن أقول على لسانه شيئاً فى ذلك ، فقلت بديهة ، وما كتبوها إلا مِن تذكّرها بعد انصرافنا وهى :

ولمّا تروَّحْنا بأكنافِ روْضـــــةٍ ... مهدّلةِ الأفنانِ فى تُرْبها النَّدِى
وقد ضَحكتْ أنوارُها وتضوَّعتْ ... أساوِرُها فى ظلّ فَىْءٍ ممدَّد
وأَبدتْلنا الأطيارُ حُسْنَ صَريفها ... فمن بين شاكٍ شَجْوَهُ ومغرِّد
وللمــــاءِ فيما بيننـــا مُتَصرّفُ ... وللعـــينِ مُرتادُ هناك وللبد
وما شئتَ من أخلاقِأروعَ ماجدٍ ... كريمِ السجايا للفخارِ مُشيِّد
تَنغَّص عندى كلُّ ماقد وصفْتُهُ ... ولم يَهْنِى إذْ غابَ عنى سيِّدى
فياليتنى فى السجنِ وهو معانقى ... وأنتمْ معاً فى قصرِ دارِ المجدَدْ(٦)
فمن رامَ منَّا أن يبدِّل حَالَه ... بحالِ أخيه أو بملكٍ مُخلّد
فلا عاش إلاّ فى شقـــاءٍ ونكبةٍ ... ولا زالَ فى بُؤْسىَ وخزْىٍ مردَّد

فقال هو ومن حضر : آمين آمين .

وهذه الوجوه التى عددت وأوردت فى حقائق القناعة هى الموجودة فى أهل المودة ، بلا تزيّد ولا إعياء .

وكان مولى للأخوات المعروفات باسم العبلات فى مكة ، وتحول فيما بعد إلى ولاء السيدة سكينة بنت الحسين ، وحين حرم والى مكة الغناء والموسيقى التجأ إلى اليمن ، وتوفى عام ٩٨ هـ = ٧١٧ م . انظر :

* فارمر : تاريخ الموسيقى العربية ، ص ٩٨ ، ترجمة الدكتور حسين نصار ، ومراجعة الدكتور عبد العزيز الأهوانى ، القاهرة ١٣٧٥ هـ = ١٩٥٦ م .

(٦) قصر المجدد : من القصور التى بناها عبد الرحمن الناصر إلى جانب قصر الزهراء ، القصر الرئيسى فى مدينة الزهراء . انظر :

* المقرى : نفح الطيب ، ج ٢ ص ١١ .

وللشعراء فن من القنوع أرادوا فيه إظهار غرضهم ، وإبانة اقتدارهم على المعانى الغامضة ، والمرامى البعيدة ، وكلٌّ قال على قدر قُوة طبعه ، إلاّ أنه تحكّم باللسان ، وتشدّق فى الكلام ، واستطال بالبيان ، وهو غير صحيح فى الأصل .

فمنهم من قنع بأن السماء تظله هو ومحبوبه والأرض تقلهما . ومنهم من قَنع باستوائهما فى إحالة الليل والنهار بهما ، وأشباه هذا ، وكلٌّ مبادر إلى احتواء الغاية فى الاستقصاء ، وإحراز قصب السبق فى التدقيق .

ولى فى هذا المعنى قول لايمكن لمتعقب أن يجد بعده متناولاً ، ولا وراءه مكاناً ، مع تبيينى علة قرب المسافة البعيدة ، وهو :

وقالوا بَعيدٌ قلتُ حسبى بأنّه معى فى زمانٍ لايطيقُ مَحِيدا
تَمرُّ علَّى الشمسُ مثلَ مُرُورِها به كلَّ يومٍ يَستنيرُ جـــديدا
فمنْ ليس بينى فى المسير وبينَه سوى قطعِ يومٍ هل يكونُ بعيدا
وعِلم إلهِ الخلقِ يجمعنا معاً كفى ذا التدانِى ما أُريدُ مَزيدا

فبينت كما ترى أنى قانع بالاجتماع مع من أحب فى علم الله ، الذى السموات والأفلاك والعوالم كلها ، وجميع الموجودات ، لاتنفصل منه ولاتتجزأ فيه ، ولا يشذ عنه منها شيء .

ثم اقتصرت من علم الله تعالى على أنه فى زمان ، وهذا أعم مما قاله غيرى فى إحاطة الليل والنهار ، وإن كان الظاهر واحداً فى البادى إلى السامع ؛ لأن كل المخلوقات واقعة تحت الزمان ، وإنما الزمان اسم موضوع لمرور الساعات ، وقطع الفلك وحركاته وأجرامه ، والليل والنهار متولدان عن طلوع الشمس وغروبها ، وهما متناهيان فى بعض العالم الأعلى ، وليس هكذا الزمان فإنهما بعض الزمان . وإنْ كان لبعض الفلاسفة قول إن الظل متماد ، فهذا يخطئه العيان ، وعللُ الردِّ عليه بينة ليس هذا موضعها .

ثم بيّنت أنه وإن كان فى أقصى المعمور من المشرق ، وأنا فى أقصى المعمور من المغرب ، وهذا طول السكنى ، فليس بينى وبينه إلا مسافة يوم ، إذا الشمس تبدو فى أول النهار فى أول المشارق وتغرب فى آخر النهار فى آخر المغارب .

ومن القنوع فصل أُورده وأستعيذ بالله منه ومن أهله ، وأحمده على ماعرّف

نفوسنا من منافرته ، وهو أن يضل العقل جُملة وتفسد القريحة ، ويتلف التمييز ، ويهون الصعب ، وتذهب الغيرة ، وتعدم الأنفة ، فيرضى الإنسان بالمشاركة فيمن يحب . وقد عرض هذا لقوم . أعاذنا الله من البلاء . وهذا لايصلح إلا مع كلبية فى الطبع ، وسقوط من العقل الذى هو عيار على ماتحته ، وضعف حس . ويؤيد هذا كلهُ حب شديد معم . فإذا اجتمعت هذه الأشياء ، وتلاحقت بمزاج الطبائع ، ودخول بعضها فى بعض ، نتج بينهما هذا الطبع الخسيس ، وتولدت هذه الصفة الرذلة ، وقام منها هذا الفعل المقذور القبيح . وأما رجل معه أقل همة ، وأيسر مروءة فهذا منه أبعد من الثريا ، ولومات وجداً ، وتقطع حبا .

وفى ذلك أقول زارياً على بعض المسامحين فى هذا الفصل :

رأيتُكَ رَحبَ الصدرِترضَى بما أتَى ... وأفضلُ شيءٍ أنْ تلينَ وتَسْمَحا

فحظُّك من بعضِ السوانِى مفضَّلُ ... على أن يحوزَالملْكُ من أصلِها الرحى

وعضوَ بعيرٍ فيه فى الوزنِ ضعفُ ما ... تُقدِّره فى الجدْى فاعْصِ الذى لَحا

ولَعْبُ الذى تهوَى بسْيفيْنِ مُعْجِبٌ ... فكُنْ ناحياً فى نحْوِه كيفما نَحا

٢٦

باب الضنى

ولا بد لكل محب صادق المودّة ، ممنوع الوصل ، إمّا ببَيْنٍ وإمّا بهجر وإمّا بكتمان واقع لمغنى ، من أن يؤول إلى حد السقام والضنى والنحول ، وربما أضجعه ذلك . وهذا الأمر كثير جداً ، موجود أبداً ، والأعراض الواقعة من المحبة غيرُ العلل الواقعة من هجمات العلل ، ويميزها الطبيب الحاذق ، والمتفرس الناقد .

وفى ذلك أقول :

يقولُ لِيَ الطبيبُ بغير علمٍ تداوَ فأنتَ ياهذا عليلُ
ودائي ليس يدريه سوائي وربٌّ قادرٌ ملكٌ جليل
أأكتُمهُ ويكشفُهُ شهيقٌ يُلازمني وإطراقٌ طويل
ووجهٌ شاهداتُ الحزنِ فيه وجسمٌ كالخيالِ ضَنٍ نحيل
وأثبتُ ما يكون الأمرُ يوماً بلا شكٍّ إذا صحَّ الدليل
فقلتُ له أبِنْ عنيّ قليلاً فلا واللهِ تعرفُ ما تقول
فقال أرى نُحولاً زادَ جِدّا وعلَّتكَ التى تشكو ذُبول
فقلتُ له الذبولُ تَعِلُّ منه الـ جوارحُ وهى حُمَّى تستحيل
وما أشكو لعمرُ اللهِ حمَّى وإنّ الحرَّ فى جسمى قليل
فقال أرى التفاتاً وارتقاباً وأفكاراً وصمتاً لا يزول
وأَحسبُ أنها السوداء فانظرْ لنفسِكَ إنها عَرَضٌ ثقيل
فقلتُ له كلامُك ذا محالٌ فما للدّمع من عَيْني يَسيل
فأطرقَ باهِتاً ممّا رآه ألاَ فى مِثلِ ذا بُهتَ النبيل
فقلتُ له دوائى منه دائى ألاَ فى مثل ذا ضلّتْ عقول
وشاهدُ ما أقولُ يرى عياناً فُرُوعُ النبتِ إنْ عُكِسَتْ أُصول
وتِرياقُ الأفاعى ليس شىءٌ سواهُ بِبرْءِ ما لدَغتْ كَفيل

وحدثنى أبوبكر محمد بن بقى الحجرى[1]، وكان حكيم الطبع عاقلا فهما ، عن رجل من شيوخنا لايمكن ذكره ، أنه كان ببغداد فى خان من خاناتها ، فرأى ابنة لوكيلة الخان فأحبها وتزوجها . فلما خلا بها نظرت إليه وكانت بكراً ، وهو قد تكشف لبعض حاجته ، فراعها كبر أيره ، ففرت إلى أمها وتفادت منه ، فرام بها كل من حواليها أن تُرد إليه ، فأبت وكادت أنْ تموت ، ففارقها ثم ندم ، ورام أن يراجعها فلم يمكنه ، واستعان بالأبهرى[2]وغيره ، فلم يقدر أحد منهم على حيلة فى أمره ، فاختلط عقله ، وأقام فى المارستان يعانى مدة طويلة حتى نقه وسلا وما كاد ، ولقد كان إذا ذكرها يتنفس الصعداء .

وقد تقدم فى أشعارى المذكورة فى هذه الرسالة ، من صفة النحول مفرّقاً مااستغنيت به عن أن أذكر هنا من سواها شيئاً خوف الإطالة . والله المعين والمستعان .

وربما ترقّت إلى أن يغلب المرء على عقله ، ويحال بينه وبين ذهنه فيوسوس .

* خبر :

وإنى لأعرف جارية من ذوات المناصب والجمال والشرف من بنات القواد ، وقد بلغ بها حُبٌّ فتى من إخوانى جدا من أبناء الكتاب مبلغ هيجان المرار الأسود ، وكادت تختلط . واشتهر الأمر وشاع جدًّا حتى علمه الأباعد ، إلى أن تدوركت بالعلاج وهذا إنما يتولد عن إدمان الفكر ، فإذا غلبت الفكرة وتمكّن الخلط السوداوىّ ، خرج الأمر عن حدّ الحب إلى حدّ الوله والجنون ، وإذا أغفل التداوى فى الأول إلى المعاناة ، قَوِىَ جدًّا ، ولم يوجد له دواء سوى الوصال .

ومن بعض ما كتبت إليه قطعة ، منها :

قد سَلَبْتَ الفؤادَ منها اختلاساً ‏ ‏ ‏ أىُّ خلقٍ يعيش دون فؤاد

---

(١) شخصية لم أهتد إليها ، ولا أجد لها فيما بين يدى من مصادر خبرا .

(٢) الأبهرى : أبو بكر محمد بن عبد الله ، من كبار علماء المذهب المالكى ، وكان ثقة ثبتاً مشهوراً ، تفقه ببغداد ، وشرح المختصرين الكبير والصغير لابن عبد الحكم ، وكان القيم برأى مالك فى العراق على وقته ، وترك من المؤلفات : كتاب الأصول ، وكتاب إجماع أهل المدينة ، وكتاب الرد على المازنى ، وغير ذلك . وتوفى ببغداد عام ٣٩٥ هـ = ١٠٠٤ م . وبعد موته ضعف مذهب مالك فى العراق ، انظر :

• محمد الخضرى : تاريخ التشريع الإسلامى ص ٣٥٣ ، الطبعة الخامسة ، القاهرة ١٣٥٨ هـ = ١٩٣٩ م .

فأَغْنِها بالوصل تَحْيَ شريفاً   وتَفُزْ بالثواب يَوْمَ المعاد
وأراها تَعْتاضُ إنْ دام هـذا   من خلاَخِيلها حُلَى الأقياد
أنتَ حقًّا متيَّمُ الشمسِ حتَّى   عِشْقُها بيْن ذا الورَى لك بادِي

• خبر :

وحدثنى جعفر ، مولى أحمد بن محمد بن حُدير ، المعروف بالبلبيني[٣] : أن سبب اختلاط مروان بن يحيي بن أحمد بن حدير ، وذهاب عقله ، اعتلاقه بجارية لأخيه ، فمنعها منه ، وباعها لغيره ، وما كان فى إخوته مثله ، ولا أتم أدباً منه .

وأخبرنى أبو العافية ، مولى محمد بن عباس بن أبى عبدة ، أن سبب جنون يحيي بن محمد[٤] بن أحمد بن عباس بن أبى عبدة[٥] بَيْعُ جارية له كان يجد بها وجْداً شديداً ، كانت أمه باعتها وذهبت إلى إنكاحه من بعض العامريات .

---

(٣) لم أهتد إلى شخصية جعفر المولى ، ونسبته البلبيني محرفة دون ما شك ، وتحتاج إلى تصحيح . وبنو حدير ، وليس جدير كما فى الطبعات العربية ، سبق أن تحدثنا عنهم فى الباب الرابع عشر ، الهامش رقم ٤ .

(٤) سقطت كلمة « بن محمد » من كل الطبعات العربية .

(٥) بنو عبدة ، بيت آخر أندلسى عريق ، من البيوتات الكبيرة التى لعبت دوراً هاماً فى تاريخ الأندلس ، على أيام دولة بنى أمية ، وفى عصر الطوائف . وينسبون إلى حسان بن مالك ، أبو عبدة ، وكان جدهم الأعلى ، عبد الله بن جابر والد حسان ، مملوكاً لمروان بن الحكم ، وأبلى يوم وقيعة مرج راهط بلاء حسناً فأعتقه .

وقد دخل أبو عبدة الأندلس سنة ١١٣ هـ = ٧٣١ م ، أى قبل دخول عبد الرحمن بن معاوية المعروف بالداخل بخمس وعشرين سنة . ولما توطد عبد الرحمن بالأندلس استوزر أبا عبدة واستقوده ، فاستعمله على إشبيلية . وما زال أبناؤه من بعده فى نفس مكانته من أمراء وخلفاء بنى أمية ، فاستعملوهم وزراء وقواداً وعمالاً .

وقد تفرع من بيت أبى عبدة بيت بنى جهور ، أمراء قرطبة على عهد دول الطوائف ، على خلاف فى سلسلة النسب بين المؤرخين ، لا يتسع لها المجال هنا ، وكانوا أكثر الأمراء اعتدالا وعدلا ، فنعمت قرطبة على أيامهم بالاستقرار والأمن . وقد ذهبت دولتهم على يد المعتمد بن عباد أمير إشبيلية ، حين استولى عليها عام ٤٦٣ هـ = ١٠٦٤ م ، وضمها إلى إمارته . ولدينا عن بنى عبدة أخبار وافرة فى عدد من المصادر والمراجع ، انظر مثلا :

• ابن الأبار : الحلة السيراء ، جـ ١ ص ٢٤٥ وما بعدها .
• ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ٣ ص ١٨٥ وما بعدها .
• ابن حيان : المقتبس من أبناء أهل الأندلس ، ص ١٩٦ وما بعدها ، القطعة التى نشرها الدكتور محمود على مكى ، بيروت ١٣٩٣ هـ = ١٩٧٣ م .
• محمد عبد الله عنان : دول الطوائف ، ص ٢٠ وما بعدها .

فهذان رجلان جليلان مشهوران فقدا عقولهما واختلطا ، وصارا فى القيود والأغلال ، فأما مروان فأصابته ضربة مخطئة يوم دخول البربر قرطبة وانتهائهم إليها[٦]، فتوفى رحمه الله . وأما يحيى بن محمد فهو حىّ على حالته المذكورة فى حين كتابتى لرسالتى هذه ، وقد رأيته أنا مراراً ، وجالسته فى القصر قبل أن يمتحن بهذه المحنة . وكان أستاذى وأستاذه الفقيه أبو الخيار اللغوى[٧] ،وكان يحيى لعمرى حلواً من الفتيان نبيلا .

وأمّا مَن دون هذه الطبقة فقد رأينا منهم كثيراً ، ولكن لم نسمهم لخفائهم ، وهذه درجة إذا بلغ المشغوف إليها فقد انبتّ الرجاء ، وانصرم الطمع ، فلا دواء له بالوصل ولا بغيره ، إذ قد استحكم الفساد فى الدماغ ، وتلفت المعرفة ، وتغلبت الآفة . أعاذنا الله من البلاء بطوله ، وكفانا النقم بمنه .

---

(٦) كذا فى الأصل ، وفى كل الطبعات العربية ، ويبدو لى أنه تحريف من الناسخ ، وأن صحة الجملة : « وانتهابهم لها » .

(٧) مسعود بن سليمان بن مفلت الشنترينى ، من أهل قرطبة ، ويكنى أبا الخيار ،وكان ظاهرى المذهب ، توفى عام ٤٢٦ هـ = ١٠٣٤ م . انظر :

• ابن بشكوال : الصلة ، الترجمة رقم ١٣٥٢ .

٢٧
باب السلوّ

وقد علمنا أنّ كل ماله أول فلا بد له من آخر ، حاشى نعيم الله عز وجل ، بالجنة لأوليائه ، وعذابه بالنار لأعدائه . وأمّا أعراض الدنيا فنافدة فانية ، وزائلة مضمحلة،وعاقبة كل حب إلى أحد أمرين : إمّا اخترام منية ، وإما سلوّ حادث .

وقد نجد النفس تغلب عليها بعض القوى المصرّفة معها فى الجسد ، فكما نجد نفسًا ترفض الراحات والملاذ للعمل فى طاعة الله تعالى، أو للرياء فى الدنيا، حتى تشتهر بالزهد ، فكذلك نجد نفساً تنصرف عن الرغبة فى لقاء شكلها للأنفة المستحكمة المنافرة للغدر ، أو استمرار سوء المكافأة فى الضمير ، وهذا أصحّ السلوّ . وما كان من غير هذين الشيئين فليس إلا مذموماً .

والسلو المتولّد من الهجر وطوله إنما هو كاليأس ، يدخل على النفس من بلوغها إلى أملها ، فيفتر نزاعها ، ولا تقوى رغبتها .

ولى فى ذم السلو قصيدة ، منها :

إذا مارنتْ فالحيُّ مَيْتٌ بلحظِها وإنْ نَطقتْ قلتُ السلامُ رطابُ
كأنّ الهوَى ضيفٌ ألمّ بمهجتِى فلحمى طعـــامٌ والنجيعُ شرابُ

ومنها :

صبورٌ على الأَزْمِ الذى العزُّخَلْفَهُ ولو أُمْطرتْهُ بالحريقِ سحاب
جَزوعاً من الراحاتِ إنْ أنتجتْ له خُمُولاً وفى بعضِ النعيمِ عذابُ

والسلو فى التجربة الجميلة ينقسم قسمين :

سلو طبيعى ، وهو المسمى بالنسيان ، يخلوبه القلب ، ويفرغ به البال ، ويكون الإنسان كأنه لم يحب قط ، وهذا القسم ربما لحق صاحبه الذم لأنه حادث عن أخلاق مذمومة ، وعن أسباب غير موجبة استحقاق النسيان ، وستأتى مبيّنة إن شاء الله تعالى . وربما لم تلحقه اللائمة لعذر صحيح .

والثانى سلو تطبّعى ، قهر النفس ، وهو المسمى بالتصبّر ، فترى المرء يُظهر

التجلّد وفى قلبه أشد لدغاً من وخز الإشفى ، ولكنه يرى بعض الشر أهون من بعض ، أو يحاسب نفسه بحجة لاتصرف ولا تكسر ، وهذا قسم لا يذم آتيه ، ولا يلام فاعله ، لأنّه لايحدث إلاّ عن عظيمة ، ولا يقع إلاّ عن فادحة ، إمّا لسبب لايصبر على مثله الأحرار ، وإما لخطب لامردله تجرى به الأقدار ، وكفاك من الموصوف به أنه ليس بناس لكنه ذاكر ، وذو حنين واقف على العهد ، ومتجرّع مرارات الصبر ، والفرق العامى بين المتصبر والناسى ، أنك ترى المتصبّر وإن أبدى غاية الجلد ، وأظهر سبّ محبوبه والتحمّل عليه ، لا يحتمل ذلك من غيره .

وفى ذلك أقول قطعة ، منها :

دعونى وسبِّى للحبيبِ فإنّنى ... وإن كنتُ أُبدِى الهجرَلستُ مُعادياً
ولكنَّ سبِّى للحبيب كقولهمْ ... أجادَ فلقَّاه الإلهُ الدواهيا

والناسى ضدّ هذا ، وكل هذا فعلى قدر طبيعة الإنسان وإجابتها وامتناعها ، وقوة تمكّن الحب من القلب أو ضعفه ، وفى ذلك أقول ، وسميت السالى فيه المتصبّر ، قطعة منها :

ناسِى الأحبَّة غيرُ مَن يسلوهُمُ ... حُكْمُ المقصِّرِ غيرُ حُكْمِ المقصِرِ
ماقاصِرٌ للنفسِ غير مُجيبِهَـا ... ما الصابرُ المطبوعُ كالمتصبِّرِ

والأسباب الموجبة للسلو المنقسم هذين القسمين كثيرة ، وعلى حسبها وبمقدار الواقع منها يعذر السالى ويذم .

فمنها الملل ، وقد قدمنا الكلام عليه ، وإنَّ مَن كان سلوّه عن ملل فليس حبه حقيقة ، والمتسم به صاحب دعوى زائفة ، وإنما هو طالب لذة ، ومبادر شهوة ، والسالى من هذا الوجه ناسٍ مذموم .

ومنها الاستبدال ، وهو وإنْ كان يشبه الملل ففيه معنى زائد ، وهو بذلك المعنى أقبح من الأول ، وصاحبه أحق بالذم .

ومنها حياء مركّب يكون فى المحب ، يحول بينه وبين التعريض بما يجده . فيتطاول الأمر ، وتتراخى المدة ، ويبلى جديد المودة ، ويحدث السلو . وهذا وجه إنْ كان السالى عنه ناسياً فليس بمنصف ، إذ منه جاء سبب الحرمان ، وإن كان متصبِّراً فليس بملوم ، إذ آثر الحياء على لذة نفسه . وقدورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

أنه قال : « الحياء من الإيمان ، والبذاء من النفاق » .

وحدثنا أحمد بن محمد ، عن أحمد بن مُطَرِّف ، عن عبيد الله[1] بن يحيي ، عن أبيه ، عن مالك ، عن سلمة بن صفوان الزرقى ، عن زيد بن طلحة بن ركانة ، يرفعه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنّه قال : « لكل دين خلق ، وخلق الإسلام الحياء » .

فهذه الأسباب الثلاثة أصلها من المحب ، وابتداؤها مِن قِبَله ،والذمّ لاصق به فى نسيانه لمن يحب .

ثم منها أسباب أربعة هن من قبل المحبوب ، وأصلها عنده . فمنها :

الهجر ، وقد مر تفسير وجوهه . ولا بد لنا أن نورد منه شيئاً فى هذا الباب يوافقه ، والهجر إذا تطاول ، وكثر العتاب ، واتصلت المفارقة ، يكون باباً إلى السلوّ .

وليس من وصلك ثم قطعك لغيرك من باب الهجر فى شيء ، لأنه الغدر الصحيح ، ولا مَن مال إلى غيرك دون أن يتقدم لك معه صلة من الهجر أيضاً فى شيء ، إنماذاك هو النفار . وسيقع الكلام فى هذين الفصلين بعدهذا إن شاء الله تعالى .

لكن الهجر ممن وصلك ثم قطعك لتنقيل واشٍ ، أو لذنب واقع ، أو لشيء قام فى النفس ، ولم يمل إلى سواك ، ولا أقام أحداً غيرك مقامك . والناسى فى هذا الفصل من المحبين ملوم دون سائر الأسباب الواقعة من المحبوب ؛ لأنه لاتقع حالة تقيم العذر فى نسيانه ، وإنما هو راغب عن وصلك ، وهو شيء لايلزمه . وقد تقدم من أذمة الوصال وحق أيامه ، مايُلْزم التذكر ويوجب عهد الألفة ، ولكن السالى على جهة التصبّر والتجلّد هاهنامعذور ، إذا رأى الهجر متمادياً ولم ير للوصال علامة ، ولاللمراجعة دلالة . وقد استجاز كثير من الناس أن يسموا هذا المعنى غدراً ، إذ ظاهرهما واحــد ، لكن علتيهما مختلفتان ، فلذلك فرقنا بينهما فى الحقيقة .

وأقول فى ذلك شعراً ، منه :

فكونوا كمن لم أدرِ قطُّ فإنَّنى ... كآخَرَ لم تدْرُوا ولم تَصِلوهُ

أنا كالصدَى ماقال كلٌّ أجيبهُ ... فما شِئتمُوهُ اليومَ فاعتمدوه

---

(١) فى كل الطبعات العربية « عبدالله » ، والصواب ما أثبتناه .

وأقول أيضاً قطعة ، ثلاثة أبيات قلتها وأنا نائم ، واستيقظت فأضفت إليها البيت الرابع :

ألاَ لِلهِ دهرٌ كنتَ فيـــه ... أعزَّ عليَّ مِن روحي وأهلِي
فما بَرِحتْ يدُ الهجرانِ حتىَّ ... طواك بنانُها طيَّ السجلِّ
سقانِى الصبرَ هجُرُكم كما قدْ ... سقانى الحبَّ وصلُكم بِسَجْلِ
وجدتُ الوصلَ أصلَ الوجدِحقًّا ... وطولَ الهجْرِ أصــلاً للتسلِّى

وأقول أيضاً قطعة ، منها :

لـــو قِيـــلَ لى مِن قَبْـــلِ ذا ... أَنْ ســـوف تســـلُو مَنْ تَوَدْ
لحـــلفتُ ألـــفَ قســـامةٍ ... لا كانَ ذا أبـــدَ الأبـــدْ
وإذا طـــويلُ الهجـــرِ ما ... معـــهُ من السُّـــلْوانِ بُـــدْ
لِلهِ هجـــرُكَ إنّـــه ... ســـاعٍ لـــبرئِى مُجْتَهِـــد
فالآنَ أعجـــبُ للســـلـــ ... ـــوِّ وكُنتُ أعجبُ للجلَدْ
وأرَى هـــــواكَ كجَمـــرةٍ ... تحتَ الـرَّمـــادِ لهـــا مَـــدَدْ

وأقول :

كانت جهنَّمُ فى الحشَى من حُبِّكمْ ... فلقـــد أراهـــا نارَ إبراهيمَـــا

ثم الأسباب الثلاثة الباقية التى هى من قِبَل المحبوب ، فالمتصبر من الناس فيها غير مذموم . لما سنورده إن شاء الله فى كل فصل منها .

فمنها نِفار يكون فى المحبوب ، وانزواء قاطع للأطماع .

* خبر :

وإنى لأخبرك عنى[٢] : أنى ألفت فى أيام صباى ، ألفةَ المحبة ، جارية نشأت

---

(٢) هذه القصة الجميلة التى سوف يرويها ابن حزم عن حب له ، أول ما عرف من كتاب الطوق ، وشاعت على نحو واسع ، ويعود الفضل فى ذيوعها إلى المستشرق الهولندى رينهارت دوزى (١٨٢٠ – ١٨٨٣م) فلم تكد عينه تقع عليها ، حتى أخذ بها ، وترجمها فى فرنسية رقيقة ، عذبة وصافية ، فى كتابه : « تاريخ مسلمى إسبانيا Histoire des musulmans d'Espagne وعنه ترجمها إلى الألمانية المستشرق الألمانى شاك Schack فى كتابه : « شعر العرب وفنهم فى إسبانيا وصقلية Poesie und Kunst der Araber in Spanien und Sizilien ». وحين ترجم الأديب الإسبانى خوان فليرا Juán Valera (١٨٢٧ – ١٩٠٥) هذا الكتاب إلى اللغة الإسبانية أعطى القصة

فى دارنا ، وكانت فى ذلك الوقت بنت ستة عشر عاماً ؛ وكانت غايةً فى حُسن وجهها وعقلها وعفافها وطهارتها وخفرها ودَماثتها ، عديمة الهزل ؛ منيعة البذل ، بديعة البشر ، مُسبلة الستر ، فقيدة الذام ، قليلة الكلام ؛ مغضوضة البصر ، شديدة الحذر ، نقية من العيوب ، دائمة القطوب ؛ حلوة الإعراض ، مطبوعة الانقباض ، مليحة الصدود ، رزينة القعود ، كثيرة الوقار ، مستلذة النفار ، لا توجه الأراجى نحوها ، ولا تقف المطامع عليها ، ولا معرس للأمل لديها ، فوجهها جالب كل القلوب ، وحالها طارد مَن أمَّها ، تزدان فى المنع والبخل ، ما لا يزدان غيرها بالسماحة والبذل ، موقوفة على الجد فى أمرها ، غير راغبة فى اللهو .

على أنها كانت تحسن العود إحساناً جيداً ، فجنحت إليها ، وأحببتها حباً مفرطاً شديداً ، فسعيت عامين أو نحوهما أن تجيبنى بكلمة ، وأسمع من فيها لفظة ، غير ما يقع فى الحديث الظاهر إلى كل سامع ، بأبلغ السعى فما وصلت من ذلك إلى شيء ألبتة .

فلعهدى بمُصطنع كان فى دارنا لبعض ما يصطنع له فى دور الرؤساء ، تجمعت فيه دخلتنا ، ودخلة أخى رحمه الله ، من النساء ونساء فتياننا ومن لاث بنا من خدمنا ، ممن يخف موضعه ، ويلطف محله ، فلبثن صدراً من النهار ، ثم تنقلن إلى قصبة كانت فى دارنا ، مشرفة على بُستان الدار ، ويطلع منها على جميع قرطبة وفحوصها[٣]، مفتحة الأبواب ، فصرن ينظرن من خلال الشراجيب وأنا بينهن ، فإنى لأذكر أنى كنت أقصد نحو الباب الذى هى فيه ، أنساً بقربها ، متعرضاً للدنو منها ، فما هو إلا أن ترانى فى جوارها فتترك ذلك الباب ، وتقصد غيره فى لطف الحركة ، فأتعمد أنا القصد إلى الباب الذى صارت إليه ، فتعود إلى مثل ذلك الفعل من الزوال إلى غيره .

وكانت قد علمت كلفى بها ، ولم يشعر سائر النسوان بما نحن فيه ، لأنهّن كنّ عدداً كثيراً . وإذا كلهن يتنقلن من باب إلى باب ، لسبب الاطلاع من بعض الأبواب

العذوبة نفسها ، ورغم ذلك قام المستشرق الإسبانى الشاب فرانسيسكو بونس بويجس Francisco Pons Boigues (١٨٦٣ - ١٨٩٩ م) بترجمتها مرة ثانية من اللغة العربية مباشرة ، وقد أثارت القصة جدلاً كبيراً حول عفة ابن حزم ، وعذرية الحب فى الأندلس ، وسندرس ذلك تفصيلاً فى كتابنا قيد النشر : « دراسات عن ابن حزم » .

(٣) الفحوص : الوديان والسهول والجبال المخضرة التى تحيط بقرطبة .

على جهات لا يطلع من غيرها عليها . واعلم أنّ قيافة النساء فيمن يميل إليهن أنفذ من قيافة مدلج فى الآثار .

ثم نزلن إلى البستان ، فرغب عجائزنا(٤) وكرائمنا إلى سيدتها فى سماع غنائها ، فأمرتْها ، فأخذت العود وسوته بخفر وخجل لاعهد لى بمثله ، وإن الشيء يتضاعف حسنه فى عين مستحسنه ، ثم اندفعت تغنى بأبيات العباس بن الأحنف حيث يقول :

إنِّى طربتُ إلى شمس إذا غربتْ كانتْ مغاربُها جوفَ المقاصيرِ
شمسٌ ممثَّلةٌ فى خَلْق جــارية كأنَّ أعطافَها طىٌّ الطوامير
ليستْ من الإنس إلاّ فى مناسبةٍ ولامِن الجنّ إلاّ فى التصاوير
فالوجهُ جوهرةٌ والجسمُ عَبْهرةٌ والريحُ عنبرةٌ والكلُّ من نور
كأنَّها حين تخطو فى مجاسدها تخطو على البيضِ أوحدِّ القوارير

فلعمرى لكأنّ المضراب إنما يقع على قلبى ، وما نسيت ذلك اليوم ، ولاأنساه إلى يوم مفارقتى الدنيا . وهذا أكثر ماوصلتُ إليه من التمكن من رؤيتها وسماع كلامها ، وفى ذلك أقول :

لاتَلُمْها على النفارِ ومَنْعِ الــــوَصْلِ ما هذا لها بنكيرِ
هل يكون الهلالُ غيرَ بعيدٍ أو يكونُ الغزال غيرَ نَفور

وأَقول :

مَنَعْتِ جمالَ وجهكِ مُقْلَتياً ولفظُكِ قد ضننتِ به علياً
أراكِ نذرتِ للرحمن صــوما فلستِ تكلِّمين اليوم حيـّـا
وقد غنّيْت للعباس شــعراً هنيئا ذا لعبّاسٍ هَنياً
فلو يلقاك عباسٌ لأضحى لفوزٍ قالياً وبِكمْ شَجياً

ثم انتقل أبى رحمه الله من دورنا المحدثة بالجانب الشرقى من قرطبة ، فى ربض الزاهرة ، إلى دورنا القديمة فى الجانب الغربى من قرطبة ببلاط مغيث ، فى اليوم

(٤) تطلق كلمة « عجوز » فى لهجة أهل الأندلس ، على أية امرأة متزوجة ، مهما كانت شابة ، فهى تتوقف على زواج الفتاة ، دون نظر إلى السن ، فكل متزوجة – حتى لو ترمّلت أو انفصلت عن زوجها فيما بعد – عجوز . والكلمة مستخدمة بهذا المعنى ، حتى يومنا هذا ، فى المغرب والجزائر وتونس ، وبخاصة فى المناطق التى استقبلت عدداً كبيراً من مهاجرى الأندلس ، حين طردوا من وطنهم بعد سقوط دولة الإسلام هناك ، وقد تم الطرد النهائى للإسبان المسلمين عام ١٦١٣م .

الثالث من قيام أمير المؤمنين محمد المهدى بالخلافة . وانتقلت أنا بانتقاله ، وذلك فى جمادى الآخرة سنة تسع وتسعين وثلثمائة[٥]، ولم تنتقل هى بانتقالنا لأمور أوجبت ذلك .

ثم شغلنا بعد قيام أمير المؤمنين هشام المؤيد بالنكبات ، وباعتداء أرباب دولته ، وامتحنا بالاعتقال والترقيب ، والإغرام الفادح والاستتار ، وأرزمت الفتنة ، وألقت باعها ، وعمت الناس ، وخصتنا ، إلى أن تُوفِّى أبى الوزيرُ رحمه الله ، ونحن فى هذه الأحوال ، بعد العصر يوم السبت لليلتين بقيتا من ذى القعدة عام اثنتين وأربعمائة[٦]

واتصلت بنا تلك الحال بعده ، إلى أن كانت عندنا جنازة لبعض أهلنا فرأيتها ، وقد ارتفعت الواعية[٧]، قائمة فى المأتم وسط النساء ، فى جملة البواكى والنوادب ، فلقد أثارت وجدا دفيناً ، وحرّكت ساكناً ، وذكرتنى عهداً قديماً ، وحبا تليداً، ودهراً ماضياً ، وزمناً عافياً ، وشهوراً خوالى ، وأخباراً بوالى ، ودهوراً فوانى، وأياماً قدذهبت ، وآثاراً قد دثرت ، وجدّدت أحزانى ، وهيجت بلابلى . على أنى كنت فى ذلك النهار مرزأ مصاباً من وجوه ، وما كنت نسيت ، ولكن زاد الشجى ، وتوقّدت اللوعة ، وتأكد الحزن ، وتضاعف الأسف ، واستجلب الوجد ما كان منه كامنا فلباه مجيباً . فقلت قطعة منها :

يُبَكِّى لمَيْتٍ ماتَ وهوَ مكرَّمٌ ولَلْحَىُّ أولى بالدموعِ الذوارفِ
فيا عجباً من آسفٍ لامرئٍ ثوى وما هُوَ للمقتول ظُلماً بآسف

ثم ضرب الدهر ضربانه ، وأجلينا عن منازلنا ، وتغلب علينا جند البربر فخرجت عن قرطبة أول المحرم سنة أربع وأربعمائة[٨]، وغابت عن بصرى بعد تلك الرؤية الواحدة ستة أعوام وأكثر .

ثم دخلت قرطبة فى شوال سنة تسع وأربعمائة[٩]، فنزلت على بعض نسائنافرأيتها هنالك ، وماكدت أن أميّزها حتى قيل لى هذه فلانة ، وقد تغير أكثر محاسنها ،

---

(٥) أى من ٣١ يناير إلى ٢٨ فبراير ١٠٠٩ بالتاريخ الميلادى

(٦) ٢٠ من يونية ١٠١٢م .

(٧) الواعية : الصراخ والصوت ، لا الصارخة .

(٨) ١٣ من يولية من عام ١٠١٣م .

(٩) من ١٠ فبراير إلى ١٠ مارس ١٠١٩م .

وذهبت نضارتها ، وفنيت تلك البهجة ، وغاض الماء الذى كان يُرى كالسيف الصقيل ، والمرآة الهندية ، وذبل ذلك النوار الذى كان البصر يقصد نحوه متنوراً ، ويرتاد فيه متخيراً ، وينصرف عنه متحيراً ، فلم يبق إلا البعض المنبئ عن الكل ، والخبر المخبر عن الجميع ، وذلك لقلة اهتبالها بنفسها ، وعدمها الصيانة التى كانت غذيت بها أيام دولتنا ، وامتداد ظلنا ، ولتبذلها فى الخروج فيما لابد لها منه ، مما كانت تصان وترفع عنه قبل ذلك .

وإنما النساء رياحين متى لم تُتعاهد نقصت ، وبنية متى لم يُهتبل بها استهدمت ، ولذلك قال من قال : إنّ حسن الرجال أصدق صدقاً ، وأثبت أصلا ، وأعتق جودة ، لصبره على مالو لقى بعضه وجوه النساء لتغيرت أشد التغير ، مثل الهجير والسموم والرياح واختلاف الهواء وعدم الكِنّ .

وإنى لونلت منها أقل وصل ، وأنست لى بعض الأنس ، لخولطت طرباً ، أولمت فرحاً ، ولكن هذا النفار الذى صبرنى وأسلانى .

وهذا الوجه من أسباب السلو صاحِبُهُ فى كلا الوجهين معذور وغير ملوم ، إذ لم يقع تثبت يوجب الوفاء ، ولا عهد يقتضى المحافظة ، ولا سلف ذمام ، ولا فرط تصادق يلام على تضييعه ونسيانه .

ومنها جفاء يكون من المحبوب ، فإذا أفرط فيه وأسرف وصادف من المحب نفساً لها بعض الأنفة والعزة تَسَلَّى ، وإذا كان الجفاء يسيراً منقطعاً أودائماً ، أو كبيراً منقطعاً ، احتمل وأغضى عليه ، حتى إذا كثر ودام فلا بقاء عليه ، ولا يلام الناسى لمن يحب فى مثل هذا .

ومنها الغدر ، وهو الذى لايحتمله أحد ، ولا يغضى عليه كريم ، وهو المِسلاة حقاً . ولا يلام السالى عنه على أى وجه كان ناسياً أو متصبراً ، بل اللائمة لاحقة لمن صبر عليه ، ولولا أن القلوب بيد مقلّبها لاإله إلاهو ، ولا يكلف المرء صرف قلبه ، ولا إحالة استحسانه ، لولا ذاك لقلت إن المتصبِّر فى سلوه مع الغدر يكاد أن يستحق الملامة والتعنيف . ولا أَدْعَى إلى السلوّ عند الحرِّ النفس ، وذوى الحفيظة ، والسرىّ السجايا ، من الغدر ، فما يصبر عليه إلا دنئ المروءة ، خسيس الهمة ، ساقط الأنفة .

وفى ذلك أقول قطعة ، منها :

هَواكِ فلستُ أَقْرَبُهُ غُرُورُ وأنتِ لكلِّ من يأتى سريرُ
وما إنْ تَصْبرينَ عـــلى حبيبٍ فحولكِ منهمُ عددٌ كثير
فلو كنتُ الأميرَ لما تعاطَى لقاءَك خوفَ جمعهمُ الأمير
رأيتُكِ كالأمانِى ما على مَن يلمُّ بها ولو كثُرُوا غُرور
ولا عنها لمن يأتِى دفاعُ ولو حَشَدَ الأنامَ لهم نفيرُ

ثم سبب ثامن ، وهو لا من المحب ولا من المحبوب ، ولكنّه من الله تعالى ، وهو اليأس ، وفروعه ثلاثة : إما موت ، وإما بيْن لايرجى معـه أوبة ، وإما عارض يدخل على المتحابيْن بعلّة المحب التى من أجلها وثق المحبوب فيغيرها .

وكل هذه الوجوه من أسباب السلو والتصبر . وعلى المحب القاسى ، فى هذا الوجه المنقسم إلى هذه الأقسام الثلاثة ، من الغضاضة والذم واستحقاق اسم اللوم والغدر غير قليل .

وإن لليأس لعملا فى النفوس عجيباً ، وثلجاً لحر الأكباد كبيراً . وكل هذه الوجوه المذكورة أولا وآخراً فالتأنى فيها واجب ، والتربص على أهلها حسن ، فيما يمكن فيه التأنى ، ويصـح لديه التربص ، فإذا انقطعت الأطماع ، وانحسمت الآمال فحينئذ يقوم العذر .

وللشعراء فن من الشعر يذمون فيه الباكى على الدمن ، ويثنون على المثابر على اللذات ، وهذا يدخل فى باب السلو . ولقد أكثر الحسن بن هانئ فى هذا الباب وافتخر به ، وهو كثيراً مايصف نفسه بالغدر الصريح فى أشعاره ، تحكما بلسانه ، واقتداراً على القول .

وفى مثل هذا أقول شعراً ، منه :

خلِّ هذا وبادرِ الدهرَ وارحلْ فى رياضِ الرُّبَى مَطىَّ العقارِ
واحْدُها بالبديعِ من نغماتِ الْ عودِ كَيْماَ تُحَثُّ بالمزمار
إنَّ خيراً من الوقوفِ على الدا رِ وقوفُ البنانِ بالأوتار
وبدا النرجسُ البديعُ كصبٍّ حائرُ الطرفِ مائلاً كالمدار
لونُه لونُ عاشقٍ مُستهامٍ وهو لاشكَّ هائمٌ بالبَهار

ومعاذ الله أن يكون نسيان مادرس لنا طبعاً ، ومعصية الله بشرب الراح لنا خلقاً ، وكساد الهمة لنا صفة ، ولكن حسبنا قول تعالى ، ومن أصدق من الله قيلا فى الشعراء : « أَلم تَرَ أَنَّهمْ فى كلِّ وادٍ يَهيمونَ ، وأَنَّهمْ يقولونَ مالا يَفْعلونَ »[١٠].فهذه شهادة الله العزيز الجبار لهم ، ولكن شذوذ القائل للشعر عن مرتبة الشعر خطأ .

وكان سبب هذه الأبيات أن ضنَى العامرية ، إحدى كرائم المظفر عبد الملك بن أبى عامر[١١]، كلفتنى صنعتها فأجبتها ، وكنت أجلها ، ولها فيها صنعة فى طريقة النشيد والبسيط رائقة جداً . ولقد أنشدتها بعض إخوانى من أهل الأدب فقال سروراً بها : يجب أن توضع هذه فى جملة عجائب الدنيا .

فجميع فصول هذا الباب كما ترى ثمانية : منها ثلاثة هى من المحب ، اثنان منها يُذمّ السالى فيهما على كل وجه ، وهما الملل والاستبدال ، وواحد منها يُذم السالى فيه ولا يذم المتصبِّر ، وهو الحياء كما قدمنا . وأربعة من المحبوب ، منها واحد يُذم الناسى فيه ولا يُذم المتصبر ، وهو الهجر الدائم ، وثلاثة لايذم السالى فيها على أى وجه كان ناسياً أو متصبِّراً ، وهى النفار والجفاء والغدر . ووجه ثامن وهو من قبل الله عز وجل ، وهو اليأس إما بموت أو بيْن أو آفة تزمن . والمتصبِّر فى هذه معذور .

وعنى أخبرك ، أنى جُبلت على طبيعتين لايهنئنى معهما عيش أبداً ، وإنى لأبرم بحياتى باجتماعهما ، وأود التثبّت من نفسى أحياناً ، لأفقد ما أنا بسببه من النكد من أجلهما ، وهما : وفاء لايشوبه تلوّن ، قد استوت فيه الحضرة والغيب ، والباطن والظاهر ، تولده الألفة التى لم تعزف بها نفسىعما دريته ، ولا تتطلع إلى عدم من صحبته . وعزة نفس لاتقرّ على الضيم ، مهتمة لأقل مايرد عليها من تغيّر المعارف ، مؤثرة للموت عليه . فكل واحدة من هاتين السجيتين تدعو إلى نفسها ، وإنى لأُجفى فأحتمل ، وأستعمل الأناة الطويلة ، والتلوّم الذى لا يكاد يطيقه أحد ، فإذا أفرط

---

(١٠) سورة الشعراء ، الآيتان : ٢٢٥ و٢٢٦

(١١) لم أجد فيما بين يدى من مصادر مايزيدنى معرفة بضنى العامرية هذه ، ابنة المظفر . أما أبوها فهو الأبن الأكبر للمنصور بن أبى عامر ، وخليفته فى الحجابة ، وعرضنا له أكثر من مرة . انظر :

- الباب الأول ، الهامش رقم ٢
- الباب الثانى ، الهامش رقم ٤
- الباب الرابع ، الهامش رقم ١

الأمر وحميت نفسى تصبّرت ، وفى القلب مافيه .

وفى ذلك أقول قطعة ، منها :

لى خلّتان أذاقانى الأسَى جُرَعاً ... وَنغّصاَ عِيشتى واستَهْلكاَ جَلَدِى

كلتاهما تَطّبينى نحــو جِبْلَتِـهَـا ... كالصيْدِ ينشبُ بين الذئب والأسـد

وفاءُ صدقٍ فما فارقتُ ذا مِقةٍ ... فزالَ حُزنى عليه آخِــر الأبَد

وعِزّةٌ لا يحلّ الضيْمُ ساحتَها ... صرامةً فيه بالأموال والولدِ

ومما يشبه مانحن فيه ، وإن كان آيس منه ، أن رجْلا من إخوانى كنت أحللته من نفسى محلّها ، وأسقطت المؤونة بينى وبينه ، وأعددته ذخراً وكنزاً،وكان كثير السمع من كل قائل ، فدب ذو النميمة بينى وبينه ، فحاكوا له ، وأنجح سعيهم عنده ، فانقبض عما كنت أعهده ، فتربّصت عليه مدة فى مثلها أوب الغائب ، ورضى العاتب ، فلم يزدد إلا انقباضاً فتركته وحاله .

٢٨
باب الموت

وربما تزايد الأمر ، ورق الطبع ، وعظم الإشفاق ، فكان سبباً للموت ومفارقة الدنيا ، وقد جاء فى الآثار : من عشق فعف فمات فهو شهيد .

وفى ذلك أقول قطعة ، منها :

فإنْ أَهْلِكْ هوًى أَهْلِكْ شهيداً   وإنْ تَمنُنْ بَقيتُ قَريرَ عَيْنِ
رَوَى هذا لنا قومٌ ثِقــــاتٌ   ثَوَوْا بالصدقِ عَنْ جَرْحٍ ومَيْنِ

ولقد حدثنى أبو السرى عمّار بن زياد[١] صاحبنا ، عمن يثق به ، أن الكاتب ابن قزمان امتحن بمحبة أسلم بن عبد العزيز ، أخي الحاجب هاشم بن عبد العزيز ، وكان أسلم غاية فى الجمال ، حتى أضجره لما به ، وأوقعه فى أسباب المنية . وكان أسلم كثير الإلمام به ، والزيارة له ، ولا علم له بأنه أصل دائه ، إلى أن توفى أسفاً ودنفاً[٢] .

---

(١) مر علينا أبو السرى عمار بن زياد مرتين فيما سبق ، مرة فى الباب الثالث ، وأخرى فى الباب السادس عشر .

(٢) أسلم بن عبدالعزيز ، اسمه كاملا : أبو الحسن أسلم بن أحمد بن سعيد بن أسلم بن عبدالعزيز ، وينتهى به نسبه إلى إبان بن عمرو،مولى عثمان بن عفان رضى الله عنه . وكان أسلم من كبار فقهاء الأندلس ، جلس إلى بقى بن مخلد ، وسمعه زمنا طويلاً ، ورحل إلى الشرق عام ٢٦٠هـ = ٨٧٣م حاجاً ، وتوقف فى القاهرة فدرس على أعلام المالكية ، ثم عاد إلى قرطبة ، وتولى فيها قضاء الجماعة مرتين وله كتاب فى « أغانى زرياب » كان مشهوراً على أيامه ، ضاع ولم يصلنا . توفى فى شهر رجب من عام ٣١٩ هـ = يولية ٩٣١ .

* هاشم بن عبد العزيز ، أخو أسلم وكبيره ، وكان هاشم خاصاً بالأمير محمد بن عبدالرحمن : يؤثره بالوزارة ، ويرشحه مع بنيه ، ومفرداً ، للقيادة والإمارة ، وولاه كورة جيان Jaén وقد اجتمعت فيه خصال لم تجتمع فى سواه من أهل زمانه ، إلى ما كان عليه من البأس والجود والفروسية والكتابة والبيان والبلاغة ، وقرض الأشعار البديعة ، إلى ماله من القديم والبيت والسابقة . ونكبه المنذر بن محمد لأشهر من خلافته ، بعد أن ولاه الحجابة ، أى رئاسة الوزارة تقريباً ، وأظهر عنه الرضا ، لأشياء حقدها عليه فى خلافة أبيه محمد ، فحبسه ، ثم قتله ، وهدم داره ، ونكل بأسرته ، ولم تخل دار بقرطبة من بكاء عليه ، فقد كان رحمة مبسوطة للعامة والخاصة . وكان مصرعه سنة ٢٧٣ هـ =٨٨٧م .

* ابن قزمان . أحمد بن قزمان ، الشهير بابن كليب الكاتب ، كان شاعراً أندلسياً نحوياً متفقهاً ، وكان يعشق أسلم ، وأوقف شعره عليه ، حتى فشت أخباره ، وجرت بها الألسنة ، وتنوشدت فى المحافل ، ومات بسبب حبه هذا كما فى القصة التى معنا ، ويظن أنه من أسلاف الشاعر الزجال ابن قزمان الذى عاش فى القرن الثانى عشر الميلادى

قال المخبر : فأخبرت أسلم بعد وفاته بسبب علته وموته فتأسف وقال: هلا أعلمتنى ؟ فقلت : ولم ؟ قال كنت والله أزيد فى صلته وما أكاد أفارقه ، فما علىّ فى ذلك ضرر.

وكان أسلم هذا من أهل الأدب البارع والتفنن ، مع حظ من الفقه وافر ، وذا بصارة فى الشعر ، وله شعر جيد ، وله معرفة بالأغانى وتصرّفها ، وهو صاحب تآليف فى طرائق غناء زرياب وأخباره ، وهو ديوان عجيب جدًّا . وكان أحسن الناس خَلْقاً وخُلُقاً ، وهو والد أبى الجعد الذى كان ساكناً بالجانب الغربى من قرطبة .

وأنا أعلم جارية كانت لبعض الرؤساء ، فعزف عنها لشىء بلغه فى جهتها لم يكن يوجب السخط فباعها . فجزعت لذلك جزعاً شديداً ، وما فارقها النحول والأسف ، ولا بان عن عينها الدمع إلى أن سلت ، وكان ذلك سبب موتها . ولم تعش بعد خروجها عنه إلا أشهراً ليست بالكثيرة . ولقد أخبرتنى عنها امرأة أثق بها ، أنّها لقيتها وهى قد صارت كالخيط نحـولاً ورقة ، فقالت لها : أحسب هذا الذى بك من محبتك لفلان ؟ فتنفست الصعداء وقالت : والله لا نسيته أبداً ، وإن كان جفانى بلا سبب . وما عاشت بعد هذا القول إلا يسيراً .

وأنا أخبرك عن أبى بكر أخى رحمه الله ، وكان متزوجاً بعاتكة بنت قَنْد[٣] ، صاحب

• رواية ابن حزم لقصة حب ابن قزمان لأسلم بن عبدالعزيز ، موجزة جداً وغامضة ، وأشك فى أن يد الناسخ قد امتدت إليها بالتلخيص ، ربما ورعا منه ، لأن تفاصيلها تضع يدنا على جانب غير محبب للورعين .

• ولكن الضبى فى كتابه « البغية » ، وداود الأنطاكى فى كتابه « تزيين الأسواق » أوردا القصة تفصيلاً ، ولا يتسع المقام لإيرادها هنا ، ولكن سوف ندرسها فى كتابنا : « دراسات عن ابن حزم » . انظر :

• الضبى : بغية الملتمس ، الترجمة رقم ٤٦٢ .
• داود الأنطاكى : تزيين الأسواق بتفصيل أشواق العشاق ، ص ١٦٢ ، القاهرة ١٣٣٨ هـ .
• ابن الأبار : الحلة السيراء ، جـ١ ، ص ١٣٧ وما بعدها .
• ابن سعيد : المغرب ، جـ٢ ص ٩٤

* Castejón Calderón : op. cit., p. 146.

(٣) ليس لدينا معلومات عن هذه الأسرة غير مايقدمه ابن حزم هنا ، وكل مانعرفه عنها ، أن عاتكة كانت رائعة الجمال ، وأن أباها قند كان مولى عبد الرحمن الناصر ، وأنه أصبح فى عهد المنصور بن أبى عامر قائد الثغر الأعلى ؛ ومقره مدينة سالم ، ويجب ألا نخلط بينه وبين مولى آخر لعبد الرحمن الناصر ، كان يحمل الاسم نفسه ، قند الأكبر ، وكان قائماً على خطة المواريث ، وتوفى عام ٣٠٤ هـ = ٩١٦ م . انظر :

• ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ٢ ص ٢٣٠

* Asin Palacios : Op. Cit.' Vol. I, p. 38, nota 34.

الثغر الأعلى أيام المنصور أبي عامر محمد بن عامر ، وكانت التى لا مرمى وراءها فى جمالها وكريم خلالها ، ولا تأتى الدنيا بمثلها فى فضائلها ، وكانا فى حد الصبا وتمكن سلطانه ، تُغْضِبُ كل واحد منهما الكلمة التى لا قدر لها ، فكانا لم يزالا فى تغاضب وتعاتب مدة ثمانية أعوام .

وكانت قد شفّها حبه ، وأضناها الوجد فيه ، وأنحلها شدة كلفها به،حتى صارت كالخيال المتوسم دنفا ، لايلهيها من الدنيا شيء ، ولا تسر من أموالها ، على عَرْضها وتكاثرها ، بقليل ولا كثير ، إذا فاتها اتفاقه معها وسلامته لها ، إلى أن توفى أخى رحمه‌الله فى الطاعون الواقع بقرطبة فى شهر ذى القعدة سنة إحدى وأربعمائة(٤)، وهو ابن اثنتين وعشرين سنة ، فما انفكت منذ بان عنها من السقم الدخيل والمرض والذبول إلى أن ماتت بعده بعام ، فى اليوم الذى أكمل هو فيه تحت الأرض عاماً .

ولقد أخبرتنى عنها أمها وجميع جواريها أنها كانت تقول بعده : ما يقوِّى صبرى ، ويمسك رمقى فى الدنيا ساعة واحدة بعد وفاته ، إلاّ سرورى وتيقنى أنه لايضمه وامرأة مضجع أبداً ، فقد أمنتُ هذا الذى ماكنتُ أتخوّف غيره ، وأعظم آمالى اليوم اللحاق به .

ولم يكن له قبلها ولا معها امرأة غيرها ، وهى كذلك لم يكن لها غيره ، فكان كما قدرت ، غفر الله لها ورضى عنها .

وأمّا خبر صاحبنا أبى عبدالله محمد بن يحيى بن محمد بن الحسين التميمى ، المعروف بابن الطبنى(٥): فإنه كان رحمه الله كأنّه قد خُلِقَ الحسن على مثاله ، أوخُلِقَ

---

(٤) يونيه ١٠١١م .

(٥) بيت الطبنى ، أسرة قرطبية شهيرة ، ينسبون إلى طبنة ، قاعدة منطقة الزاب فى المغرب ، وتمتد جنوب مدينة قسنطينة الحالية ، بين شط هدنة وجبال أوراس ، ونزلت بها جمـاعات من مهاجرة العرب منذ أيام الفتح الأولى ، واختلطوا بالنازلين هناك من البربر ، ومعظمهم من هوارة . وكان الزاب الأعلى من الناحية الإدارية تابعاً لولاية أفريقية ، أى تونس الحالية ، ولهذا كان عربه يعدون أنفسهم من عرب أفريقية . أما الزاب الأسفل فكان معدودا فى المغرب الأوسط ، أى الجزائر الحالية .

وكان أول من طرأ على الأندلس منهم ، أبو مضر زيادة الله بن على التميمى ، على أيام المنصور بن أبى عامر ، ومالبث أبو مضر أن أصبح بأدبه وظرفه نديم المنصور . وقد استقر به المقام فى قرطبة ، وترك خلفا صالحاً وكثيراً ، فكان من أبنائه وأحفاده شعراء وأدباء وعلماء ورجال دولة ، وقد جمع ابن بسام فى كتابه : « الذخيرة » شطراً كبيراً من أشعارهم . وأخبارهم متناثرة فى شتى مصادر تاريخ الأندلس . انظر مثلا :

من نفس كل من رآه ، لم أشهد له مثلا حُسْناً وجمالا وخلقاً ، وعفة وتصاوناً وأدباً ، وفهماً وحلماً ووفاء ، وسؤدداً وطهارة وكرماً ، ودماثة وحلاوة ولباقة ، وإغضاء وعقلا ومروءة ، وديناً ودراية ، وحفظاً للقرآن والحديث والنحو واللغة ، وشاعراً مفلقاً ، حسن الخط ، وبليغاً مفنّناً ، مع حظ صالح من الكلام والجدل ، وكان من غلمان أبى القاسم عبد الرحمن بن أبى يزيد الأزدى، أستاذى فى هذا الشأن .

وكان بينه وبين أخيه[٦] اثنا عشر عاماً فى السن ، وكنت أنا وهو متقاربين فى الأسنان ، وكنا أليفين لانفترق ، وخدنين لايجرى الماء بيننا إلّاصفاء ، إلى أن ألقت الفتنة جرانها ، وأرخت عزاليها ، ووقع انتهاب جند البربر منازلنا فى الجانب الغربى بقرطبة ، ونزولهم فيها ، وكان مسكن أبى عبدالله فى الجانب الشرقى ببلاط مغيث ، وتقلّبت بى الأمور إلى الخروج عن قرطبة ، وسكنى مدينة المرية ، فكنا نتهادى النظم والنثر كثيراً ، وآخر ماخاطبنى به رسالة فى درجها هذه الأبيات :

ليتَ شِعْرى عن حَبْلِ وُدِّكَ هل يُمـ ـسِى جديداً لدىَّ غَيْرَ رَثيثِ

وأَرانِى أَرَى مُحيَّاكَ يومـــاً وأناجيـك فى بَلاَط مُغيث

فلو انَّ الديارَ يُنْهِضُهاَ الشـــوْ قُ أتاكَ البلاطُ كالمستغيثِ

ولو أنَّ القلوبَ تَسْطيعُ سَيْراً سار قلبِى إليكَ سَيْرَ الحثيث

كُنْ كما شئتَ لى فإنى مُحِبٌّ ليس لى غيرُ ذكركمْ من حديث

لَكَ عندِى وإنْ تناسيتَ عَهْدٌ فى صميمِ الفؤادِ غيرُ نكيثِ

فكنّا على ذلك إلى أن انقطعت دولة بنى مروان ، وقُتل سليمان الظافر أمير المؤمنين[٧] وظهرت دولة الطالبية[٨]، وبويع على بن حمود الحسنى ، المسمى بالناصر

- ابن بسام : الذخيرة ، القسم الأول ، المجلد الثانى ، ص ٥٢ وما بعدها
- ابن بشكوال : الصلة ، الترجمة رقم ٤٧٤ .
- ابن سعيد : المغرب ، جا ، ص ٩٢ وما بعدها .
- الضبى : بغية الملتمس ، الترجمة رقم ٣١٦ .

(٦) فى الأصل ، وفى كل الطبعات العربية « . . وبين أبيه » ، ولا يتأتى ، فصوّبتها على نحوما فى الأصل .

(٧) يلقب عادة بسليمان المستعين . انظر :

- الباب السابع ، الهامش رقم ٢

(٨) الطالبية ، نسبة إلى الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، لأنهم ينتسبون إلى أدريس الأول مؤسس دولة الأدارسة فى المغرب ، وكان إدريس يذهب بنسبه إلى الإمام على ، فهم علويون إذن ،وكانت بداية دولتهم فى

بالخلافة ، وتغلب على قرطبة وتملّكها ، واستمر فى قتاله إياها بجيوش المتغلّبين والثوّار فى أقطار الأندلس .

وفى إثر ذلك نكبنى خيران[٩] صاحب المرية ، إذ نقل إليه من لم يتق الله عز وجل من الباغين – وقد انتقم الله منهم – عنى وعن محمد بن إسحاق صاحبى[١٠]، أنانسعى فى القيام بدعوة الدولة الأموية ، فاعتقلنا عند نفسه أشهرا ، ثم أخرجنا على جهة التغريب ، فصرنا إلى حصن القصر[١١] ، ولقينا صاحبه أبو القاسم عبدالله بن محمد بن هذيل التجيبى . المعروف بابن المُقَفَّل[١٢]. فأقمنا عنده شهوراً فى خير دار إقامة ، وبين خير أهل وجيران ، وعند أجل الناس همة ، وأكملهم معروفاً ، وأتمهم سيادة .

ثم ركبنا البحر قاصدين بلنسية عند ظهور أمير المؤمنين المرتضى عبد الرحمن بن محمد ، وساكنّاه بها . فوجدت ببلنسية أبا شاكر عبد الواحد بن محمد بن مَوْهِب

الأندلس الأخوين علياً والقاسم ابنى حمود بن أبى العيش ، وقد عينهما الخليفة المستعين حاكمين على منطقة العدوة ، أى مضيق جبـــل طارق بشاطئيه الأوربى والإفريقى ، فاستقر علىّ حاكماً فى مدينة سبتة ، وذهب القاسم حاكماً على الجزيرة الخضراء ، ولما قوى مركزهما أخذا يمهدان للاستيلاء على الخلافة.وهكذا اقتحم على بن حمود مدينة قرطبة فى ٢٢ محرم ٤٠٧ هـ = أول يولية ١٠١٦ م ، وعزل المستعين وقتله ، وأخاه عبدالرحمن وأباه الحكم ، وتولى الخلافة متلقباً بالناصر لدين الله . وكان ذلك بداية غروب شمس الخلافة فى الأندلس . انظر :

* ابن الأبار : الحلة السيراء ، جـ ٢ ص ٢٦
* ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ٣ ص ١١٩
* Seco de Lucena Luis : Los Hammudies, Senores de Màlaga y Algeciras, Màlaga 1955.

(٩) عن خيران صاحب المرية ، انظر : الباب ٢٤ الهامش الثانى .

(١٠) عن محمد بن إسحاق ، انظر :

* الباب الثانى ، الهامش رقم ٤
* والباب الخامس ، الهامش رقم ١

(١١) حصن القصر Aznalcàzar قرية صغيرة ، ماتزال قائمة حتى يومنا هذا فى مقاطعة إشبيلية .

(١٢) لم أهتدله إلى ترجمة فيما بين يدى من مصادر

(١٣) بلنسية Valencia مدينة ، ومحافظة ، كبيرة فى شرق إسبانيا ، على شاطئ البحر المتوســـط ، وهى مشهورة بخصبها ، ومزارعها الواسعة ، وبساتينها المثمرة ، وقد تأصلت فيها الحضارة العربية منذ وقت مبكر ، وازدهرت على نحو واضح ، وكانت منذ أيام الفتح الأولى مهبط عدد كبير من الأسر العربية العريقة ، وموطن عدد من كبار الشعراء ، ، تميزوا بنهج فنى محدد ، فهم يصدرون فى إلهامهم عن الطبيعة ، ومنها اتخذوا مادة إبداعهم الشعرى ، كابن خفاجة ، وابن الزقاق ، والرصافى وابن عميرة ، وغيرهم . وتعرضت لغزو السيد القنبيطور ، فاقترن اسمه بها ، وقد سقطت نهائياً فى يد الكاثوليك بقيادة خايمة الأول ملك أرجون الملقب بالفاتح Jaime I el Conquistador سنة ٦٣٦ هـ = ١٢٣٨ م . انظر :

القبرى[١٤] صديقنا ، فنعى إلىّ أبا عبدالله بن الطبنى وأخبرنى بموته رحمه الله ، ثم أخبرنى بعد ذلك بمدينة القاضى أبو الوليد يونس بن محمد المُرَادى ، وأبوعمر وأحمد ابن محرز[١٥]: أن أبا بكرمصعب بن عبدالله الأزدى ، المعروف بابن الفرضى[١٦]، حدّثهما ، وكان والد مصعب هذا قاضى بلنسية أيام أمير المؤمنين المهدى ، وكان مصعب لنا صديقاً وأخاً وأليفاً ، أيام طلبنا الحديث على والده ، وسائر شيوخ المحدِّثين بقرطبة ، قالا : قال لنا مصعب :

سألت أبا عبدالله بن الطبنى عن سبب علته ، وهو قد نحل ، وخفيت محاسن وجهه بالضنى ، فلم يبق إلا عين جوهرها ، المخبر عن صفاتها السالفة ، وصار يكاد أن يطيّره النفس ، وقرب من الانحناء ، والشجاباد على وجهه ، ونحن منفردان . فقال

- عبد المنعم الحميرى : الروض المعطار ، ص ٤٧
- غرسية غومث : مع شعراء الأندلس والمتنبى ، ص ١٦٩ وما بعدها ترجمة الدكتور الطاهر أحمد مكى ، القاهرة ١٩٧٤
- الطاهر أحمد مكى : ملحمة السيد ، ص ١٢٣ وما بعدها ، دار المعارف بالقاهرة ١٩٧٠ .

* Piles Ibàrs Andrés : Valencia àrabe, 2 tomos, Valencia, 1901.
* Ribera y Tarrago Juliàn : Historia arabe Valenciana, en : **Disertaciones** y opusculos. p. 177 ss., Madrid 1928.

(١٤) أبوشاكر عبد الواحد بن محمد بن موهب القبرى ، وليس عبدالرحمن ، أو العنبرى ، كما ورد فى كل الطبعات العربية ، نسبة إلى بلدة قبرة **Cabra**، وتقع جنوبى قرطبة ، وإليها ينسب مقدم بن معافى القبرى ، مخترع الموشحات.وقد ترجم الضبى فى كتابه« البغية » لأبى شاكر ، وذكر أنه فقيه ومحدث وأديب وخطيب وشاعر ، وأورد له أبياتا من الشعر برواية ابن حزم ، وأنه نشأ بقرطبة ، وسكن شاطبة ، وولى الأحكام بها ، وتوفى ٤٥٦ هـ = ١٠٦٤ م .
انظر :

- الضبى : البغية ، الترجمة رقم ١١٠٧ .
- ابن بشكوال : الصلة ، الترجمة رقم ٨٢٤ .
- الحميدى : جذوة المقتبس ، الترجمة رقم ٦٥٥

(١٥) عن أبى الوليد يونس بن محمد المرادى ، انظر :

- الباب الثالث والعشرين ، الهامش رقم ٢ .

وأما أبوعمرو أحمد بن محرز ، فلم أستطع الاهتداء له إلى أية ترجمة فى المصادر المختلفة .

(١٦) مصعب بن عبدالله بن محمد بن يوسف بن نصر الأزدى ، يكنى أبا بكر ، من أهل قرطبة ، وهو ولد القاضى أبى الوليد بن الفرضى ، صاحب كتاب : « تاريخ علماء الأندلس » ، **الذى قتل فى فتنة قرطبة** .

وكان مصعب أديباً إخبارياً محدثاً شاعراً ، ولى الحكم بالجزيرة وتوفى بعد عام ٤٤٠ هـ = ١٠٤٨ م ، انظر :

- الضبى : البغية ، الترجمة رقم ١٣٧٨ .
- ابن بشكوال : الصلة ، الترجمة رقم ١٣٨٠

لى : نعم ، أخبرك أنى كنت فى باب دارى بغدير ابن الشماس[١٧] فى حين دخول علي بن حمود قرطبة ، والجيوش واردة عليها من الجهات تتسارب ، فرأيت فى جملتهم فتى لم أقدر أن للحسن صورة قائمة حتى رأيته ، فغلب على عقلى ، وهام به لبى ، فسألت عنه فقيل لى : هذا فلان بن فلان ، من سكان جهة كذا ، ناحية قاصية عن قرطبة ، بعيدة المأخذ ، فيئست من رؤيته بعد ذلك . ولعمرى يا أبا بكر لا فارقنى حبّه أو يوردنى رمسى .

فكان كذلك ، وأنا أعرف ذلك الفتى وأدريه ، وقد رأيته ، لكنى أضربت عن اسمه لأنه قد مات ، والتقى كلاهما عند الله عز وجل ، عفا الله عن الجميع .

هذا على أنّ أبا عبدالله ، أكرم الله نزله ، ممن لم يكن له ولهٌ قط ، ولافارق الطريقة المثلى : ولا وطئ حراماً قط ، ولا قارف منكراً ، ولا أتى منهياً عنه يخل بدينه ومروءته ، ولا قارض من جفا عليه ، وما كان فى طبقتنا مثله .

ثم دخلت أنا قرطبة ، فى خلافة القاسم بن حمود المأمون[١٨]، فلم أقدم شيئاً على قصد أبى عمرو القاسم بن يحيي التميمى[١٩]، أخى عبدالله رحمه الله . فسألته عن حاله ، وعزيته عن أخيه، وما كان أولى بالتعزية عنه منى . ثم سألته عن أشعاره ورسائله ، إذ كان الذى عندى منه قد ذهب بالنهب فى السبب الذى ذكرته فى صدر هذه الحكاية ، فأخبرنى عنه أنه لما قربت وفاته ، وأيقن بحضور المنية ، ولم يشكّ فى الموت ، دعا بجميع شعره ، وبكتبى التى كنت خاطبته أنا بها ، فقطعها كلّها ، ثم أمر بدفنها . قال أبو عمرو : فقلت له : يا أخى دعها تبقى . فقال : إنى أقطعها وأنا أدرى أنى أقطع فيها أدباً كثيراً ، ولكن لو كان أبو محمد بعينى حاضراً لدفعتها إليه ، تكون عنده تذكرة لمودتى ، ولكنى لا أعلم أى البلاد أضمرته ، ولا أحيّ هو أم ميت . وكانت نكبتى اتصلت به ، ولم يعلم مستقرى ، ولا إلى ما آل إليه أمرى .

---

(١٧) فى كل الطبعات العربية ، وفى الأصل : « بقديد الشماس » وصححها ليفى بروفنسال : « بغدير ابن الشماس » ، وهو حى فى قرطبة انظر :

* Lévi-Provençal : op. cit., vol V, p. 247, nota 128.

(١٨) انظر الهامش رقم ٨ من هذا الباب .

(١٩) أبو عمرو القاسم بن يحيي التميمى ، أخو أبى عبدالله محمد بن يحيي التميمى ، الذى تحدثنا عنه فى الهامش رقم ٥ من هذا الباب ، وأورد له الضبى فى البغية ترجمة موجزة تحت رقم ١٣١١ .

فمن مراثىّ له قصيدة ، منها :

لئن سَتَرَتْكَ بطـــونُ اللحودِ   فَوَجْدِيَ بَعْــــدَكَ لا يَسْتَتِرْ
قَصَدتُ دِيارَكَ قَصْدَ المشُوقِ   وللدهْرِ فينا كُرُورٌ ومَرّْ
فألفيتُهَا منكَ قفـــراً خلاءً   فأسكبتُ عَيْني عليكَ العِبَرْ

وحدثنى أبوالقاسم الهمذانى[٢٠] رحمه الله قال : كان معنا ببغداد أخ لعبدالله ابن يحيى بن أحمد دحون الفقيه[٢١]، الذى عليه مدار الفتيا بقرطبة ، وكان أعلم من أخيه وأجل مقداراً ، ما كان فى أصحابنا ببغداد مثله ، وأنه اجتاز يوماً بدرب قطنة ، فى زقاق لا ينفذ ، فدخل فيه فرأى فى أقصاه جارية واقفة مكشوفة الوجه ، فقالت له : ياهذا ، إن الدرب لاينفذ ، قال : فنظر إليها فهام بها . قال : وانصرف إلينا فتزايد عليه أمرها . وخشى الفتنة فخرج البصرة فمات بها عشقاً رحمه الله ، وكان فيما ذكر من الصالحين .

* حكاية :

لم أزل أسمعها عن بعض ملوك البربر ، أن رجلاً أندلسياً باع جارية ، كان يجد بها وجدا شديد ، لفاقة أصابته ، من رجل من أهل ذلك البلد ، ولم يظن بائعها أن نفسه تتبعها ذلك التتبع . فلما حصلت عند المشترى كادت نفس الأندلسى تخرج . فأتى إلى الذى ابتاعها منه ، وحكّمه فى ماله أجمع وفى نفسه ، فأبى عليه . فتحمل

(٢٠) سوف يتحدث عنه ابن حزم فيما بعد ، فى الباب التاسع والعشرين ، الهامش رقم ٣١ ، وسوف يذكرلنا أنه كان حيّا فى قرطبة عام ٤٠١ هـ = ١٠١٠ م ، ومع ذلك يتساءل غرسية غومث ، هل هو أبوالقاسم محمد بن على ابن البواق الهمدانى ، الذى ترجم له الضبى فى كتابه « البغية » ، رقم ٢٣٥ ، وأورد عنه سطوراً قليلة ، وذكر له أبياتاً من الشعر فى الزهد ، وقال عنه إنه توفى ٣٩٥ هـ = ١٠٠٤ م ؟

(٢١) عبد الله بن يحيى بن أحمد الأموى ، يعرف بابن دحون ، ويكنى أبا محمد ، من أهل قرطبة ، كان من جلة الفقهاء وكبارهم ، عالماً بالفتوى ، عارفاً بالشروط وعللها ، بصيراً بالأحكام ، مشاوراً فيها . وكان أستاذاً لابن حزم ، وتوفى ٤٣١ هـ = ١٠٤٠ م .

وثمة فقيه آخر كان يعرف بابن دحون أيضاً ، وله المكانه نفسها ، ولكنه توفى ٢٣١هـ = ٨٤٥م . انظر :

* ابن بشكوال : الصلة ، الترجمة رقم ٥٩٠

* Asin Palacios : Op. Cit., Vol. I, p. 108.
* Castejàn Calderón : Op. Cit., p. 60.

عليه بأهل البلد فلم يسعف منهم أحد .. فكاد عقله أن يذهب . ورأى أن يتصدى إلى الملك ، فتعرض له وصاح ، فسمعه فأمر بإدخاله ، والملك قاعد فى علية له مشرفة عالية فوصل إليه . فلما مثل بين يديه أخبره بقصته ، واسترحمه وتضرع إليه . فرق له الملك ، فأمر بإحضار الرجل المبتاع فحضر ، فقال له : هذا رجل غريب . وهو كما تراه ، وأنا شفيعه إليك فأبى المباع وقال : أنا أشد حبًّالها منه ، وأخشى إن صرفتها إليه أن أستغيث بك غداً وأنا فى أسوأ من حالته .

فعرض له الملك ومن حواليه من أموالهم ، فأبى ولج واعتذر بمحبته لها ، فلما طال المجلس . ولم يروا منه ألبتة جنوحاً إلى الإسعاف ، قال للأندلسى : ياهذا . مالك بيدى أكثر مما ترى . وقد جهدت لك بأبلغ سعى ، وهو تراه يعتذر بأنه فيها أحب منك وأنه يخشى على نفسه شرًّا مما أنت فيه ، فاصبر لما قضى الله عليك . فقال له الأندلسى : فمالى بيدك حيلة ؟ قال له : وهل هاهنا غير الرغبة والبذل ، ما أستطيع لك أكثر..

فلما يئس الأندلسى منها جمع يديه ورجليه ، وانصب من أعلى العلية إلى الأرض ، فارتاع الملك وصرخ ، فابتدر الغلمان من أسفل ، فقضى أنه لم يتأذ فى ذلك الوقوع كبير أذى ، فصعد به إلى الملك ، فقال له : ماذا أردت بهذا ؟ فقال : أيها الملك ، لاسبيل لى إلى الحياة بعدها ، ثم همَّ أن يرمى نفسه ثانية فمُنع .

فقال الملك : الله أكبر ، قد ظهر وجه الحكم فى هذه المسألة ، ثم التفت إلى المشترى فقال : ياهذا ، إنك ذكرت أنك أودّ لها منه ، وتخاف أن تصير فى مثل حاله . فقال : نعم . قال : فإن صاحبك هذا أبدى عنوان محبته . وقذف بنفسه يريد الموت ، لولا أن الله عز وجل وقاه فأنت قم فصحح حبك ، وترام من أعلى هذه القصبة . كما فعل صاحبك ، فإن مت فبأجلك ، وإن عشت كنت أولى بالجارية ، إذ هى فى يدك ، ويمضى صاحبك عنك ، وإن أبيت نزعت الجارية منك رغما ودفعتها إليه .

فتمنّع ثم قال : أترامى . فلما قرب من الباب ، ونظر إلى الهوى تحته رجع القهقرى ، فقال له الملك : هو والله ماقلت ، فهمّ ثم نكل ، فلما لم يقدم قال له الملك : لاتتلاعب بنا ، ياغلمان ، خذوا بيديه ، وارموا به إلى الأرض ، فلما رأى العزيمة قال : أيها الملك ، قد طابت نفسى بالجارية . فقال : جزاك الله خيرا . فاشتراهامنه ، ودفعها إلى بائعها : وانصرفا .

٢٩

باب قبح المعصية

قال المصنف رحمه الله تعالى :

وكثير من الناس يطيعون أنفسهم ، ويعصون عقولهم ، ويتبعون أهواءهم ، ويرفضون أديانهم ، ويتجنبون ماحض الله تعالى عليه ورتّبه فى الألباب السليمة ، من العفة ، وترك المعاصى ، ومقارعة الهوى ، ويخالفون الله ربهم ، ويوافقون إبليس فيما يحبه من الشهوة المعطبة ، فيواقعون المعصية فى حبهم . وقد علمنا أن الله عزوجل ركب فى الإنسان طبيعتين متضادتين :

إحداهما لاتشير إلاّ بخير ، ولا تحض إلاّ على حسن ، ولا يتصور فيها إلاّ كل أمر مرضى ، وهي العقل ، وقائده العدل .

والثانية ضدٌّ لها لا تشير إلاّ إلى الشهوات ، ولا تقود إلاّ إلى الردَى ، وهى النفس ، وقائدها الشهوة ، والله تعالى يقول : « إنَّ النفسَ لأمَّارةٌ بالسوءِ »[١] وكَنَّى بالقلب عن العقل فقال : « إنَّ فى ذلك لذكرَى لمنْ كانَ له قلبٌ أو ألْقَى السمْعَ وهو شهيدُ »[٢]. وقال تعالى : « وحبَّبَ إليْكُمُ الإيمانَ وزيَّنَهُ فى قُلوبِكُمْ »[٣] وخاطب أولى الألباب .

فهاتان الطبيعتان قطبان فى الإنسان ، وهما قوّتان من قوى الجسد الفعال بهما ، ومطرحان من مطارح شعاعات هذين الجوهرين العجيبين الرفيعين العلويين ، ففى كل جسد منهما حظه ، على قدر مقابلته لهما فى تقدير الواحد الصمد ، تقدّست أسماؤه ، حين خلقه وهيّأه . فهما يتقابلان أبداً ، ويتنازعان دأباً ، فإذا غلب العقلُ النفس ارتدع الإنسان ، وقمع عوارضه المدخولة ، واستضاء بنور الله ، واتبع العدل ، وإذا غلبت النفسُ العقل عميت البصيرة ، ولم يتضح الفرق بين الحسن والقبيح ، وعظم الالتباس ، وتردى فى هوة الردى ومهواة الهلكة . وبهذا حسن الأمر والنهى ،

---

(١) سورة يوسف ، الآية ٥٣ .

(٢) سورة ق ، الآية ٣٧ .

(٣) سورة الحجرات ، الآية ٧ .

ووجب الاكتمال ، وصح الثواب والعقاب ، واستحق الجزاء .

والروح واصل بين هاتين الطبيعتين ، وموصل مابينهما ، وحامل الالتقاء بهما ، وإن الوقوف عند حد الطاعة لمعدوم إلا مع طول الرياضة ، وصحة المعرفة ، ونفاذ التمييز ومع ذلك اجتناب التعرض للفتن ، ومداخلة الناس جملة ، والجلوس فى البيوت ، وبالحرى أن تقع السلامة المضمونة أو يكون الرجل حصوراً لا أرب له فى النساء ، ولا جارحة له تعينه عليهن، وقديماًورد: «من وقى شر لقلقه وقبقبه وذبذبه فقد وقى شر الدنيا بحذافيرها » . واللقلق : اللسان ، والقبقب : البطن . والذبذب : الفرج .

ولقد أخبرنى أبو حفص الكاتب ، وهو من ولدروح بن زنباع الجذامى ، أنه سمع بعض المتسمين باسم الفقه من أهل الرواية المشاهير ، وقد سئل عن هذا الحديث فقال : القبقب : البطيخ .

وحدثنا أحمد بن محمد بن أحمد ، حدثنا وهب بن مسرة ، ومحمد بن أبى دَلِيم عن محمد بن وضاح ، عن يحي بن يحي(٤) ، عن مالك بن أنس ، عن

---

(٤) تضم سلسلة الإسناد هذه خمسة من الأندلسيين :

- أحمد بن محمد بن أحمد بن برد ، أبو عمر ، ويقول الحميدى عنه فى « الجذوة » إنه رآه بالمرية بعد عام ٤٤٠ هـ = ١٠٤٨ م ، يزور ابن حزم فى بيته ، أثناء إقامة هذا هناك ، أكثر من مرة ، وأورد له الضبى فى «البغية» أبياتاً رقيقة من الشعر ، فى وصف الطبيعة وفى الغزل ، وسنلتقى به ثانية بعد قليل فى حديث آخر . انظر :
  - الضبى ، البغية ، الترجمة رقم ٣٥٤ .
- وهب بن مسرة بن مفرج التميمى ، يكنى أبا الحسن ، من وادى الحجارة Guadaljaraمدينة قائمة حتى الآن شرق مدريد ، درس الحديث ، وأصبح أستاذاً يدرس مدونة سحنون ، ومسند ابن أبى شيبة ، وأورد لنا فهرسة بشيوخة ، وتفسيراً للقرآن ، وضاعت كلها فيا أعلم . وتوفى عام ٣٤٦ هـ = ٩٥٧ م ، انظر :
  - ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ، الترجمة رقم ١٥١٦
- عبدالله بن محمد بن عبدالله بن أبى دليم ، يكنى أبا محمد ، من قرطبة ، عمل قاضياً لمدينة إلبيرة ، ثم المرية ، وشغل منصب القضاء فى قرطبة ، حيث توفى عام ٣٥١ هـ = ٩٦٢م . انظر :
  - ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ، الترجمة رقم ٧٠٥
- محمد بن وضاح ، أبو عبدالله ، قرطبى المولد والنشأة ، وقف نفسه على درس الحديث وتدريسه ، ورحل إلى المشرق ، ودرس على الإمام أحمد بن حنبل ، وجاء معه فى أحد رحلاته بمسند ابن أبى شيبة ، وكتبا أخرى فى الحديث ، عمر طويلاً ، وتوفى عام ٢٨٧ هـ = ٩٠٠ م ، انظر :
  - الضبى : البغية ، الترجمة رقم ٢٩١ .
- يحي بن يحي الليثى ، أشهر الفقهاء وأقواهم نفوذاً فى عصر الإمارة ، ينحدر من أصول بربرية ، ولد فى قرطبة ،

زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يسار : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى حديث* طويل : « من وقاه الله شر اثنتين دخل الجنة . فسئل عن ذلك فقال : مابين لحييه وما بين رجليه »

وإنى لأسمع كثيراً ممن يقول : الوفاء فى قمع الشهوات فى الرجال دون النساء ، فأطيل العجب من ذلك ، وإن لى قولا لا أحول عنه : الرجال والنساء فى الجنوح إلى هذين الشيئين سواء . وما رجل عرضت له امرأة جميلة بالحب ، وطال ذلك ، ولم يكن ثمّ من مانع إلا وقع فى شرك الشيطان ، واستهوته المعاصى ، واستفزّه الحرص ، وتغوّله الطمع . وما امرأة دعاها رجل بمثل هذه الحالة إلا وأمكنته ، حتماً مقضيا ، وحكما نافذا لا محيد عنه ألبتة .

ولقد أخبرنى ثقة صدق من إخوانى ، من أهل التمام فى الفقه والكلام والمعرفة ، وذو صلابة فى دينه ، أنه أحبَّ جارية نبيلة أديبة ذات جمال بارع ، قال : فعرضتُ لها فنفرت ، ثم عرضتُ فأبت . فلم يزل الأمر يطول وحبها يزيد ، وهى لاتطيع ألبتة ، إلى أن حملنى فرط حبي لها مع عمَى الصبا على أن نذرتُ أنى متى نلت منها مرادى أنْ أتوب إلى الله توبة صادقة . قال : فما مرّت الأيام والليالى حتى أذعنت بعد شماس ونفار . فقلت له : أبا فلان ، وفيت بعهدك ؟ فقال . أى والله ، فضحكت .

وذكرت بهذه الفعلة مالم يزل يتداول فى أسماعنا ، من أن فى بلاد البربر التى تجاور أندلسنا ، يتعهد الفاسق على أنه إذا قضى وطره ممن أراد أن يتوب إلى الله ،

ورحل إلى المشرق طلباً للعلم ، وتتلمذ على الإمام مالك ، وقد أعجب الأستاذ بطالبه ، وأطلق عليه لقب « عاقل الأندلس » .

وجاء القاهرة ودرس فيها على أعلام المالكية ، وأمضى ثمانى سنوات بين المدينة والقاهرة ، وعاد إلى وطنه بعلم وفير . ورفض أن يتولى أى منصب رسمى ، ولكن نفوذه كان أكبر من أى موظف ، وابن حزم يجعله ثالث اثنين بلغ نفوذهما قدراً كبيراً ، فى عزل القضاة وتعيينهم وأثر بالتالى فى الاتجاه الثقافى : أبو يوسف فى العراق ، وسحنون فى المغرب ، ويحيى فى الأندلس . وتوفى يحيى عام ٢٣٤ هـ = ٨٤٩ م .

ومعلوماتنا عنه وفيرة ، ولا يخلو مصدر أندلسى من الإشارة إليه ، انظر مثلاً :

- ابن سعيد : المغرب ، جـ١ ص ١٦٣ .
- المقرى : نفح الطيب ، جـ٢ ص ٢١٧ .
- ابن فرحون : الديباج المذهب ، ص ٣٥٠

* Castejón : op. cit., p. 57.
* Lóper Ortiz : La Recepción de la escuela malequi en Espana, en : "A.H. D.E.", VII, p. 65 - 74.

فلا يُمنع من ذلك . وينكرون على من تعرّض له بكلمة ، ويقولون له : أتحرم رجلاً مسلماً التوبة .

قال : ولعهدى بها تبكى وتقول : والله لقد بلغتنى مبلغاً ماخطر قط لى ببال ، ولا قدرت أن أجيب إليه أحداً .

ولست أبعد أن يكون الصلاح فى الرجال والنساء موجوداً ، وأعوذ بالله أن أظن غير هذا ، وإنى رأيت الناس يغلطون فى معنى هذه الكلمة ، أعنى الصلاح ، غلطاً بعيداً ، والصحيح فى حقيقة تفسيرها أن الصالحة من النساء هى التى إذا ضبطت انضبطت ، وإذا قطعت عنها الذرائع أمسكت . والفاسدة هى التى إذا ضبطت لم تنضبط ، وإذا حيل بينها وبين الأسباب التى تسهل الفواحش تحيّلت فى أن تتوصل إليها بضروب من الحيل .والصالح من الرجال من لايداخل أهل الفسوق ، ولايتعرض إلى المناظر الجالبة للأهواء ، ولا يرفع طرفه إلى الصورة البديعة التركيب . والفاسق من يعاشر أهل النقص ، وينشر بصره إلى الوجوه البديعة الصنعة ، ويتصدّى للمشاهد المؤذية ، ويحب الخلوات المهلكات ، والصالحان من الرجال والنساء كالنار الكامنة فى الرماد ، لا تحرق من جاورها إلا بأنْ تُحرك ، والفاسقان كالنار المشتعلة تحرق كل شيء .

وأمّا امــرأة مهملة ، ورجل متعرض ، فقد هلكا وتلفا . ولهذا حَرُمَ على المسلم الالتذاذ بسماع نغمة امرأة أجنبية . وقد جعلت النظرة الأولى لك والأخرى عليك ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من تأمّل امرأة وهو صائم حتى يرى حجم عظامها فقد أفطر » . وإن فيما ورد من النهى عن الهوى بنص التنزيل لشيئاً مقنعاً . وفى إيقاع هذه الكلمة ، أعنى الهوى ، اسماً على معان ، واشتقاقها عند العرب ، وذلك دليل على ميل النفوس وهويّها إلى هذه المقامات . وإن المتمسك عنها مقارع لنفسه ، محارب لها .

وشىء أصفه لك تراه عياناً ، وهو أنى مارأيت قط امرأة فى مكان تحس أن رجلا يراها ، أو يسمع حسها ، إلاّ وأحدثت حركة فاضلة كانت عنها بمعزل ، وأتت بكلام زائد كانت عنه فى غنية ، مخالفيْن لكلامها وحركتها قبل ذلك . ورأيت التهمم لمخارج لفظها ، وهيئة تقلبها ، لائحاً فيها ، ظاهراً عليها ، لاخفاء به .

والرجال كذلك إذا أحسوا بالنساء .

وأمّا إظهار الزينة ، وترتيب المشى ، وإيقاع المزاح عند خطور المرأة بالرجل ، واجتياز الرجل بالمرأة ، فهذا أشهر من الشمس فى كل مكان ، والله عز وجل يقول : « قُلْ للمؤْمنينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُروجَهُمْ »[٥] وقال تقدست أسماؤه : « ولاَ يَضْرِبْنَ بأرجُلِهِنَّ ليعلمَ ما يخفينَ من زِينَتِهِنّ »[٦] . فلو لا علم الله عز وجل برقة إغماضهن فى السعى لإيصال حبّهن إلى القلوب ، ولطف كيدهن فى التحيّل لاستجلاب الهوى ، لما كشف الله عن هذا المعنى البعيد الغامض ، الذى ليس وراءه مرمى ، وهذا حد التعرُّض فكيف بما دونه .

ولقد أُطلعت من سر معتقد الرجال والنساء فى هذا على أمر عظيم ، وأصل ذلك أنى لم أحسن قط بأحد ظنا فى هذا الشأن ، مع غيرة شديدة رُكِّبت فِىَّ .

وحدثنا أبو عمرو أحمد بن محمد بن أحمد ، حدثنا أحمد ، حدثنا أحمد بن على ابن رفاعه ، حدثنا على بن عبدالعزيز ، حدثنا أبو عبيد القاسم بن سلام عن شيوخه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « الغيرة من الإيمان » . فلم أزل باحثاً عن أخبارهن ، كاشفاً عن أسرارهن ، وكن قد أنسن منى بكتمان ، فكن يطلعننى على غوامض أمورهن ، ولولا أن أكون منبهاً على عورات يُستعاذ بالله منها ، لأوردت من تنبههن فى الشر ، ومكرهن فيه ، عجائب تذهل الألباب .

وإنى لأعرف هذا وأتقنه ، ومع هذا ، يعلم الله وكفى به عليماً ، أنى برىء الساحة ، سليم الأديم ، صحيح البشرة ، نقى الحجزة ، وإنى أقسم بالله أجل الإقسام أنى ماحللت مئزرى على فرج حرام قط ، ولا يحاسبنى ربى بكبيرة الزنا مذ عقلت إلى يومى هذا . والله المحمود على ذلك ، والمشكور فيما مضى ، والمستعصم فيما بقى .

حدثنا القاضى أبو عبد الرحمن بن عبدالله بن عبدالرحمن بن جحَّاف المعافرى ، وإنه لأفضل قاض رأيته ، عن محمد بن إبراهيم الطليطلى ، عن القاضى بمصر بكر بن العلاء ، فى قول الله عز وجل : « وأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ »[٧]، أن لبعض المتقدمين

(٥) سورة النور ، الآية ٣٠

(٦) سورة النور ، الآية ٣١ .

(٧) سورة الضحى ، الآية ١١

فيه قولا ، وهو أنّ المسلم يكون مخبراً عن نفسه ، بما أنعم الله تعالى به عليه من طاعة ربه ، التى هى من أعظم النعم ، ولا سيما فى المفترض على المسلمين اجتنابه واتباعه .

وكان السبب فيما ذكرته . أنى كنت وقت تأجج نار الصبا ، وشرة الحداثة ، وتمكنّ غرارة الفتوة ، مقصورا محظرا علىّ بين رقباء ورقائب ، فلما ملكتُ نفسى وعقلت ، صحبتُ أبا على الحسين بن على الفاسى(٨) ، فى مجلس أبى القاسم عبدالرحمن بن أبى يزيدالأزدى(٩) ،شيخنا وأستاذى رضى الله عنه ، وكان أبو على المذكور عاقلا عاملا عالماً ، ممن تقدم فى الصلاح والنسك الصحيح فى الزهد فى الدنيا ، والاجتهاد للآخرة ، وأحسبه كان حصوراً ، لأنه لم تكن له امرأة قط ، وما رأيت مثله جملة علماً وعملاً ودينا وورعاً فنفعنى الله به كثيراً ، وعلمت موقع الإساءة ، وقبح المعاصى ، ومات أبو على رحمه الله فى طريق الحج .

وقد ضمنى المبيت ليلة ، فى بعض الأزمان ، عند امرأة من بعض معارفى ،مشهورة بالصلاح والخير والحزم ، ومعها جارية من بعض قراباتها ، من اللاتى قد ضمتها معى النشأة فى الصبا ، ثم غبت عنها أعواماً كثيرة . وكنت تركتها حين أعصرت ، ووجدتها قد جرى على وجهها ماء الشباب ففاض وانساب ، وتفجرت عليها ينابيع الملاحة فترددت وتحيّرت ، وطلعت فى سمـاء وجهها نجوم الحسن فأشرقت وتوقدت ، وانبعثت فى خديها أزاهير الجمال فتمت واعتمت ، فأتت كما أقول :

خريدةٌ صاغَها الرحمنُ من نُور ... جلّتْ ملاحتُهَا عن كلِّ تَقْدِيرِ
لوجاءنى عملِى فى حُسْنِ صورتِها ... يومَ الحسابِ ويومَ النفْخ فى الصُّور
لكنتُ أحظىَ عبادِ اللهِ كلِّهِمُ ... بالجنتيْنِ وقُرْبِ الخرّدِ الحُور .

وكانت من أهل بيت صباحة ، وقد ظهرت على صورة تعجز الوصاف ، وقد طبّق وصف شبابها قرطبة ، فبت عندها ثلاث ليال متوالية ، ولم تحجب عنى على جارى العادة فى التربية . فلعمرى لقد كاد قلبى أن يصبو ويثوب إليه مرفوض الهوى ، ويعاوده منسىّ الغزل . ولقد امتنعت بعد ذلك من دخول تلك الدار ، خوفاً على

---

(٨) عرضنا له فى الباب الواحد والعشرين ، فى الهامش رقم ٧

(٩) عرّفنا بأبى القاسم عبد الرحمن بن أبى يزيد الأزدى المصرى ، فى الهامش رقم ٤ من الباب الواحد والعشرين .

لى أن يزدهيه الاستحسان . ولقد كانت هى وجميع أهلها ممن لاتتعدّى الأطماع إليهن ، ولكن الشيطان غير مأمون الغوائل ، وفى ذلك أقول :

لا تُتبع النفسَ الهـوَى ودعِ التعرُّضَ للمِحنْ
إبليسُ حيٌّ لم يَمُتْ والعينُ بابٌ للفِتَنْ

وأقول :

وقائلٍ لىَ هـذا ظنٌّ يزيدك غيـًّا
فقلتُ دعْ عنك لومِى أليسَ إبليسُ حيـًّا

وما أوردَ الله تعالى علينا من قصة يوسف بن يعقوب ، وداود بن إيشى رسل الله عليهم السلام ، إلاّليعلمنا نقصاننا وفاقتنا إلى عصمته ، وأنّ بنيتنا مدخولة ضعيفة ، فإذا كانا صلى الله عليهما ، وهما نبيان رسولان ، أبناء أنبياء رسل ، ومن أهل بيت نبوّة ورسالة ، متكررين فى الحفظ ، مغموسين فى الولاية ، محفوفين بالكلاءة ، مؤيدين بالعصمة ، لايجعل للشيطان عليهما سبيل ، ولا فتح لوسواسه نحوهما طريق ، وبلغاحيث نصَّ اللهُ عز وجل علينا فى قرآنه المنزل ، بالجبلة الموكلة ، والطبع البشرى ، والخلقة الأصيلة،لابتعمدالخطيئة ولا القصد إليها ، إذ النبيون مبرءون من كل ما خالف طاعة الله عز وجل ، لكنه استحسان طبيعى فى النفس للصور ، فمن ذا الذى يصف نفسه بملكها ، ويتعاطى ضبطها ، إلا بحول الله وقوته .

وأول دم سفك فى الأرض فدم أحد ابنى آدم على سبب المنافسة فى النساء ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « باعدوا بين أنفاس الرجال والنساء » وهذه امرأة من العرب تقول ، وقد حبلت من ذى قرابة لها ، حين سئلت : مابيطنك ياهند ؟ فقالت : قرب الوساد وطول السواد .

وفى ذلك أقول شعراً ، منه :

لا تَلُمْ مَن عرَّضَ النفْسَ لمـا ليس يَرْضَى غيرُهُ عند المِحَنْ
لا تُقرِّبْ عرْفَجاً مِن لهَـبٍ ومتى قرَّبْتَهُ قامتْ دُخَنْ
لا تُصرِّفْ ثقةً فى أحـدٍ فَسَدَ الناسُ جَميعاً والزمَنْ
خلِقَ النِّسْوَانُ للفحْلِ كما خُلِقَ الفَحْلُ بلا شَكٍّ لهنْ
كلُّ شَكْلٍ يَتَشَهَّى شكلَهُ لا تكُنْ عنْ أحدٍ تَنْنِى الظِنَنْ

صفةُ الصالحِ مَن إنْ صُنْتَهُ ... عن قبيح أَظْهرَ الطوْعَ الحسَنْ
وسواهُ مَن إذا ثقَّفْتَــــه ... اعملَ الحِيلةَ فى خَلْعِ الرسَنْ

وإنى لأعلم فتى من أهل الصيانة قد أولع بهوى له ، فاجتاز بعض إخوانه فوجده قاعداً مع من كان يحب ، فاستجلبه إلى منزله ، فأجابه إلى منزله بامتثال المسير بعده . فمضى داعيه إلى منزله وانتظره حتى طال عليه التربّص فلم يأته . فلما كان بعد ذلك ، اجتمع به داعيه فعدّد عليه ، وأطال لومه على إخلافه موعده ، فاعتذر وورى . فقلت أنا للذى دعاه : أنا أكشف عذره صحيحاً من كتاب الله عز وجل إذ يقول : « ما أخلَفْنَا موْعدكَ بملكنا ولكِنّا حُمِّلْنَا أَوْزاراً مِن زِينةِ القومِ »[١٠] ، فضحك من حضر . وكُلِّفتُ أن أقول فى ذلك شيئاً فقلت :

وجرحُكَ لِى جُرْحٌ جُبَارٌ فلا تَلُمْ ... ولكنَّ جُرْحَ الحبِّ غيرُ جُبَارِ
وقد صارتِ الخِيلانُ وَسْطَ بياضِهِ ... كَنِيلُوفَرٍ حفَّتْهُ روضُ بَهارِ
وكم قال لى من مُتُّ وَجْداً بحبِّهِ ... مقالةَ مَحْلولِ المقالةِ زارى
وقد كثُرتْ منِّى إليه مطالبٌ ... ألحُّ عليــــه تارةً وأُدارى
أما فى التوانِى ما يبرِّد غُــــلَّةً ... ويُذْهِبُ شَوْقاً فى ضلوعِكَ سارى
فقلتُ له لوْكانَ ذلك لم تكنْ ... عـــداوةُ جارٍ فى الأنامِ لجارِ
وقدتَتَراءَى العَسْكَرانِ لدىالوغَى ... وبينهما للموتِ سُبْلُ بوار

ولى كلمتان قلتهما معرّضاً ، بل مصرّحاً ، برجل من أصحابنا كنا نعرفه كلنا ، من أهل الطلب والعناية والورع وقيام الليل ، واقتفاء آثار النساك ، وسلوك مذاهب المتصوفين القدماء ، باحثاً مجتهداً ، وقد كنا نتجنب المزاح بحضرته ، فلم يمض الزمن حتى مكّن الشيطان من نفسه ، وفتك بعد لباس النسّاك ، وملك إبليس من خطامه فسوّل له الغرور ، وزيّن له الويل والثبور ، وأجرّه رسنه بعد إباء ، وأعطاه ناصيته بعد شماس ، فخبّ فى طاعته وأوضع ، واشتهر بعد ماذكرته فى بعض المعاصى القبيحة الوضرة ، ولقد أطلت ملامه ، وتشددت فى عذله ، إذ أعلن بالمعصية بعد استتار ، إلى أن أفسده ذلك ضميره علىّ ، وخبثت نيته لى ، وتربّص بى دوائر السوء ، وكان بعض أصحابنا يساعده بالكلام استجراراً إليه ، فيأنس به ، ويظهر له عداوتى ،

---

(١٠) سورة طه ، الآية ٨٧ .

إلى أنْ أظهر الله سريرته ، فعلمها البادى والحاضر ، وسقط من عيون الناس كلهم بعد أن كان مقصداً للعلماء ، ومنتاباً للفضلاء ، ورذل عند إخوانه جملة . أعاذنا الله من البلاء ، وسترنا فى كفايته ، ولا سلبنا مابنا من نعمته ، فياسوءتاه لمن بدأ بالاستقامة ولم يعلم أن الخذلان يحل به ، وأن العصمة ستفارقه ، لا إله إلا الله ، ما أشنع هذا وأفظعه . لقد دهمته إحدى بنات الحرس ، وألقت عصاها به أم طبق ، من كان لله أولا ثم صار للشيطان آخرا .

ومن إحدى الكلمتين :

أمّا الغلامُ فقد حانتْ فضيحَتُهُ ... وإنّه كان مَستوراً فقد هُتكِا
مازالَ يضحكُ من أهْلِ الهوَى عجباً ... فالآنَ كلٌّ جهولٍ منه قد ضَحِكا
إليكَ لاتَلْحُ صبًّا هائماً كَلفاً ... يرى التّهتُّكَ فى دينِ الهوَى نسُكا
قدكان دهراً يُعانى النُسْكَ مجتهداً ... يُعَدُّ فى نُسْكِهِ كلٌّ امرئٍ نُسُكَا
ذو مَخْبَرٍ وكتابٍ لا يُفارِقُـــــه ... نحوَ المحدِّثِ يسعىَ حيثُ ماسَلَكا
فاعتاضَ مِن سُمْرِأقلام بَنانَ فتًى ... كأنَّهُ مِن لُجَيْنٍ صِيغ أو سُبكا
يا لائمى سَفَهاً فى ذاكَ قِلَّ فلم ... تَشْهَدْ جبِينَيْنِ يوم الملتَقى اشتَبَكَا
دَعْنِى ووِرْدِىَ فى الآبارِ أطْلُبهُ ... إليكَ عنِّى كذا لا أبتغى البَرَكا
إذا تعفَّفْتَ عفَّ الحبُّ عنكَ وإنْ ... تركْتَ يوماً فإنَّ الحبَّ قد تَرَكا
ولاتحُلُّ من الهجرانِ مُنْعقداً ... إلاَّ إذا ماحلَلْتَ الأزْرَ والتِكَكَا
ولا تُصحِّحُ للسلطانِ مملكةٌ ... أو تدخُلُ البرْدُ عن إنفاذِهِ السِكَكا
ولا بغيْرِكثيرِ المسْحِ يذهبُ ما ... يعلُو الحديدَ من الأصداءِ إن سُبكا

وكان هذا المذكور من أصحابنا قد أحكم القراءات إحكاماً جيداً ، واختصر كتاب الأنبارى فى « الوقف والابتداء »[١١] اختصاراً حسناً ، أعجب به من رآه من المقرئين ، وكان دائباً على طلب الحديث وتقييده ، والمتولى لقراءة مايسمعه على الشيوخ

(١١) القاسم بن محمد بن بشار الأنبارى ، المتوفى عام ٣٠٣ هـ = ٩١٦ م ، من أهل الأنبار ، سكن بغداد ، ووقف نفسه على العلم ، وعرف بالأدب والأخبار ، ولدينا من مؤلفاته : شرح المفضليات ، وخلق الإنسان ، والأمثال ، وغريب الحديث ، وشرح القصائد السبع الطوال . انظر :

- ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ١ ص ٥٠٣ .
- ياقوت : معجم الأدباء ، جـ٦ ، ص ١٩٦ . طبعة ، مصر ١٩٠٧ – ١٩٢٥

المحدثين ، مثابراً على النسخ مجتهداً به . فلما امتحن بهذه البلية مع بعض الغلمان رفض ما كان معتنياً به ، وباع أكثر كتبه ، واستحال استحالة كلية ، نعوذ بالله من الخذلان ، وقلت فيه كلمة ، وهى التالية للكلمة التى ذكرت منها فى أول خبره ، ثم تركتها .

وقد ذكر أبو الحسين أحمد بن يحيى بن إسحاق الراوندى[١٢] فى كتاب « اللفظ والإصلاح » : أن إبراهيم بن سيار النظام رأس المعتزلة[١٣]. مع علو طبقته فى الكلام ، وتمكنه وتحكمه فى المعرفة ، تسبّب إلى ماحرّم الله عليه من فتى نصرانى عشقه ، بأن وضع له كتاباً فى تفضيل التثليث على التوحيد . فياغوثاه ! عياذك يارب من تولّج الشيطان ، ووقوع الخذلان .

وقد يعظم البلاء ، وتكلب الشهوة ، ويهون القبيح ، ويرق الدين ، حتى يرضى الإنسان فى جنب وصوله إلى مراده بالقبائح والفضائح ، كمثل مادهم عبيدالله بن يحيى الأزدى المعروف بابن الجزيرى[١٤]، فإنه رضى بإهمال داره ، وإباحة حريمه ، والتعريض بأهله ، طمعاً فى الحصول على بغيته من فتى كان علقه. نعوذ بالله من الضلال ، ونسأله الحياطة وتحسين آثارنا ، وإطابة أخبارنا ، حتى لقد صار المسكين حديثاً تعمر به المحافل ، وتصاغ فيه الاشعار ، وهو الذى تسميه العرب الديوث . وهو مشتق من التدييث ، وهو التسهيل . وما بعد تسهيل من تسمح نفسه بهذا الشأن تسهيل ، ومنه بعير مديث ، أى مذلل . ولعمرى إن الغيرة لتوجد فى الحيوان بالخلقة ، فكيف وقد أكدتها عندنا الشريعة ، وما بعد هذا مصاب .

ولقدكنت أعرف هذا المذكور مستوراً إلى أن استهواه الشيطان ، ونعوذ بالله من الخذلان .

---

(١٢) أبو الحسين أحمد بن يحيى بن إسحاق الراوندى ، وجاءت فى الطبعات العربية الرويدى ، كان معتزلياً ، ثم صار شيعياً ، ثم تغير إلى الإلحاد ، وله مؤلفات تمثل ذلك الاضطراب الذى عاش فيه ، وتوفى عام ٣٠٣ هـ = ٩١٦ م انظر الدراسة الخاصة به فى :

• عبد الرحمن بدوى : تاريخ الإلحاد فى الإسلام .

• الشهر ستانى : الملل والنحل ، جا ص ٨١ و ٩٦ ، طبعة محمود توفيق ، القاهرة .

(١٣) انظر الباب الأول ، الهامش رقم ١١

(١٤) عرفنا به فى الباب ١٩ ، الهامش رقم ١٠ .

وفيه يقول عيسى بن محمد بن محمل الخولانى[١٥] :

ياجاعلاً إخراج حُرِّ نسائِه شَرَكاً لصيْدِ جآذِرِ الغِزْ لأَن
إنِّى أرَى شَرَكاً يمزَّقُ ثم لا تَحْظَى بغيرِ مذلَّةِ الحِرْمان

وأقول أنا أيضاً :

أباحَ أبو مَرْوانَ حُرَّ نسائِهِ ليبلُغَ مايهوَى من الرشأ الفَرْدِ
فعاتَبْتُهُ الديُّوثَ فى قُبْح فعلِهِ فأنشدنِى إنشادَ مُسْتَبْصِرٍ جَلْدِ
لقد كُنتُ أدركْتُ المُنَى غيْرَ أنَّنِى يُعَيِّرُنِى قومِى بإدراكِها وحْدِى

وأقول أيضاً :

رأيْتُ الجزيرىَّ فيما يُعانِى قليلَ الرشادِ كثيرَ السفَاهِ
يبيعُ ويبتاعُ عِرْضاً بِعِرْضٍ أمورٌ وجدِّكَ ذاتُ اشتباهِ
ويأخذُ ميماً بإعطاء هــــاءٍ ألاَ هكذا فليكنْ ذُو النواهِى
ويبذُلُ أرضاً تُغذِّى النباتَ بأرضٍ تُحَفُّ بشوْكِ العِضَاهِ
لقد خابَ فى تَجْرِهِ ذو ابتياع مَهَبَّ الرِياحِ بمجْرَى المِياهِ

ولقد سمعته فى المسجد الجامع يستعيذ بالله من العصمة ، كما يُستعاذ به من الخذلان .

ومما يشبه هذا أنى أذكر أنى كنت فى مجلس فيه إخوان لنا ، عند بعض مياسير أهل بلدنا ، فرأيت بين بعض من حضر وبين من كان بالحضرة أيضاً ، من أهل صاحب المجلس أمراً أنكرته ، وغمزاً استبشعته ، وخلوات الحين بعد الحين ، وصاحب المجلس كالغائب أو النائم ، فنبهته بالتعريض فلم ينتبه ، وحركته بالتصريح فلم يتحرك ، فجعلت أكرر عليه بيتين قديمين لعله يفطن . وهما هذان :

إنَّ إخوانَهُ المقيمينَ بالأمْـ ـسِ أتوْا للزناء لا للْغِناء
قطعوا أمرَهُمْ وأنتَ حمــارٌ موقَرٌ مِن بلادَةٍ وغبــاء

وأكثرت من إنشادهن حتى قال لى صاحب المجلس : قد أمللتنا من سماعهما فتفضل بتركهما أو إنشاد غيرهما ، فأمسكت وأنا لا أدرى أغافل هو أم متغافل ، وما أذكر أنى عدت إلى ذلك المجلس بعدها .

---

(١٥) لم أهتد له إلى ترجمة له فيما وقفت عليه من مصادر .

وقلت فيه قطعة منها :

أنتَ لا شكَّ أحسنُ الناسِ ظنًّا ويقينـــاً ونيَّـــةً وضميرَا
فانتبهْ إنَّ بعضَ مَنْ كان بالأمـ ـسِ جليساً لنا يُعانى كبيرَا
ليسَ كلُّ الركوعِ فاعلمْ صلاةً لاَ ولاَ كلُّ ذى لحاظٍ بصيرَا

وحدثنى ثعلب بن موسى الكلادانى قال : حدثنى سليمان بن أحمد الشاعر[١٦] قال : حدثتنى امرأة اسمها هند كنت رأيتها فى المشرق ،وكانت قد حجّت خمس حجّات ، وهى من المتعبّدات المجتهدات ، قال سليمان : فقالت لى : يا ابن أخى ، لاتحسن الظن بامرأة قط ، فإنى أخبرك عن نفسى بمايعلمه الله عزوجل : ركبت البحر منصرفة من الحج وقد رفضت الدنيا ، وأنا خامسة نسوة كلهن قد حججن ، وصرنا فى مركب فى بحر القلزم ، وفى بعض ملاحى السفينة رجل مضمر الخلق ، مديد القامة،واسع الأكتاف ، حسن التركيب ، فرأيته أول ليلة قد أتى إلى إحدى صواحبى فوضع إحليله فى يدها وكان ضخماً جدًّا ، فأمكنته فى الوقت من نفسها. ثم مر علىهن كلهن فى ليال متواليات ، فلم يبق له غيرها ، تعنى نفسها ، قالت : فقلت فى نفسى : لانتقمن منك ، فأخذت موسى وأمسكتها بيدى ، فأتى فى الليل على جارى عادته ، فلما فعل كفعله فى سائر الليالى سقطت الموسى عليه فارتاع وقام لينهض . قالت : فأشفقت عليه وقلت له ، وقد أمسكته ، لا زلتَ أو آخذ نصيبى منك . قالت العجوز : فقضى وطره وأستغفر الله .

وإن للشعراء من لطف التعريض عن الكناية لعجبا ، ومن بعض ذلك قولى حيث أقول :

أتانِى وماءُ المُزْنِ فى الجوِّ يسْفَكُ كمحْضِ لُجَيْن إذ يمدُّ ويُسْبَكُ
هلالُ الدياجِى انحطَّ من جوِّ أُفْقه فَقُلْ فى محبٍّ نالَ ماليس يُدْرَك
وكان الذى إنْ كُنتَ لِى عنهُ سائِلاً فمالِى جوابٌ غَيْرَ أَنِّىَ أَضْحَكُ
لفرْطِ سرورِى خِلْتُنِى عنه نائماً فيا عجباً مِن مُوقِنٍ يَتَشكَّك

(١٦) لم أجد فيما بين يدى من مصادر ترجمة لثعلب بن موسى ، أما سليمان بن أحمد الشاعر ، فقد عرض لنا من قبل مرتين وعرفنا به . انظر :
* الباب الخامس والعشرين ، الهامش رقم ١

وأقول أيضاً قطعة منها :

أَتَيْتنى وهــلالُ الجــوِّ مُطَّلِعُ ... قُبَيْلَ قَرْعِ النصارَى للنواقيسِ

كحاجبِ الشيخ عمّ الشيْبُ أكثَرهُ ... وأَخْمص الرَجْلِ فى لُطْفٍ وتَقْوِيس

ولاحَ فى الأفْقِ قوْسُ الله مكتسياً ... مِن كلِّ لونٍ كأذنابِ الطواويس

وإنّ فيما يبدو إلينا من تعادى المتواصلين فى غير ذات الله تعالى بعد الألفة ، وتدابرهم بعد الوصال ، وتقاطعهم بعد المودة ، وتباغضهم بعد المحبة ، واستحكام الضغائن ، وتأكد السخائم فى صدورهم ، لكاشفاً ناهياً لوصادف عقولا سليمة ، وآراء نافذة ، وعزائم صحيحة ، فكيف بما أعدّ الله لمن عصاه من النكال الشديد يوم الحساب وفى دار الجزاء ، ومن الكشف على رءوس الخلائق ، « يَوْمَ ترونَها تذهلُ كلُّ مُرْضِعَةٍ عمَّا أَرْضَعَتْ ، وتَضَعُ كلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَهاَ ، وترَى النَاسَ سُكَارَى وما هُمْ بِسُكَارَى ، ولكنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيد »[١٧]. جعلنا الله ممن يفوز برضاه ويستحق رحمته .

ولقد رأيت امرأة كانت مودتها فى غير ذات الله عزوجل ، فعهدتها أصفى من الماء ، وألطف من الهواء ، وأثبت من الجبال ، وأقوى من الحديد ، وأشد امتزاجاً من اللون فى الملون ، وأنفذ استحكاماً من الأعراض فى الأجسام ، وأضوأ من الشمس ، وأصح من العيان ، وأثقب من النجم ، وأصدق من كُدر القطا وأعجب من الدهر ، وأحسن من البر ، وأجمل من وجه أبى عامر[١٨] ، وألذ من العافية ، وأحلى من المنى ، وأدنى من النفس ، وأقرب من النسب ، وأرسخ من النقش فى الحجر .

ثم لم ألبث أن رأيت تلك المودة قد استحالت عداوة أفظع من الموت ، وأنفذ من السهم ، وأمر من السقم ، وأوحش من زوال النعم ، وأقبح من حلول النقم ، وأمضى من عقم الرياح ، وأضر من الحمق ، وأدهى من غلبة العدو ، وأشد من

---

(١٧) سورة الحج ، الآية ٢

(١٨) ابن المظفر عبد الملك ، وحفيد المنصور بن أبى عامر ، انظر :

- الباب الثانى ، الهامش رقم ٤ .
- الباب الرابع ، الهامش رقم ١ .
- الباب الواحد والعشرين ، الهامش رقم ٨ .

الأسر ، وأقسى من الصخر ، وأبغض من كشف الأستار ، وأنأى من الجوزاء ، وأصعب من معاناة السماء ، وأكبر من رؤية المصاب ، وأشنع من خرق العادات ، وأفظع من فجأة البلاء ، وأبشع من السم الزعاف ؛ وما لا يتولد مثله عن الذحول والترات ، وقتل الآباء وسبي الأمهات . وتلك عادة الله فى أهل الفسق ، القاصدين سواه ، الآمّين غيره ، وذلك قوله عزوجل : « ياليتنى لم أتخِذْ فلاناً خليلاً ، لقدأضلَّنِي عن الذكْرِ بعدإذْ جَاَءنِي »[١٩].

فيجب على اللبيب الاستجارة بالله مما يورط فيه الهوى ، فهذا خلف مولى يوسف بن قمقام القائد المشهور[٢٠]، كان أحد القائمين مع هشام بن سليمان بن الناصر[٢١] ، فلما أُسِرَ هشام وقتل ، وهرب الذين وازروه ، فرّ خلف فى جملتهم ونجا . فلما أتى القسطلات[٢٢]لم يطق الصبر عن جارية كانت له بقرطبة ، فكرّراجعاً ، فظفر به أمير المؤمنين المهدى ، فأمر بصلبه . فلعهدى به مصلوباً فى المرج على النهر الأعظم وكأنه القنفذ من النبل .

ولقد أخبرنى أبوبكر محمد بن الوزير عبد الرحمن بن الليث[٢٣]رحمه الله ،

---

(١٩) سورة الفرقان ، الآية ٢٨ .

(٢٠) ليست لدينا أية معلومات عن خلف مولى يوسف هذا .

(٢١) أحداث الخلافة الأموية فى الأندلس عشية سقوطها كثيرة ومتشابكة ، ولايجدى معها تعريف موجز ، لقد وثب المهدى : محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر على الخلافة ، وأسقط دولة العامريين ، ثم زاحمه فيها سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر الملقب بالمستعين ، وحاول هشام بن سليمان الملقب بالرشيد أن ينتزعها لنفسه ، والوقعة التى يشير إليها ابن حزم هنا ، كانت بين هشام بن سليمان الرشيد ، وبين محمد المهدى ، وحدثت فى شوال ٣٩٩هـ = يونية ١٠٠٩م ، وكانت الدائرة فيها على الرشيد ، فقد ظفر به المهدى وقتله . للمزيد عن هذه الأحداث يمكن الرجوع إلى :

- ابن الأبار : الحلة السيراء ، جـ٢ ص ٥ و ٦
- ابن بسام : الذخيرة ، القسم الأول ، المجلد الأول ، ص ٢٤ .
- ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ٣ ص ٧٨ .

(٢٢) لم تمر علىّ فى مكان آخر من المصادر الأندلسية التى بين يدى ، ومن ثم لم أستطع تحديد موقعها ، ولعل تحريفاً أصاب اللفظ عند كتابته .

(٢٣) من بنى الليث ، أسرة قرطبية قديمة من أصل بربرى ، من زناتة ، كان يشغل الكثير من أفرادها عدداً من المناصب الهامة ، خلال الدولة الأموية .

أن سبب هروبه إلى محلة البرابر ، أيام تحوّلهم مع سليمان الظافر[٢٤] إنما كان لجارية يكلف بها ، تصيّرت عند بعض مَن كان فى تلك الناحية ، ولقد كاد أن يتلف فى تلك السفرة .

وهذان الفصلان وإنْ لم يكونا من جنس الباب فإنهما شاهدان على ما يقود إليه الهوى من الهلاك الحاضر الظاهر ، الذى يستوى فى فهمه العالم والجاهل ،فكيف من العصمة التى لا يفهمها من ضعفت بصيرته . ولا يقولن امرؤ : خلوتُ ، فهو وإنْ انفرد فبمرأى ومسمع من علاّم الغيوب الذى « يعلمُ خائِنَةَ الأعْيُنِ وَمَا تُخْفِى الصدُورُ »[٢٥] . و « يَعْلَمُ السِرَّ وأَخْفَى »[٢٦] و « ما يكونُ مِن نَجْوَى ثَلاثةٍ إِلاّ هو رابِعُهُمْ ، ولا خَمْسَةٍ إِلاّ هو سَادسُهُمْ، ولا أدْنَى من ذلك ولا أكْثَر إلاّ هو مَعَهُم، أينما كانوا »[٢٧]، وهو « عليمٌ بذاتِ الصدور »، وهو « عالم الغيب والشهادة »، « يستخفون من الناس ولايستخفون من الله وهو معهم »[٢٨]. وقال : « ولقد خَلَقْنَا الإِنسانَ ونعلمُ ماتُوَسْوِسُ به نفسُه ، ونحنُ أقربُ إليهِ مِن حبلِ الوريدِ . إذْ يَتلَقَّى المُتَلقِّيَانِ عنِ اليمينِ وعنِ الشِمالِ قَعِيدٌ ، مايَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عتِيد »[٢٩] .

وليعلم المستخف بالمعاصى ، المتكل على التسويف ، المعرض عن طاعة ربه ، أن إبليس كان فى الجنة مع الملائكة المقربين ، فلمعصية واحدة وقعت منه استحق لعنة الأبد ، وعذاب الخلد ، وصيِّر شيطاناً رجيماً ، وأُبعِدَ عن رفيع المكان ، وهذا آدم صلى الله عليه وسلم ، بذنب واحد أخرج من الجنة إلى شقاء الدنيا ونكدها . ولولا أنه تلقى من ربه كلمات وتاب عليه لكان من الهالكين .

أفترى هذا المغتر بالله ربه ، وبإملائه ليزداد إثماً ، يظن أنّه أكرم على خالقه من

---

(٢٤) تحدثنا عن سليمان الظافر ، الملقب بالمستعين ، وقد مر علينا فى الباب السابق ، الهامش رقم ٧ ، وانظر :
• الباب السابع ، الهامش رقم ٢ .

(٢٥) سورة غافر ، الآية ١٩ .

(٢٦) سورة طه ، الآية ٧ .

(٢٧) سورة المجادلة ، الآية ٧ .

(٢٨) سورة النساء ، الآية ١٠٨ .

(٢٩) سورة ق ، الآيات : ١٦ ، ١٧ ، ١٨ .

أبيه آدم ، الذى خلقه بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له ملائكته ، الذين هم أفضل خلقه عنده ؟ أو عقابه أعز عليه من عقوبته إياه ؟ كلا ، ولكن استعذاب التمنِّى ، واستيطاء مركب العجز ، وسخف الرأى ، قائدة أصحابها إلى الوبال والخزى ، ولو لم يكن عند ركوب المعصية زاجر من نَهْىِ الله تعالى ، ولا حام من غليظ عقابه ، لكان فى قبيح الأحدوثة عن صاحبه ، وعظيم الظلم الواقع فى نفس فاعله ، أعظم مانع ، وأشد رادع ، لمن نظر بعين الحقيقة ، واتبع سبيل الرشد ، فكيف والله عز وجل يقول : « ولايَقْتُلُونَ النفْسَ التى حرَّمَ اللهُ إلاَّ بالحقِّ ولا يَزْنونَ ، ومَنْ يَفْعَلْ ذلك يَلْقَ أَثَاماً ، يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً »[٣٠] .

وحدثنا الهمدانى[٣١] ، فى مسجد القمرى[٣٢] ، بالجانب الغربى من قرطبة ، سنة إحدى وأربعمائة : حدثنا ابن سيبويه ، وأبو إسحاق البلخى ، بخراسان سنة خمس وسبعين وثلاثمائة ، قالا : حدّثنا محمد بن يوسف : حدّثنا محمد بن إسماعيل : حدّثنا قتيبة بن سعيد : حدّثنا جرير عن الأعمش ، عن أبى وائل ، عن عمرو بن شرحبيل قال : قال عبد الله وهو ابن مسعود : قال رجل : « يارسول الله ، أى الذنب أكبر عندالله ؟ . قال : أن تدعو لله ندًا وهو خلقك . قال : ثم أى ؟ قال : أن تقتل ولدك أن يطعم معك . قال : ثم أى ؟ قال : أن تزانى حليلة جارك » . فأنزل الله تصديقها : « والذينَ لا يَدْعونَ مع اللهِ إلهاً آخرَ ، ولا يَقْتُلونَ النفس التى حرَّمَ اللهُ إلاَّ بالحقِّ ، ولاَ يزنونَ »[٣٣] . وقال عزوجل : « الزانِيَةُ والزانى فاجْلِدُواكلَّ واحدٍ منهما مائةَ جَلْدة ، ولاتأْخُذْكُمْ بهما رأْفَةٌ فى دينِ اللهِ ، إنْ كُنْتمْ تُؤمِنُونَ باللهِ »[٣٤] .

حدثنا الهمدانى ، عن أبى إسحاق البلخى ، وابن سبويه ، عن محمد بن يوسف ، عن محمد بن إسماعيل ، عن الليث ، عن عقيل ، عن ابن شهاب الزهرى ، عن

---

(٣٠) سورة الفرقان ، الآيتان ٦٨ و ٦٩ .

(٣١) عن الهمدانى انظر :

* الباب الثامن والعشرين ، الهامش رقم ٢٠ . وسوف نلتقى به مرات أخرى فيما بعد .

(٣٢) لايوجد فى مساجد قرطبة مسجد يحمل اسم « مسجد القمرى » ، ويرى غرسية غومث أنها تصحيف عن كلمة « العمرى » وكان فى قرطبة مسجد يحمل هذا الاسم .

(٣٣) سورة الفرقان ، الآية ٣٣ .

(٣٤) سورة النور ، الآية الثانية .

أبى بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وسعيد بن المسيب المخزوميين ، وأبى سلمة بن عبد الرحمن بن عوف الزهرى ، أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن » . وبالسند المذكور إلى محمد بن إسماعيل ، عن يحيى بن بكير ، عن الليث ، عن عقيل ، عن ابن شهاب ، عن أبى سلمة ، وسعيد بن المسيب ، عن أبى هريرة قال : أتى رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى المسجد ، فقال : « يارسول الله : إنى زنيت ، فأعرض عنه ، ثم ردّ عليه أربع مرات ، فلما شهد على نفسه أربع شهادات دعاه النبى صلى الله عليه وسلم فقال : أبك جنون ؟ قال : لا . قال فهل أحصنت قال : نعم . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : اذهبوا به فارجموه » .

قال ابن شهاب : فأخبرنى من سمع جابر بن عبدالله قال : كنت فيمن رجمه ، فرجمناه بالمصلى ، فلما أذلقته الحجارة هرب ، فأدركناه بالحرة[٣٥]فرجمناه .

حدثنا أبو سعيد ، مولى الحاجب جعفر ، فى المسجد الجامع بقرطبة ، عن أبى بكر المقرئ ، عن أبى جعفر النحاس ، عن سعيد بن بشر ، عن عمرو بن رافع ، عن منصور ، عن الحسن ، عن حطان بن عبد الله الرقاشى ، عن عبادة بن الصامت ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « خذوا عنى ، خذوا عنى ، قد جعل الله لهن سبيلاً : البكر بالبكر جَلْد مائة ، وتغريب سنة ، والثيّب بالثيّب جَلْد مائة والرجم » .

فيا لشنعة ذنب أنزل الله وحيه مبيناً بالتشهير بصاحبه ، والعنف بفاعله ، والتشديد لمقترفه . وتشدّد فى ألاّ يرجم إلا بحضرة أوليائه عقوبة رجمه ، وقد أجمع المسلمون إجماعًا لا ينقضه إلاّ ملحد ، أنّ الزانى المحصن عليه الرجم حتى يموت .

فيا لها قتلة ما أهولها ، وعقوبة ما أفظعها ، وأشد عذابها ، وأبعدها من الإراحة وسرعة الموت .

وطوائف من أهل العلم منهم الحسن بن أبى الحسن ، وابن راهويه ، وداود وأصحابه[٣٦] ، يرون عليه مع الرجم جلد مائة ، ويحتجون عليه بنص القرآن وثبات

---

(٣٥) الحرة : موضع قريب من المدينة .

(٣٦) * الحسن بن أبى الحسن يسار ، مولى زيد بن ثابت ، نشأ بالمدينة ، وحفظ القرآن ، ولازم الجهاد=

السنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبفعل على رضى الله عنه ، بأنه رجم امرأة محصنة فى الزنا بعد أن جلدها مائة ، وقال : جلدتها بكتاب الله ، ورجمتها بسنة رسول الله . والقول بذلك لازم لأصحاب الشافعى ، لأن زيادة العدل فى الحديث مقبولة .

وقد صح فى إجماع الأمة المنقول بالكافة ، الذى يصحبه العمل عند كل فرقة ، وفى أهل كل نحلة من نحل أهل القبلة ، حاشى طائفة يسيرة من الخوارج لا يعتد بهم ، أنه لا يحل دم امرئ مسلم إلا بكفر بعد إيمان ، أو نفس بنفس ، أو بمحاربة لله ورسوله ، يشهر فيها سيفه ، ويسعى فى الأرض فساداً مقبلاً غير مدبر ، وبالزنا بعد الإحصان . فإن حدّ ما جعل الله مع الكفر بالله عز وجل ومحاربته ، وقطع حجته فى الأرض ، ومنابذته دينه ، لجرم كبير ، ومعصية شنعاء ، والله تعالى يقول : « إنْ تجتنبوا كبائرَ ما تُنْهوْنَ عنهُ نُكَفِّرْ عنكم سيِّئاتِكم »(٣٧) ، و « الذين يَجْتنبونَ كبائِرَ الإِثْمِ والفواحِشَ إلاّ اللَّمَمَ إنَّ ربَّكَ وَاسعُ المغفرةِ »(٣٨) . وإن كان أهل العلم اختلفوا فى تسميتها ، فكلهم مجمع ، مهما اختلفوا فيه منها ، أن الزنا يقدم فيها ، لا اختلاف بينهم فى ذلك ، ولم يوعد الله عز وجل فى كتابه بالنار بعد الشرك إلاّ فى

= والعمل ، وكان أحد الشجعان الموصوفين ، حدث عن كثير من الصحابة ، وكان ثقة حجة مأمونا ، ناسكاً واسع العلم ، توفى ١١٠ هـ = ٧٢٨ م . انظر :

- محمد الخضرى : تاريخ التشريع الإسلامى ، ص ١٦١ .

- إسحق بن إبراهيم بن راهويه ، فقيه شافعى ، صاحب كتاب « الجامع الكبير » ، وأستاذ داود الظاهرى ، توفى عام ٢٣٨هـ = ٨٥٢م . انظر :

- الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ، جـ ٦ ص ٣٤٥ وما بعدها .

- أبو سليمان ، داود بن على بن خلف الأصبهانى ، المعروف بالظاهرى ، ولد بالكوفة سنة ٢٠٢ هـ = ٨١٥ م ، وكان فى بدء حياته أكثر الناس تعصباً للإمام الشافعى ، وصنف فى فضائله كتابين ، وإليه انتهت رياسة العلم فى بغداد ، ثم انتحل لنفسه مذهباً خاصاً ، أساسه العمل بظاهر الكتاب والسنة ، مالم يدل دليل منهما ، أو من الإجماع ، على أنه يراد به غير الظاهر ، فإن لم يوجد نص عمل بالإجماع ، ورفض القياس رفضاً باتاً . وله فى تفسير مذهبه والدفاع عنه مصنفات كثيرة ، وتوفى ٢٧٠ هـ = ٨٨٣م . انظر :

- محمد الخضرى : تاريخ التشريع ، ص٢٦٧ - ٢٦٨ .

(٣٧) سورة النساء ، الآية ٣١ .

(٣٨) سورة النجم ، الآية ٣٢ .

سبع ذنوب ، وهى الكبائر : الزنا أحدها ، وقذف المحصنات أيضاً منها ، منصوصاً ذلك كله فى كتاب الله عز وجل .

وقد ذكرنا أنه لا يجب القتل على أحد من ولد آدم إلا فى الذنوب الأربعة التى تقدم ذكرها ، فأما الكفر منها فإن عاد صاحبه إلى الإسلام أو بالذمة إن لم يكن مرتداً قُبِلَ منه ، ودرئ عنه الموت . وأما القتل فإن قبل الولىّ الدية فى قول بعض الفقهاء ، أو عفا فى قول جميعهم ، سقط عن القاتل القتل بالقصاص . وأما الفساد فى الأرض فإن تاب صاحبه قبل أن يُقْدر عليه هُدِر عنه القتل ، ولا سبيل فى قول أحد مؤالف أو مخالف فى ترك رجم المحصن ، ولا وجه لرفع الموت عنه ألبتة .

ومما يدل على شنعة الزنا ما حدّثنا القاضى أبو عبد الرحمن : حدّثنا القاضى أبو عيسى ، عن عبيد الله بن يحيي ، عن أبيه يحيي بن يحيي ، عن الليث ، عن الزهرى ، عن القاسم بن محمد بن أبى بكر ، عن عبيد بن عمير : أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أصاب فى زمانه ناساً من هذيل ، فخرجت جارية منهم ، فأتبعها رجل يريدها عن نفسها ، فرمته بحجر فقضت كبده ، فقال عمر : هذا قتيل الله ، والله لا يودى أبداً .

وما جعل الله عز وجل ، ه أربعة شهود ، وفى كل حكم شاهدين ، إلاّ حياطة منه ألاّ تشيع الفاحشة فى عباده ، لعظمها وشنعتها وقبحها ، وكيف لا تكون شنيعة ، ومن قذف بها أخاه المسلم ، أو أخته المسلمة ، دون صحة علم أو تيقن معرفة ، فقد أتى كبيرة من الكبائر استحق عليها النار غداً ، ووجب عليه بنص التنزيل أن تضرب بشرته ثمانين سوطاً .

ومالك رضى الله عنه يرى ألا يؤخذ فى شيء من الأشياء حد بالتعريض دون التصريح إلاّ فى قذف .

وبالسند المذكور عن الليث بن سعد ، عن يحيي بن سعيد ، عن محمد بن عبد الرحمن ، عن أمه عمرة بنت عبدالرحمن ، عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، أنه أمر أن يجلد الرجل قال لآخر : ما أبى بزان ولا أمى بزانية فى حديث طويل .

وبإجماع من الأمة كلها ، دون خلاف من أحد نعلمه ، أنه إذا قال رجل لآخر : يا كافر ، أو ياقاتل النفس التى حرم الله ، لما وجب عليه حد ، احتياطاً من الله عز وجل

ألاّ يثبت هذه العظيمة فى مسلم ولا مسلمة .

ومن قول مالك رحمه الله أيضاً ، أنه لاحد فى الإسلام إلاّ والقتل يغنى عنه وينسخه إلاّ حد القذف ، فإنه إن وجب على من قد وجب عليه القتل حد ثم قتل . قال الله تعالى : « والذينَ يَرمُونَ المُحصَناتِ ثمَّ لم يأْتوابأربعة شُهداءَ فاجلِدوهُمْ ثمانينَ جَلْدةً ولا تَقْبلوا لهمْ شهادةً أبداً ، وأولئكَ هُم الفاسقونَ ، إلاّ الذين تـابوا »[٣٩]. وقال تعالى : « إنَّ الذينَ يَرمون المُحصناتِ الغافِلاتِ المؤمِناتِ لُعِنُوا فى الدنيا والآخرةِ ولهمْ عذابٌ عظيم »[٤٠]. ورويَ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الغضب واللعنة المذكوران فى اللعان إنهما مُوجبتان » .

حدثنا الهمدانى ، عن أبى إسحاق ، عن محمد بن يوسف ، عن محمد بن إسماعيل عن عبد العزيز بن عبد الله ، قال : حـدّثنا سليمان ، عن ثور بن يزيد ، عن أبى الغيث ، عن أبى هريرة ، عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اجتنبوا السبع الموبقات . قالوا : وما هن يا رسول الله ؟ قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرّم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكْلُ مال اليتيم ، والتولّى يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » .

وإنّ فى الزنا من إباحة الحريم ، وإفساد النسل ، والتفريق بين الأزواج الذى عظم الله أمره ، مالا يهون على ذى عقل ، أومن له أقل خلاق ! ولولامكان هذا العنصر من الإنسان ، وأنه غير مأمون الغلبة ، لما خفف الله عن البكرين ، وشدّد على المحصنين . وهذا عندنا ، وفى جميع الشرائع القديمة النازلة من عندالله عز وجل ، حكما باقياً لم ينسخ ولا أزيل ، فيترك الناظر لعباده الذى لم يشغله عظيم ما فى خلقه ، ولا يحيف قدرته كبير مافى عوالمه ، عن النظر لحقير مافيها ، فهو كما قال عزوجل : « الحَيُّ القَيُّومُ لاتأْخُذُه سِنةٌ ولانَوْم »[٤١] . وقال : « يَعْلَمُ مايَلِجُ فى الأرضِ ومايَخْرُج منها وما يَنْزِلُ من السماءِ وما يَعْرجُ فيها »[٤٢]. وقال : « عالم الغيب لايَعزبُ عنه

---

(٣٩) سورة النور ، الآية ٤ و٥ .

(٤٠) سورة النور ، الآية ٢٣ .

(٤١) سورة البقرة ، الآية ٢٥٥ .

(٤٢) سورة سبأ ، الآية ٢ .

مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض »(٤٣) .

وإن أعظم مايأتى به العبد هتك ستر الله عز وجل فى عباده .

وقد جاء فى حُكْم أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، فى ضربه الرجل الذى ضم صبيًّا حتى أمنى ضرباً كان سبباً للمنيّة . ومن إعجاب مالك رحمه الله باجتهاد الأمير الذى ضرب صبياً مكنّ رجلاً من تقبيله حتى أمنى الرجل ، ضربه إلى أن مات ، ماينسى شدة دواعى هذا الشأن وأسبابه . والتزيّد فى الاجتهاد ، وإن كنا لانراه ، فهو قول كثير من العلماء ، يتبعه على ذلك عالم من الناس .

وأما الذى نذهب إليه فالذى حدثناه الهمدانى ، عن البلخى ، عن الفربرى ، عن البخارى قال : حدّثنا يحيى بن سليمان ، حدّثنا ابن وهب قال : أخبرنى عمرو أنّ بكيراً حدّثه عن سليمان بن يسار ، عن عبد الرحمن بن جابر ، عن أبيه عن أبى بردة الأنصارى قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا يُجْلد فوق عشرة أسواط إلا فى حد من حدود الله عز وجل » . وبه يقول أبو جعفر محمد بن على النسائى الشافعى رحمه الله .

وأما فعل قوم لوط فشنيع بشيع ، قال الله تعالى : « أَتأتونَ الفاحِشَةَ ماسَبَقَكُمْ بها مِن أَحدٍ مِن العالمينَ »(٤٤) . وقد قذف الله فاعليه بحجارة من طين مُسَوَّمة . ومالك رحمه الله يرى علَى الفاعل والمفعول به الرجم أحصنا أو لم يحصنا ، واحتج بعض المالكية فى ذلك بأن الله عز وجل يقول فى رجمه فاعليه بالحجارة : « وما هى من الظالمين ببعيد »(٤٥) فوجب بهذا أنه من ظلم الآن بمثل فعلهم قربت منه ، والخلاف فى هذه المسألة ليس هذا موضعه .

وقد ذكر أبو إسحاق إبراهيم بن السرى(٤٦) أن أبا بكر رضى الله عنه أحرق

---

(٤٣) سورة سبأ ، الآية ٣

(٤٤) سورة الأعراف ، الآية ٨٠

(٤٥) سورة هود ، الآية ٨٣ .

(٤٦) أبو إسحاق إبراهيم السرى ، المعروف بالزجاج ، العالم اللغوى والنحوى الشهير ، تلميذ المبرد ، توفى عن ثمانين عاما تقريباً ، سنة ٣١٠ هـ = ٩٢٢ م . انظر ترجمته فى :

* ياقوت : معجم الأدباء ، جـ١ ص ٤٧

* القفطى : إنباه الرواة بأنباء النحاة ، حـ١ ص ١٥٩ .

فيه بالنار . وذكر أبو عبيدة معمر بن المثنى[٤٧] اسم المحروق فقال : هو شجاع بن ورقاء الأسدى[٤٨] ، أحرقه بالنار أبو بكر الصديق ، لأنه يؤتى فى دبره كما تؤتى المرأة .

وإنّ عن المعاصى لمذاهب للعقل واسعة ، فما حرّم الله شيئاً إلا وقد عوّض عباده من الحلال ماهو أحسن من المحرم وأفضل ، لا إله إلا هو .

وأقول فى النهى عن اتباع الهوى على سبيل الوعظ :

أقولُ لنفسِى مامُبِينٌ كهالكٍ ... وما الناسُ إلاّ هالكٌ وابن هالكِ

صُنِ النفسَ عمَّا عابَها وارفُضِ الهوَى ... فإنَّ الهوَى مفتاحُ بابِ المهالك

رأيتُ الهوَى سَهْلَ المبادِى لذيذَهَا ... وعُقباهُ مُرُّ الطعمِ ضَنْكُ المسالك

فما لذةُ الإنسانِ والموتُ بعدَهــا ... ولو عاش ضِعْفَىْ عُمْرِ نوحِ بن لامِك

فلا تَتَّبِعْ داراً قليــلاً لباثُهَــا ... فقد أنذرَتْنَا بالفناءِ المُواشِك

وما تركُهَا إلاَّ إذَا هِيَ أُمْكِنَتْ ... وكم تاركٍ إضمارُهُ غيرُ تارك

فما تاركُ الآمالِ عُجْباً جُؤاذِراً ... كتاركِها ذاتِ الضرُوعِ الحواشِك

وما قابِلُ الأمرَ الذى كان راغباً ... بشهوةِ مُشْتاقٍ وعقلٍ مُبارَكِ

لأَجْدَى عبادَ اللهِ بالفوزِ عِندَهُ ... لدى جَنَّةِ الفِرْدَوْسِ فوقَ الأرائك

ومن عرفَ الأمرَ الذى هو طالِبٌ ... رأى سَبَباً مافى يَدَىْ كلِّ مالك

ومن عرفَ الرحمنَ لم يعصِ أمرَهُ ... ولو أنَّهُ يُعْطَى جميعَ الممالك

سبيلُ التُّقى والنُسك خيرُ المسالكِ ... وسالكُها مُسْتبصِرٌ خيرُ سالك

فما فقد التنغيص من عاج دُونها ... ولا طاب عيشٌ لامرئ غيرِ ماسك

وطوبى لأقوامٍ يؤمون نحوهــا ... بخفَّةِ أرواحٍ ولينِ عرائك

---

(٤٧) أبو عبيدة معمر بن المثنى ، ولد فى البصرة لأبوين يهوديين عام ١١٠ هـ = ٧٢٨ م ، وكان تلميذاً للعالم الجليل أبى عمرو بن العلاء ، وعرف بميوله الخارجية والشعوبية ، وألف فى النحو واللغة والأمثال ، وله كتاب فى مثالب العرب ، وآخر فى « أيام العرب » ، كان مصدراً رئيسياً لأبى الفرج الأصفهانى فى كتابه « الأغانى » ، ولابن الأثير فى كتابه « الكامل فى التاريخ » ، وتوفى فى البصرة عام ٢٠٩ هـ = ٨٢٥م . انظر :

* ياقوت : معجم الأدباء ، جـ٧ ص ١٦٤
* الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ، جـ١٣ ص ٢٥٢
* Huart Clément : Histoire de la littérature arabe, trad. espagnola, p. 144, Buenos Aires 1947.

(٤٨) شجاع بن ورقاء الأسدى : لم أجد له ترجمة فيا بين يدى من المصادر .

لقد فقدوا غِلَّ النفوس وفُضِّلوا … بعزٍّ سلاطين وأمْنِ صعالك

فعاشوا كما شاءوا وماتوا كما اشتهوا … وفازُوا بدارِ الخلْدِ رَحْبِ المبارك

عَصَوْا طاعة الأجساد فى كل لذَّةٍ … بنورِ مُجلٍّ ظلمةَ الغىِّ هاتك

فلولا اعتدادُ الجسم أيقنتَ أنهمْ … يعيشون عيْشاً مثلَ عيشِ الملائك

فياربِّ قدِّمْهُم وزدْ فى صلاحِهِمْ … وصلِّ عليهِمْ حيثُ حلُّوا وبَارِكِ

ويانفسُ جِدّى لاتملّى وشمِّرى … لنيلِ سرورِ الدهرِ فيما هنالك

وأنتِ متى دمَّرْت سعيَك فى الهوى … علِمْتِ بأنَّ الحقَّ ليس كذلك

فقد بيَّنَ اللهُ الشريعة للــــورى … بأبْينَ مِن زُهْرِ النجومِ الشوابك

فيانفسُ جِدِّى فى خَلاصكِ وانفُذى … نفاذَ السيوفِ المُرْهَفاتِ البواتِك

فلوْ أعملَ الناسُ التفكُّرَ فى الذى … له خُلِقُوا ما كان حيٌّ بضاحِك

٣٠

باب فضل التعفف

ومن أفضل مايأتيه الانسان فى حبه التعفف ، وترْك ركوب المعصية والفاحشة ، وألاّ يرغب عن مجازاة خالقه له بالنعيم فى دار المقامة ، وألاّ يعصى مولاه المتفضل عليه الذى جعله مكانا وأهلا لأمره ونهيه ، وأرسل إليه رسله ، وجعل كلامه ثابتا لديه ، عناية منه بنا ، وإحسانا إلينا .

وإن من هام قلبه ،وشغل باله ، واشتد شوقه ، وعظم وجده ، ثم ظفر فرام هواه أن يغلب عقله وشهوته ، وأن يقهر دينه ، ثم أقام العدل لنفسه حصنا ، وعلم أنها النفس الأمارة بالسوء ، وذكرها بعقاب الله تعالى ، وفكر فى اجترائه على خالقه وهو يراه ، وحذّرها من يوم المعاد ، والوقوف بين يدى الملك العزيز ، الشديد العقاب ، الرحمن الرحيم الذى لا يحتاج إلى بيّنة ، ونظر بعين ضميره إلى انفراده عن كل مدافع بحضرة علاّم الغيوب ، « يوم لاينفعُ مالٌ ولا بنونَ إلاّ مَنْ أَتَى اللهَ بَقلبٍ سليم »[١]، « يوم تُبدَّلُ الأرضُ غيْرَ الأرضِ والسمواتُ »[٢]، « يومَ تَجدُ كلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَودُّ لَوْ أنَّ بينها وبينَهُ أمداً بعيداً »[٣]، يوم« وعَنَتِ الْوجُوهُ للحى القيُّوم وقد خابَ مَنْ حَمَلَ ظُلماً »[٤]، يوم« وَوَجَدُوا ماعَمِلُوا حاضِراً ولا يَظْلمُ رَبُّكَ أحَداً »[٥]، يوم الطامة الكبرى ، « يوم يَتذكَّرُ الإنسانُ ماسعَى وبُرِّزَتِ الجحيمُ لِمَنْ يرى ، فأما منْ طغى وآثرَ الحياة الدُّنياَ فإنَّ الجَحيمَ هى المأوَى . وأمَّا مَنْ خافَ مَقَامَ رَبهِ ونهى النفْسَ عَنِ الهوَى فإنَّ الجنَّةَ هى ألمأوَى »[٦]، واليوم الذى قال الله تعالى فيه : « وكُلَّ إنْسانٍ ألْزَمناهُ طائرَهُ فى عُنُقِهِ ونُخرِجُ لهُ يومَ القيامَةِ كتاباً يَلْقاهُ مَنْشُوراً . اقرأ

---

(١) سورة الشعراء ، الآيتان ٨٨، ٨٩ .

(٢) سورة إبراهيم الآية ٤٨ .

(٣) سورة ال عمران ، الآية ٣٠ .

(٤) سورة طه ، الآية ١١١

(٥) سورة الكهف ، الآية ٤٩ .

(٦) سورة النازعات ، الآيات : ٣٥ إلى ٤١ .

كتابَكَ كَفَى بنفسِكَ اليَوْمَ عليْكَ حَسيباً »[٧]. عندها يقول العاصى : « يا وَيْلَتَنَا ! مالهذا الكتابُ لايغادِرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلاّ أحصْاها »[٨]. فكيف بمن طوى قلبه على أحر من جمر الغضى ، وطوى كشحه على أحد من السيف ، وتجرّع غصصاً أمر من الحنظل ، وصرف نفسه كرها عماطمعت فيه ، وتيقّنت ببلوغه ، وتهيأت له ، ولم يحل دونها حائل ، لحرِىً أن يسرَّ غداً يوم البعث ، ويكون من المقربين فى دار الجزاء وعالم الخلود ، وأن يأمن روعات القيامة وهول المطلع ، وأن يعوّضه الله من هذه القرحة الأمن يوم الحشر .

حدثنى أبو هارون بن موسى الطبيب[٩] قال : رأيت شاباً حسن الوجه من أهل قرطبة ، قد تعبدّ ورفض الدنيا ، وكان له أخ فى الله قد سقطت بينهما مؤونة التحفظ ، فزاره ذات ليلة وعزم على المبيت عنده ، فعرضت لصاحب المنزل حاجة إلى بعض معارفه بالبعد عن منزله ، فنهض لها على أن ينصرف مسرعاً . ونزل الشاب فى داره مع امرأته ، وكانت غاية فى الحسن ، وتِرباً للضيف فى الصبى ، فأطال رب المنزل المقام إلى أن مشى العسس ولم يمكنه الانصراف إلى منزله ، فلما علمت المرأة بفوات الوقت ، وأن زوجها لايمكنه المجىء تلك الليلة ، تاقت نفسها إلى ذلك الفتى ، فبرزت إليه ودعته إلى نفسها ، ولا ثالث لهما إلا الله عز وجل ، فهمّ بها ثم ثاب إليه عقله ، وفكّر فى الله عز وجل ، فوضع إصبعه على السراج فتفقع ثم قال : يانفس ذوقى هذا ، وأين هذا من نار جهنم فهال المرأة مارأت ، ثم عاودته فعاودته الشهوة المركبة فى الإنسان ، فعاد إلى الفعلة الأولى . فانبلج الصباح وسبابته قد اصطلمتها النار[١٠] .

أفتظن بلغ هذا من نفسه هذا المبلغ إلا لفرط شهوة قد كلبت عليه ؟ أوترى أن الله

---

(٧) سورة الإسراء الآيتان : ١٣ و ١٤

(٨) سورة الكهف ، الآية ٤٩ .

(٩) لم أستطع تحديد شخصية الطبيب أبى هارون بن موسى ، ويبدو أنه يهودى ، ولم أجد له أية ترجمة فيا بين يدى من مصادر .

(١٠) هذه القصة تشبه حكاية وردت فى كتاب « حياة الآباء "Vitae Patrum" لمؤلفه Rosweyde ومؤداها أن راهباً مسيحياً من طيبة ، أحرق أصابعه بالنار ليقاوم محاولة إغراء من امرأة عارية ، انظر :

* Asin Palacios : Abenhàzam, 1, 57.

تعالى يضيع له المقام ؟ كلاّ إنه لأكرم من ذلك وأعلم .

ولقد حدثتني امرأة أثق بها ، أنها علقها فتى مثلها من الحسن وعلقته ، وشاع القول عليهما ، فاجتمعا يوماً خاليين فقال : هلمي نحقق مايقال فينا ، فقالت : لا والله لا كان هذا أبداً ، وأنا أقرأ قول الله : « الأَخِلاَّءُ يومئذٍ بعضُهم لبعضٍ عدوٌّ إلاّ المتقين »[١١]. قالت فما مضى قليل حتى اجتمعنا فى حلال[١٢] .

ولقد حدثنى ثقة من إخوانى ، أنه خلا يوماً بجارية كانت له مفاركة فى الصبى ، فتعرضت لبعض تلك المعانى فقال لها : كلا . إنّ مِن شُكْرِ نعمة الله فيما منحنى من وصالك ، الذى كان أقصى آمالى ، أن أجتنب هواى لأمره ، ولعمرى إن هذا لغريب فيما خلا من الأزمان ، فكيف فى مثل هذا الزمان الذى قد ذهب خيره وأتى شره .

وما أقدّر فى هذه الأخبار – وهى صحيحة – إلاّ أحد وجهين لاشك فيهما : إمّا طبع قد مال إلى غير هذا الشأن ، واستحكمت معرفته بفضل سواه عليه ، فهو لايجيب دواعى الغزل فى كلمة ولا كلمتين ، ولا فى يوم ولا يومين ، ولو طال على هؤلاء الممتحنين ما امتحنوا به لجادت طباعهم ، وأجابوا هاتف الفتنة ، ولكنّ الله عصمهم بانقطاع السبب المحرك ، نظراً لهم ، وعلماً بما فى ضمائرهم من الاستعاذة به من القبائح ، واستدعاء الرشد ، لا إله إلا هو .

وإما بصيرة حضرت فى ذلك الوقت ، وخاطر تجرّد انقمعت به طوالع الشهوة فى ذلك الحين ، لخير أراد الله عز وجل لصاحبه ، جعلنا الله ممن يخافه ويرجوه . آمين .

وحدّثنى أبو عبدالله محمد بن عمرو بن مضاء[١٣]، عن رجال من بنى مروان ثقات[١٤]، يسندون الحديث إلى أبى العباس الوليد بن غانم[١٥]، أنه ذكر أنّ الإمام

---

(١١) سورة الزخرف ، الآية ٦٧ .

(١٢) نقل داود الأنطاكى عن ابن حزم هذه القصة ، فى كتابة تزيين الأسواق » ص ٨

(١٣) أورد له الضبى فى « البغية » ترجمة موجزة ، لم يزد فيها عن القول : « من أهل الأدب ، مشهور بالفضل » . الترجمة رقم ٢٢٥ .

(١٤) بنو مروان ، أى أسرة بنى أمية التى حكمت الأندلس ، إمارة وخلافة ، من ٧٥٥ م إلى ١٠٣١ م .

(١٥) أبو العباس ، الوليد بن عبد الرحمن بن عبد الحميد بن غانم ، من كبار رجال الدولة فى عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن (٨٥٢م – ٨٨٦م) تولى له خطتى الوزارة والمدينة ، وقاد جيش الصائفة لابنه عبد الرحمن بن

عبد الرحمن بن الحكم[١٦] غاب فى بعض غزواته شهوراً ، وثقف القصر بابنه محمد[١٧] الذى ولى الخلافة بعده ، ورتبه فى السطح ، وجعل مبيته ليلاً وقعوده نهاراً فيه . ولم يأذن له فى الخروج ألبتة : ورتّب معه فى كل ليلة وزيراً من الوزراء ، وفتى من أكابر الفتيان ، يبيتان معه فى السطح .

قال أبو العباس : فأقام على ذلك مدة طويلة ، وبعد عهده بأهله ، وهو فى سن العشرين أو نحوها ، إلى أن وافق مبيتى فى ليلتى نوبة فتى من أكابر الفتيان ، وكان صغيراً فى سنه ، وغاية فى حسن وجهه .

قال أبوالعباس : فقلت فى نفسى : إنى أخشى الليلة على محمد بن عبد الرحمن الهلاك بمواقعة المعصية ، وتزيين إبليس وأتباعه له ، قال : ثم أخذت مضجعى فى السطح الخارج ، ومحمد فى السطح الداخل ، المطل على حرم أمير المؤمنين ، والفتى فى الطرف الثانى القريب من المطلع ، فظللت أرقبه ولا أغفل ، وهو يظن أنى قد نمت ، ولا يشعر باطلاعى عليه .

قال : فلما مضى هزيع من الليل ، رأيته قد قام ، واستوى قاعداً ساعة لطيفة ، ثم تعوّذ من الشيطان ، ورجع إلى منامه . ثم قام بعد حين ، ولبس قميصه واستوفز ، ثم نزعه عن نفسه ، وعاد إلى منامه . ثم قام الثالثة ولبس قميصه ، ودلّى رجليه من السرير ، وبقى كذلك ساعة ، ثم نادى الفتى باسمه فأجابه ، فقال له انزل عن السطح ، وابق فى الفصيل الذى تحته . فقام الفتى مؤتمراً له . فلما نزل قام محمد ، وأغلق الباب من داخله ، وعاد إلى سريره .

قال أبوالعباس : فعلمت من ذلك الوقت أن لله فيه مراد خير .

محمد ، وكان كاتباً مرسلاً بليغاً ، وابناه محمد وعبد الرحمن من أهل الأدب والبلاغة والشعر ، وقد توفى وليد فى شعبان عام ٢٩٢ هـ = ٩٠٥ م فى رواية ابن حيان ، وعام ٢٧٢ هـ = ٨٨٥ م فى رواية ابن الأبار . انظر :

* ابن حيان : المقتبس ، القطعة التى نشرها الدكتور محمود على مكى ، ص ١٧٢ – ١٧٥ وفى أمكنة أخرى .

* ابن الأبار : الحلة السيراء ، جـ ٢ ص ٣٧٤ .

(١٦) أى عبدالرحمن الأوسط ، وحكم من ٨٢١ إلى ٨٥٢ م ، وهو ابن الحكم الأول ، وحكم من ٧٩٦ – ٨٢١ م ، ويعرف أحياناً باسم الحكم الربضى ، لثورة الربض التى انفجرت ضده بقيادة الفقهاء فى قرطبة على أيامه .

(١٧) الأمير محمد ، وسيتولى الإمارة بعد وفاة أبيه عبدالرحمن عام ٨٥٢ ، وبقى فيها حتى وفاته عام ٨٨٦ م .

حدثنا أحمد بن محمد بن الجسور[١٨]، عن أحمد بن مطرف[١٩]، عن عبيدالله ابن يحيى[٢٠]، عن أبيه، عن مالك، عن حبيب بن عبد الرحمن الأنصاري، عن حفص بن عاصم، عن أبي هريرة، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لاظل إلاّ ظله: إمام عادل، وشاب نشأ فى عبادة الله عزوجل، ورجل قلبه معلّق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجلان تحابا فى الله، اجتمعا على ذلك وتفرقا، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه، ورجل دعته امرأة ذات حسب وجمال فقال إنى أخاف الله. ورجل تصدق صدقة فأخفى حتى لاتعلم شماله ماتنفق يمينه ».

وإنِّى أذكر أنى دُعيت إلى مجلس فيه بعض من تستحسن الأبصار صورته، وتألف القلوب أخلاقه، للحديث والمجالسة دون منكر ولا مكروه، فسارعت إليه، وكان هذا سحراً. فبعد أن صليت الصبح، وأخذت زيى طرقنى فكر، فسنحت لى أبيات، ومعى رجل من إخوانى فقال لى: ما هذا الإطراق؟ فلم أجبه حتى أكملتها، ثم كتبتها ودفعتها إليه، وأمسكت عن المسير حيث كنت نويت. ومن الأبيات:

---

(١٨) يكنى أبا عمر، قرطبي، مولى لبنى أمية، أول شيخ درس عليه ابن حزم، فى مرحلة مابعد التعليم الأولى، وكان واسع الثقافة فى التاريخ، حافظاً للرأى والحديث، أديباً شاعراً صديقاً حميماً لوالد ابن حزم، وقد درس عليه ابن حزم مادة التاريخ. وعمل ابن الجسور كاتباً للقاضى منذر بن سعيد، وخلفه فى خطة السوق، وكان يعقد الوثائق دون أن يتخذ من ذلك مهنة له، وكانت وفاته فى الطاعون الذى إجتاح قرطبة، فى منزله ببلاط مغيث، فى قرطبة يوم الأربعاء، لأربع بقين من ذى القعدة، عام ٤٠١ هـ = ١٠١٠. انظر:

* الضبي: البغية، الترجمة رقم ٣٣٦.
* ابن بشكوال: الصلة، الترجمة رقم ٣٩.
* Asin Palacios : op. cit., vol. I, p. 98.

(١٩) أحمد بن مطرف بن هانى الجهنى، يكنى أبا عمر، من أهل قرطبة، كان على هدى وسنة، مجانبا لأهل البدع، حافظاً مجوداً للقرآن وقتل شهيداً بجبل قنليش، عام ٤٠٠ هـ = ١٠٠٩ م. انظر:

* ابن بشكوال: الصلة، الترجمة رقم ٢٨.

(٢٠) عبيدالله بن يحيى بن يحيى، يكنى أبامروان، وسبق أن ترجمنا لأبيه يحيى بن يحيى الليثى، فى الباب الرابع، الهامش رقم ٢٩، وكان عبيد الله كأبيه، رحل إلى المشرق حاجاً وتاجراً وطالباً، وسمع ببغداد ومصر، وكان واسع المال، عظيم الجاه، مشاوراً فى الأحكام. أنظر:

* ابن الفرضى: البغية، الترجمة رقم ٧٦٢.
* ابن فرحون: الديباج المذهب، ص ١٤٦.

أَراقكَ حُسْنُ غَيْبُهُ لكَ تأْريق ... وتبريدُ وصْلٍ سِرُّهُ فيك تَحْريقُ

وقُرْبُ مزارٍ يقتضِى لك فُرْقَةً ... وَشيكاً ولولا القربُ لم يَكُ تَفْريق

ولـذَّةُ طَعْمٍ مُعْقبٍ لك علقماً ... وصاباً وفَسْحٌ فى تضاعِيفه ضِيق

ولو لم يكن جزاء ولا عقاب ولاثواب لوجب علينا إفناء الأعمار ، وإتعاب الأبدان ، وإجهاد الطاقة ،واستنفاد الواسع ، واستفراغ القوة فى شكر الخالق ، الذى ابتدأنا بالنعم قبل استئهالها ، وامتن علينا بالعقل الذى به عرفناه ، ووهبنا الحواس والعلم والمعرفة ودقائق الصناعات ، وصرف لنا السموات جارية بمنافعها ، ودبرنا التدبير الذى لوملكنا خلقنالم نهتد إليه ، ولانظرنا لأنفسنا نظره لنا ، وفضلنا على أكثر المخلوقات ، وجعلنا مستودع كلامه ، ومستقر دينه ، وخلق لنا الجنةدون أن نستحقها ، ثم لم يرض لعباده أن يدخلوها إلا بأعمالهم لتكون واجبة لهم ، وقال الله تعالى . « جزاءً بما كانوا يَعْمَلون »[٢١] ورشدنا إلى سبيلها ، وأبصرنا وجه ظلها ، وجعل غاية إحسانه إلينا ، وامتنانه علينا ، حقاً من حقوقنا قبله ، ودينا لازماً له ، وشكرنا على ما أعطانا من الطاعة التى رزقنا قواها ، وأثابنا بفضله على تفضله .

هذا كرم لاتهتدى إليه العقول ، ولا يمكن أن تكيّفه الألباب ، ومن عرف ربه ، ومقدار رضاه وسخطه ، هانت عنده اللذات الذاهبة ، والحطام الفانى ،فكيف وقد أتى من وعيده ماتقشعر لسماعه الأجساد . وتذوب له النفوس ، وأورد علينا من عذابه مالم ينته إليه أمل ، فأين المذهب عن طاعة هذا الملك الكريم ، وماالرغبة فى لذة ذاهبة لاتذهب الندامة عنها ، ولا تفنى التباعة منها ، ولايزول الخزى عن راكبها ، وإلى كم هذا التمادى وقد أسمعنا المنادى ، وكأن قد حدابنا الحادى إلى دار القرار ، فإما إلى الجنة وإما إلى نار ، ألا إن التثبط فى هذا المكان لهو الضلال المبين ، وفى ذلك أقول :

أقْصَرَ عن لَهْوِهِ وعن طـــربِهْ ... وعفّ فى حبِّه وفى عُرُبـــهْ

فليس شُرْبُ المُدامِ هِمَّتَهُ ... ولا اقتناصُ الظِباءِ مِن أَربِهْ

قد آنَ للقلبِ أنْ يُفيقَ وأَنْ ... يُزيلَ ماقدْ علَاهُ مِن حُجُبِهْ

أَلهـاهُ عمَّا عَهِدتُ يُعجِبُهُ ... خِيفَةُ يَوْمٍ تُبْلَى السرائرُ بِهْ

(٢١) سورة السجدة ، الآية ١٧ .

يانفسُ جِدِّى وشمِّرِى ودعِى ... عنكِ اتباعَ الهوَى على لَغَبهْ
وسارِعِى فِى النجاةِ واجْتهِدِى ... ساعيَةً فِى الخلاصِ مِن كُرَبهْ
عَلِّىَ أَحْظَى بالفوْزِ فيــهِ وأَنْ ... أَنْجو مِن ضِيقِهِ ومن لَهَبهْ
يَاأَيُّهـــاَ اللاعِبُ المجدُّ بِهِ الـ ... ـدهرُ أَمَا تَتَّقِى شبَا نُكَبهْ
كفاكَ مِن كلِّ ماوُعِظْتَ بِهِ ... ما قدْ أراكَ الزمانُ مِن عَجبهْ
دَعْ عنكَ داراً تفنَى غَضارَتُها ... ومكْسَباً لاعِباً بِمكْتَسَبهْ
لم يَضْطَرِبْ فى محلِّها أحــدٌ ... إلاَّ نبَاَ حدُّهاَ بِمضْطَرَبهْ
مَنْ عرفَ اللهَ حقَّ معرفةٍ ... لوى وحلَّ الفؤادُ فى رَهَبهْ
ما مُنْقضِى المُلْكِ مثلُ خالدِه ... ولا صحيحُ التقَى كَمُؤْتَشِبهْ
ولا تَقِىُّ الورَى كفاسِقِهِمْ ... وليسَ صدقُ الكلامِ من كَذِبِهْ
فلو أَمِنَّا مِن العِقابِ ولم ... نخشَ مِن اللهِ مُتَّقَى غَضَبهْ
ولم نخفْ نارَهُ التى خُلِقتْ ... لكلِّ جانِى الكلامِ مُحْتَقِبهْ
لكانَ فرْضاً لزومُ طاعتِــــهِ ... وردُّ وَفْدِ الهوَى علَى عَقِبِه
وصِحَّةُ الزهْدِ فى البقاءِ وأَنْ ... يُلْحقَ تفنيدُناَ بِمُرْتقِبــــهْ
فقد رَأَيْناَ فِعْلَ الزمانِ بأهْــ ... ـليه كفِعْلِ الشواظِ فى حَطَبهْ
كــم مُتْعبٍ فى الإله مُهْجتَهُ ... راحتُهُ فى الكريهِ من تَعَبهْ
وطالبٍ باجتهادِهِ زهْرَةَ الـ ... ـدنيا عداهُ المَنونُ عن طَلَبَهْ
ومُدْرِكٍ ماابتغاهُ ذِى جَذَلٍ ... حلَّ بهِ ما يخافُ من سَبَبهْ
وباحثٍ جاهــدٍ لِبُغْيتِهِ ... فإنَّما بحثُهُ على عَطَبــهْ
بَيْناَ ترَى المرءَ سامياً مَلِكاً ... صارَ إلى السُّفْلِ مِن ذُرَى رُتَبهْ
كالزَّرْعِ للرِجْلِ فوقَهُ عملٌ ... إنْ يَتِمُّ حُسْنُ النُمُوِّ فى قَصَبهْ
كمْ قاطعٍ نفسَهُ أسىً وشجاً ... فى إثْرِ جَــدٍّ يَجِدُّ فى هَرَبهْ
أليس فى ذاك زاجرٌ عَجَبٌ ... يزيدُ ذا اللبِّ فى حُلَى أَدَبهْ
فكيف والنارُ للمسىءِ إذا ... عاجَ عن المستقيمِ مِن عَقِبهْ
ويومَ عَرْضِ الحسابِ يَفْضَحُه الـ ... ـلَّهُ ويُبدِى الخفىَّ مِن رِيَبهْ
مَن قد حباهُ الإلهُ رحمَتَهُ ... موصولةً بالمزيدِ مِن نَشَبهْ

فصار مِن جهلِهِ يصرِّفُها ... فيما نهىَ اللهُ عنه فى كُتُبِهْ
أليس هذا أحْرَى العبادِ غداً ... بالوقع فى وَيْلِهِ وفى حَرَبِهْ
شكراً لربٍّ لطيفُ قُدرَتِهِ ... فينا كَحبْلِ الوريدِ فى كَثَبِهْ
رازِقِ أهلِ الزمانِ أجمعِهِمْ ... مَن كان مِن عُجْمِه ومنْ عُربِهْ
والحَمْدُ للهِ فى تَفضُّلِهِ ... وقَمْعِهِ للزمانِ فى نُوَبِهْ
اخْدَمَنَا الأرضَ والسماءَ ومَنْ ... فى الجوِّ من مائِهِ ومِن شُهُبِهْ
فاسمَعْ ودَعْ مَن عصاهُ ناحيةً ... لاَ يحْمِلُ الحمْلَ غيرُ مُحْتطِبِهْ

وأقول أيضاً :

أعارتكَ دنيا مُسْتَرَدٌّ مُعارُها ... غضارةَ عيشٍ سوف يذْوِى اخْضِرارُها
وهل يتمنَّى المحْكَمُ الرأيِ عيشةً ... وقد حان مِن دَهْمِ المنايا مَزارُها
وكيف تلذُّ العينُ هجعةَ ساعةٍ ... وقد طالَ فيما عَايَنَتْهُ اعتبارها
وكيف تَقَرُّ النفسُ فى دارِ نَقْلَةٍ ... قد استَيْقَنَتْ أنْ ليس فيها قرارها
وأنَّى لها فى الأرض خاطِرُ فكْرةٍ ... ولم تدْرِ بعد الموتِ أين مَحَارُها
أليس لها فى السعْيِ للفوزِ شاغلٌ ... أمَا فى توقيها العذابَ ازدِجارُها
فخابت نفوسٌ قادها لهْوُ ساعةٍ ... إلى حرِّ نارٍ ليسَ يُطْفَى أوارها
لها سائقٌ حادٍ حثيثٌ مبادِرٌ ... إلى غيرِ ماأضحَى إليهِ مدارُها
تُرادُ لأمْرٍ وهيَ تطلب غيرَهُ ... وتقصدُ وجْهاً فى سواهُ سِفارها
أمسرعةٌ فيما يسوءُ قيامَهَا ... وقد أيقَنَتْ أنَّ العذابَ قُصارها
تُعطِّلُ مَفروضاً وتَعْنَى بفضْلةٍ ... لقد شفَّها طُغيانُها واغترارُها
إلى ما لهَا مِنْهُ البلاءُ سكُونُها ... وعمَّا لهاَ منه النجاحُ نِفارُها
وتُعرِضُ عن ربٍّ دعاها لرشدِها ... وتَتْبعُ دنيا جَدَّ عنها فِرارها
فيا أيُّها المغرورُ بادرْ برجعةٍ ... فللهِ دارٌ ليسَ تخمُدُ نارها
ولا تتخير فانياً دونَ خالدٍ ... دليلٌ على محضِ العقولِ اختيارُها
أتعلمُ أنّ الحقَّ فيما تركتَه ... وتسلكُ سُبْلاً ليسَ يخْفَى عَوَارُها
وتتركُ بيضاءَ المناهجِ ضَلَّةً ... لبهماءَ يُؤذِى الرِجْلَ فيها عثارُها
تَسرُّ بلهوٍ مُعقبٍ بندامةٍ ... إذا ما انقضَى لاينقضى مُسْتَثارها

وَتفْنى الليالى والمسرّاتُ كلُّها ... وتبقى تِباعاتُ الذنوبِ وعارها
فهل أنت يامغبونُ مستيقظٌ فقدْ ... تبيَّن من سرِّ الخطوبِ استتارُها
فعجِّلْ إلى رضوانِ ربِّكَ واجتنبْ ... نواهيهُ إذ قدْ تجلَّى منارها
يُجدُّ مرورَ الدهرِ عنك بلاعبٍ ... وتُغْرى بدنيا ساء فيك سِرارها
فكم أمَّةٍ قد غرَّها الدهرُ قبلنا ... وهاتيكَ منها مقفراتٌ ديارها
تذكَّرْ على ماقد مضى واعتبر بهِ ... فإنَّ المذَكِّى للعقولِ اعتبارها
تحامَى ذُراها كلُّ باغٍ وطالبٍ ... وكان ضماناً فى الأعادِى انتصارُها
توافتْ ببطنِ الأرضِ وانشتَّ شملُها ... وعادَ إلى ذى مُلْكَةٍ إستعارها
وكم راقدٍ فى غفْلةٍ عن منيةٍ ... مُشمِّرةٍ فى القصْدِ وهو سعارها
ومَظْلَمةٍ قــد نالهــا مُتسلِّطٌ ... مُدِلٌّ بأيْدٍ عند ذى العرْشِ ثارها
أراكَ إذا حاولتَ دنياك ساعياً ... على أنَّهــا بادٍ إليكَ ازْورارها
وفى طاعةِ الرحمنِ يُقْعدك الونَى ... وتُبدى أناةً لايصحُّ اعتذارها
تُحاذِرُ إخواناً ستفنَى وتَنْقضى ... وتَنْسَى التى فَرضٌ عليك حِذارها
كأنىٌّ أرَى منك التبرُّمَ ظاهراً ... مُبيناً إذا الأقدارُ حلَّ اضطرارها
هناك يقول المرءُ من لى بأعْصُرٍ ... مضتْ كان مِلْكا فى يدىَّ خِيارها
تَنبَّهْ ليومٍ قد أظلَّك وِردُهُ ... عصيبٍ يُوافى النفسَ فيه احتضارها
تبرَّأَ فيــهِ منك كلُّ مُخالِطٍ ... وإنَّ من الآمالِ فيهِ انهيارُها
فــأُودِعْتَ فى ظلماءَ ضَنْكٍ مَقرُّها ... يلوحُ عليها للعيونِ اغْبِرارها
تُنادَى فلا تدرى المنادىَ مُفْردًا ... وقد حُطَّ عن وجهِ الحياةِ خِمارها
تُنــادَى إلى يومٍ شديدٍ مُفزِّعٍ ... وساعةِ حَشْرٍ ليس يَخْفَى اشتهارها
إذَا حُشِرَتْ فيه الوحوشُ وجُمِّعَتْ ... صحائفُنا وانثالَ فينا انتثارها
وَزُيِّنتْ الجنّاتُ فيه وأُزْلِفَتْ ... وأُذْكِيَ من نارِ الجحيمِ استعارها
وكُوِّرتِ الشمْسُ المنيرةُ بالضحى ... وأسرَعَ من زُهْرِ النجومِ انْكِدارها
لقد جلَّ أمرٌ كان منه انتظامُها ... وقد حلّ أمرٌ كان منه انتشارها
وسُيِّرتِ الأجبال والأرضُ بُدِّلتْ ... وقد عُطِّلَتْ من مالكيها عِشارها

فإمّا لدارٍ ليس يفنَى نعيمُها ... وإمّا لدارٍ لا يُفَكُّ إسارُها
بحضرةِ جبّارٍ رفيقٍ مُعاقبٍ ... فَتُحصَى المعاصِى كُبْرُها وصِغارها
ويندمُ يومَ البعثِ جانِى صِغارِها ... وتُهْلِكُ أهلِيها هناكَ كِبارها
ستُغْبَطُ أجسادٌ وتحيا نفوسُها ... إذا ماستوَى إسرارُها وجهارها
إذا حفَّهمْ عفوُ الإلهِ وفضْله ... وأسكنَهمُ داراً حلالاً عُقارها
سيلحقُهُمْ أهلُ الفُسوقِ إذا استوَى ... بحَلْبَةِ سَبْقٍ طِرفُهَا وحمارها
يَغِرُّ بنو الدنيا بدنياهُمُ التى ... يُظَنُّ على أهلِ الحظوظِ اقتصارها
هى الأُمُّ خير البرِّ فيها عُقوقُها ... وليس بغيرِ البذْل يُحْمَى ذِمارها
فما نال منها الحظَّ إلا مُهينُها ... وما المُلْكُ إلاّ قُرْبُها واعتمِارها
تهافتَ فيها طامعٌ بعد طـــامعٍ ... وقد بانَ لِلُّبِّ الذكىِّ اختبارها
تَطـامنْ لِغَمْرِ الحادثاتِ ولا تكُنْ ... لها ذا اعتمارٍ يجْتنيكَ غِمارها
وإيَّاكَ أن تغترَّ منها بما ترَى ... فقد صحَّ فى العقلِ الجلىِّ عِيارها
رأيتُ ملوكَ الأرضِ يبغون عُدَّةً ... ولذَّةَ نفسٍ يستْطاب اجترارها
وخلَّوْا طريقَ القصْدِ فى مبتغاهُمُ ... لمُتبعِهِ الصِغَارُ جَمّ صِغارها
وإنَّ التى يَبْغون نَهْجَ بقيــــَّةٍ ... مكينٌ لطلاَّب الخلاص اختصارها
هل العزُّ إلاّ هِمَّةٌ صحَّ صونُها ... إذا صان هِمَّاتِ الرجالِ انكسارُها
وهل رابحٌ إلاّ امرؤ متوكِّلٌ ... قنوعٌ غنىُّ النَفِس بادٍ وقارُها
ويلقَى ولاةُ الملكِ خَوْفاً وفكرةً ... تَضيق بها ذرْعاً ويَفنَى اصطبارها
عِياناً نرى هذا ولكنَّ سَكْرةً ... أحاطتْ بنا ما إنْ يَفيق خُمارها
تدبَّرْ من البانِى علىالأرضِ سقْفَهَا ... وفى علمِه مَعْمورُها وقفارها
ومَنْ يُمْسكُ الأجرامَ والأرضَ أمْرُهُ ... بلا عَمدٍ يُبْنى عليه قرارها
ومن قدَّر التدبيرَ فيها بحكمةٍ ... فصحَّ لديْها ليلُها ونهارها
ومن فتَقَ الأمواهَ فى صفحِ وجهِها ... فمنها يُغذَّى حبُّها وثمـــارها
ومن صيَّر الألوانَ فى نوْرِ نَبْتِها ... فأشرقَ فيها وردُها وبَهارها
فمنهنَّ مُخْضَرٌّ يروقُ بَصيصه ... ومنهنَّ مايغشَى اللِحاظَ احمرارها
ومن حفَرَ الأنهارَ دون تكلُّفٍ ... فثارَ من الصُمِّ الصِلابِ انفجارها

ومن رتَّبَ الشمسَ المنيرَ ابيضاضُها غُدُوًّا ويبدو بالعشىِّ اصفرارها
ومن خَلَقَ الأفلاكَ فامتدَّ جريُها وأَحْكمها حتى استقام مَدارها
ومنَ إنْ ألمَّتْ بالعقول رَزِيَّةٌ فليس إلى حىٍّ سواه افتقارها
تَجِدْ كَل هذا راجعٌ نحو خالقٍ له مُلْكُها مُنقادَةٌ وائتمارها
أبانَ لنا الآياتِ فى أنبيائِه فأمكنَ بعد العجزِ فيها اقتدارها
فأنطقَ أفواهاً بألفاظِ حكْمةٍ وما حلَّها إثْغارُها واتغارها
وأبرزَ مِن صُمٍّ الحجارةِ ناقةً وأسمعَهُمْ فى الحينِ منها حِوارها
ليُوقِنَ أقوامٌ وتَكفُرَ عصْبَةٌ أتاها بأسبابِ الهلاكِ قُدارها
وشقَّ لموسى البحرَ دون تكلُّفٍ وبانَ مِن الأمواج فيه انحسارها
وسلَّمَ مِن نارِ الأتون خَليلَهُ فلم يُؤذِهِ إحراقُها واعتِرارها
ونَجَّى من الطوفان نوحًا وهد هَدَتْ به أمَّةٌ أبدَى الفسوقَ شرارها
ومكّنَ داوداً بأيْدٍ وابنَهُ فتعسيرُها مُلْقىً لهُ وبدارُها
وذلَّلَ جبَّارَ البلادِ لأمرِه وعلَّمَ مِن طَيْرِ السماء حوارها
وفضَّلَ بالقرآنِ أمَّةَ أحْمدٍ ومكَّنَ فى أقصىَ البلادِ مُغارها
وشقَّ له بدرَ السماء وخصَّهُ بآياتِ حقٍّ لاَ يَحُلُّ مُعارها
وأَنْقذنا من كُفْرِ أربابِنا به وكان على قُطْبِ الهلاكِ منارها
فما بالُنا لانترك الجهلَ ويْحَنا لنسلمَ مِن نارٍ ترامىَ شرارُها

خاتمة (١)

هنا أعزك الله انتهى ماتذكرته إيجاباً لك ، وتقمناً لمسرتك ، ووقوفاً عند أمرك .

ولم أمتنع أن أورد لك فى هذه الرسالة أشياء يذكرها الشعراء ويكثرون القول فيها ، موفيات على وجوهها ، ومفردات فى أبوابها ، ومنعمات التفسير ، مثل الإفراط فى صفة النحول ، وتشبيه الدموع بالأمطار وأنها تروى السفار ، وعدم النوم ألبتة ، وانقطاع الغذاء جملة ، إلا أنها أشياء لاحقيقة لها ، وكذب لاوجه له ، ولكل شىء حد ، وقد جعل الله لكل شىء قدراً ، والنحول قد يعظم ولو صار حيث يصفونه لكان فى قوام الذرة أو دونها ، ولخرج عن حد المعقول . والسهر قد يتصل ليالى ، ولكن لو عدم الغذاء أسبوعين لهلك . وإنما قلنا إن الصبر عن النوم أقل من الصبر عن الطعام ، لأن النوم غذاء الروح ، والطعام غذاء الجسد ، وإن كانا يشتركان فى كليهما ولكنّا حكينا على الأغلب . وأما الماء فقد رأيت أن ميسوراً البنّاء ، جارنا بقرطبة ، يصبر عن الماء أسبوعين فى حمّارة القيظ ، ويكتفى بما فى غذائه من رطوبة .

وحدثنى القاضى أبو عبد الرحمن بن جحّاف (٢) أنه كان يعرف من كان لا يشرب الماء شهراً .

وإنما اقتصرت فى رسالتى على الحقائق المعلومة ، التى لايمكن وجود سواها أصلا ، وعلى أنى قد أوردت من هذه الوجوه المذكورة أشياء كثيرة يكتفى بها ، لئلا أخرج عن طريقة أهل الشعر ومذهبهم . .

وسيرى كثير من إخواننا أخباراً لهم فى هذه الرسالة ، مكنياً فيها عن أسمائهم على ماشرطنا فى ابتدائها .

وأنا أستغفر الله تعالى مما يكتب الملكان ، ويحصيه الرقيبان ، من هذا وشبهه ، استغفار من يعلم أن كلامه من عمله . ولكنه إن لم يكن من اللغو الذى لا يؤاخذ به المرء فهو إن شاء الله من اللمم المعفوّ ، وإلاّ فليس من السيئات والفواحش التى يتوقع عليها

---

(١) العنوان ليس فى الأصل ، ورأيت إضافته تزيد الأمر وضوحاً .

(٢) مر علينا فى الباب التاسع والعشرين .

العذاب . وعلى كل حال فليس من الكبائر التى ورد النص فيها .

وأنا أعلم أنه سينكر عليّ بعض المتعصبين على تأليفى لمثل هذا ويقول : إنه خالف طريقته ، وتجافى عن وجهته ، وما أُحلّ لأحد أن يظن فىّ غير ماقصدته ، قال الله عز وجل « يا أَيُّها الذينَ آمنوا اجْتَنِبُوا كثيراً مِن الظنِّ إنَّ بعضَ الظنِّ إثْم »(٣).

وحدثنى أحمد بن محمد بن الجسور ، حدّثنا ابن أبى دَليم ، حدّثنا ابن وضّاح ، عن يحيى بن يحيى(٤) ، عن مالك بن أبى أنس ، عن أبى الزبير المكى ، عن أبى شريح الكعبى ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إياكم والظن فإنه أكذب الكذب » .

وبه إلى مالك ، عن سعيد بن أبى سعيد المقبرى ، عن الأعرج ، عن أبى هريرة ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت » .

وحدثنى صاحبى أبوبكر محمد بن إسحاق(٥) ، حدّثنا عبدالله بن يوسف الأزدى ، حدّثنا يحيى بن عائذ ، حدّثنا أبوعدى عبد العزيز بن على بن محمد بن إسحاق بن الفرج الإمام بمصر ، حدّثنا أبو على الحسن بن قاسم بن دُحيم المصرى ، حدّثنا محمد ابن زكريا الغلانى ، حدّثنا أبو العباس ، حدّثنا أبو بكر ، عن قتادة ، عن سعيد بن المسيب أنه قال : وضع عمربن الخطاب رضى الله عنه للناس ثمانى عشرة كلمة من الحكمة ، منها : ضع أمر أخيك على أحسنه حتى يأتيك على مايغلبك عليه .

---

(٣) سورة الحجرات ، الآية ١٢

(٤) جاءت هذه الفقرة محرفة فى كل الطبعات العربية ، وفى الأصل ، فكانت « عن يحيى بن مالك » وقد أصلحناها ، أما الإسناد الأندلسى من السلسة فسبق أن عرفنا به . انظر :

* الباب ٣٠ الهامش رقم ١٨ .
* الباب ٢٩ ، الهامش رقم ٤ .

(٥) كان أبوبكر كما ذكرنا صديقاً حمياً لابن حزم ، وشاركه الرحلة والنفى ، وعرض لنا فيما سبق . انظر :

* الباب الثانى ، الهامش رقم ٤
* الباب الخامس ، الهامش رقم ١
* الباب ٢٨ ، الهامش رقم ١٠ .

ولا تظن بكلمة خرجت من فى امرئ مسلم شراً ، وأنت تجد لها فى الخير محملا ، فهذا أعزك الله أدب الله ، وأدب رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأدب أمير المؤمنين ، وبالجملة فإنى لا أقول بالمراياة ، ولا أنسك نسكاً أعجمياً . ومن أدّى الفرائض المأمور بها ، واجتنب المحارم المنهىّ عنها ، ولم ينس الفضل فيما بينه وبين الناس ، فقد وقع عليه اسم الإحسان ، ودعنى مما سوى ذلك ، وحسبى الله .

والكلام فى مثل هذا إنما هو مع خلاء الذرع ، وفراغ القلب ، وإن حفظ شيء ، وبقاء رسم ، وتذكّر فائت لمثل خاطرى ، لعجب على ما مضى ودهمنى . فأنت تعلم أن ذهنى متقلب ، وبالى مهصر بما نحن فيه من نبو الديار، والخلاء عن الأوطان ، وتغيّر الزمان ، ونكبات السلطان ، وتغيّر الإخوان ، وفساد الأحوال ، وتبدّل الأيام ، وذهاب الوفر ، والخروج عن الطارف والتالد ، واقتطاع مكاسب الآباء والأجداد ، والغربة فى البلاد ، وذهاب المال والجاه ، والفكر فى صيانة الأهل والولد ، واليأس عن الرجوع إلى موضع الأهل ، ومدافعة الدهر ، وانتظار الأقدار ، لاجعلنا الله من الشاكين إلا إليه ، وأعادنا إلى أفضل ماعودنا . وإن الذى أبقى لأكثر مما أخذ ، والذى ترك أعظم من الذى تحيّف ، ومواهبه المحيطة بنا ، ونعمه التى غمرتنا لاتحد ، ولا يؤدى شكرها ، والكلُّ مِنَحهُ وعطاياه . ولا حكم لنا فى أنفسنا ونحن منه ، وإليه منقلبنا ، وكل عارية فراجعة إلى معيرها ، وله الحمد أولاً وآخراً ، وعوداً وبدءا ، وأنا أقول :

جعلتُ اليأسَ لى حِصْناً ودِرْعاً ... فلم ألبسْ ثِيابَ المستضام
وأكثرُ مِن جميعِ الناسِ عندِى ... يسيرٌ صاننى دُونَ الأنام
إذا ماصحَّ لِى دينِى وعِرْضِى ... فلستُ لما تولَّى ذا اهتمام
تولَّى الأمسُ والغدُ لستُ أدرى ... أأُدْرِكُهُ ففيما ذا اغتمام

جعلنا الله وإياك من الصابرين الشاكرين ، الحامدين الذاكرين ، آمين آمين ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً .

* * *

كملت الرسالة ، المعروفة بطوق الحمامة ، لأبى محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم رضى الله عنه ، بعد حذف أكثر أشعارها ، وإبقاء العيون منها ، تحسيناً لها ، وإظهاراً لمحاسنها ، وتصغيراً لحجمها ، وتسهيلاً لوجدان المعانى الغريبة من لفظها ، بحمد الله تعالى وعونه ،وحسن توفيقه . وفرغ من نسخها مستهل رجب الفرد سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة [=١٣٣٨ م] ، والحمد لله رب العالمين .

خطوة على طريق الكمال

قلت وأنا أقدم الطبعة الأولى من « طوق الحمامة » فى صورته الجديدة : « لقد قوّمت الفقرات المضطربة ، وصوّبت الأسماء المحرّفة ، وعرّفت بالأعلام ما كان ممكناً ، صنعت ذلك ما أعانتنى عليه كتب التاريخ والمصادر الأخرى ، وأبقيت الجمل الغامضة على ما هى عليه ، خشية أن يكون تقويمى لها ، إهداراً لفكرة أرادها المؤلف ، أو عدواناً على غاية ارتضاها ، أو انحرافاً بما خفى من رأيه ، أو انعطافاً نحو جانب ما فكّر فيه » . وخلال الشهور القليلة التى تفصل بين الكتاب فى طبعته التى نفدت ، وفى طبعته التى تصدر الآن ، واليت النظر فى نص « الطوق » ، وسط المتاعب والشواغل ، خاصة وعامة ، ليكون أقرب إلى الكمال . كانت هناك هنات مطبعية صوّبتها ، وكلمات قلقة لم أتبين وجه الحق فيها ، واطمأن ظنى إلى تصويبها ، ووقعت على نصوص قليلة نقلها ابن أبى حجلة التلمسانى فى كتابه « ديوان الصبابة » من « طوق الحمامة » ، وأشار إليه مرة ، وأهمل الإشارة مرات ، فصوبت فى المعارضة معها ما وجدته قلقاً من كلمات وجمل « طوق الحمامة » ، وإن كانت هى أيضاً فى الجانب الأكبر منها تحتاج إلى تصويب [1] .

فى المقدمة ، الصفحة ١٦ ، السطر الثامن ، جملة : « . . . فهذا من الفَقْر . . . » ، ومع كلمة « الفقر » يمكن أن تفهم الجملة على تأويل بعيد ، ثم بدا لى أنها « اللغو » ، وتوقفت فى البدء عن تصويبها ، ولكنى وجدت ابن حزم يستخدمها فى خاتمة الكتاب ، فى الصفحة ١٩٥ ، يقول مشيراً إلى « الطوق » : « ولكنه إن لم يكن من اللغو الذى لا يؤاخذ به المرء . . . » ، فاطمأنّت نفسى إلى الظن الأوّل ، وبات عندى راجحاً ، وصححتها على هذا النحو ، فى هذه الطبعة .

---

(١) الدكتور الطاهر أحمد مكى : دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة ، ص ٣٣١ ، الطبعة الثانية ، مكتبة وهبة ، القاهرة ١٩٧٧ .

وفى الصفحة نفسها ، السطر الثانى عشر : « . . . لم يحسن يتقوى » ، ثم قرأتها فى أكثر من مكان من كتب التراث « يتقرى » ، وهى بمعنى ابن حزم أشبه ، فصححتها على هذا النحو .

فى الصفحة ٣١ ، فى السطر الثالث عشر ، صوّبت الآية القرآنية ، وخلط الناسخ ، ولا أقول ابن حزم ، بينها وبين آية شبيهة بها فى أول سورة النساء ، فأصبحت : « هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها » ، بعد أن كانت « وخلق منها » .

وفى « باب علامات الحب » ، الصفحة ٢٧ ، السطر الثالث عشر ، أضفت فقرة بين معقوفتين ، نقلتها عن كتاب « ديوان الصبابة » ، ونقلها عن ابن حزم دون أن يشير إليه ، فأصبحت فى الطبعة الثانية من الطوق على النحو التالى : « . . . واطراح الأشغال الموجبة للزوال عنه ، [والزهد فيها ، والرغبة عنها] ، والاستهانة بكل خطب جليل . . . » . وفى ضوء نَقْل « ديوان الصبابة » ، صححت فى السطر التالى للفقرة السابقة كلمة « الشيء » فأصبحت « المشى » لتكون الجملة « التباطؤ فى المشى » .

وفى الصفحة ٣٢ ، السطر الثالث : « يشتد القلق حتى توقف على الجليلة » ، ورأيت « الجليّة » فى هذا الموضع أدق ، ورجح عندى أنها المقصودة ، فآثرتها ، وصوّبت النص معها ، وأصبح : « . . . حتى توقف على الجلية » .

وفى « باب من أحب فى النوم » ، الصفحة ٣٧ ، السطر الخامس ، صوبت كلمة « أظنة » ، التى فى أول بيت الشعر ، لتصبح « أظنها » ، وفى البيت التالى له كلمة « تخيل » أصبحت « تحيّر » ، ومصدر تصويبى لها معارضتها مع رواية ابن أبى حجلة فى كتابه « ديوان الصبابة » ، وبه استقام المعنى .

وعن ديوان الصبابة صوبت أيضاً كلمة جاءت فى « باب من أحب من نظرة واحدة ، الصفحة ٤٦ ، السطر السادس ، وهى « ذو شك » فى بيت الشعر ، فأصبحت « ذو شرك » ، وهى أكثر تصويراً للمعنى الذى يريده ابن حزم .

وفى الباب الرابع عشر ، وهو « باب الطاعة » ، فى الصفحة ٧٣ ، السطر الرابع عشر ، جاءت هذه الجملة فى بيت الشعر : « وانتهز صبراً » ، واطمأنت نفسى

إلى أنها يجب أن تكون : « وانتهز صيداً » ، وصححتها على هذا النحو .

وفى الصفحة ١٦٨ ، فى السطر العاشر ، صوّبت ضبط كلمات فى بيت الشعر ، فأصبحت جرحُ جُبَارٌ . . . غير جُبَارِ» ، بعد أن كانت كلمة « جبّار» بتشديد الباء وهو خطأ .

وفى صفحة ١٨١ صوّبت الآية القرآنية ، فى السطر الأول ، فأصبحت « فى السموات ولا فى الأرض » ، بعد أن كانت فى الأصل « فى الأرض ولا فى السماء » .

ولقد نأمل مع الزمن ، ومع العثور على نصوص أخرى نقلت عن « الطوق » ، أن نضيف إليه مزيداً من التصويب والضبط ، ولسوف يسعد محقق « الطوق » أن يتلقى شاكراً وممتناً ملاحظات كل أولئك الذين لهم ملاحظات على الكتاب ، والله المعين على الصواب .

● **ملحق**

ابن حزم يبكي ديارهم في قرطبة

● **نص المرثية كما أورده ابن الخطيب في كتابه «أعمال الأعلام، في من بويع قبل الاحتلال من ملوك الإسلام»، ونشره ليفي بروفنسال بعنوان: «تاريخ إسبانيا الإسلامية» الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٥٦، ويشغل النص الصفحات ١٠٦ - ١٠٨.**

قال:

«وممن رثى قرطبة أيضا من وجوه أهلها، وأرباب النِّعمِ الموثَّلة بها، وأكثر التفجّع على دياره منها، لما استولى الخرابُ عليها عند فرار البرابر عنها، الفقيه الأديب أبو محمدٍ عليُّ بنُ أحمد ابن سعيد بن حزم، ابن وزير آل عامر الأكبر، فإني وجدت بخطّه في خبر ذكره قال:

«وقفت على أطلال منازلنا بحومة بلاط مغيث من الأرباضِ الغربية، ومنازلِ البرابر المستباحة عند معاودة قرطبة، فرأيتها قد محت رسومُها، وطمستْ أعلامُها، وخفيتْ معاهدُها، وغيّرها البلى، فصارتْ صحارىَ مجدبةً بعد العمران، وفيافيَ موحشةً بعد الأنس، وآكاماً مشوّهة بعدالحسن، وخرائب مفزعة بعد الأمن، ومآوى للذئاب، وملاعب للجان، ومغانيَ للغيلان، ومكامن للوحوش، ومخابئَ للصوص، بعد طول غنيانها برجال كالسيوف، وفرسان كالليوث، تفيض لديهم النعم الفاشية وتغصُّ منهم بكثرة القطين الحاشيةُ، وُتكَنّس في مقاصيرهم ظباء الانس الفاتنة، تحت زِبْرجٍ من غضارة الدنيا تذكّر نعيم الآخرة، حال الدهر عليهم بعدطول النضرة، فبدّد شملهم حتى ساروا في البلاد أيادي سَبا، تنطق عنهم الموعظة.

فكأنّ تلك المحاريبَ المنمَّقة، والمقاصيرَ المرشَّقة، التي كانت في تلك الديار كبروق السماء إشراقاً وبهجة، يقيِّد حسنُها الأبصارَ، ويجلي منظرُها الهموم، كأنْ لم تغن بالأمس، ولا حلَّها سادةُ الأنس: قد عبث بها الخرابُ، وعمَّها الهدم، فأصبحتْ أوحشَ من أفواهِ السباعِ فاغرةً، تؤذِّن بفناء الدنيا، وتريك عواقبَ أهلها، وتخبركَ عما يصير إليه كل ما قد بقي ماثلاً فيها، وتُزهِّدك فيها.

---

(١) انظر ص ١٢٦ من هذا الكتاب، وقارنه بماورد هنا.

وكررتُ النظر، ورددتُ البصر، وكدتُ أُستطارُ حزناً عليها، وتذكرتُ أيام نشأتى فيها، وصبابة لداتى بها، مع كواعبَ غيدٍ، إلى مثلهن يصبو الحليم، ومثّلتُ لنفسى انطواءهنّ بالفناء، وكونهن تحت الثرى، إثر تقطّع جمعنا بالتفرق والجلاء فى الآفاق النائية، والنواحى البعيدة، وصدّقت نفسى عن فناء تلك القصبة، وانصداع تلك البيضة، بعد ما عهدته من حسنها ونضارتها وزِبْرِجِها وغضارتها، ونضوته بفراقها من الحال الحسنة، والمرتبة الرفيعة، التى رفلتُ فى حللها ناشئاً فيها، وأرعيْتُ سمعي صوتَ الصدى، والبومَ زاقياً بها، بعد حركات تلك المنصدعة بعرصاتها، التى كان ليلها تبعا لنهارها، وفى انتشارها بسكانها، والتقاء عُمّارِها، فعاد نهارها تبعا لليلها فى الهدوء والاستيحاش، والخفوت والإخفاش، فأبكى عينى على جمودها، وقرع كبدى على صلابتها، وهاج بلابلى على تكاثرها، وحرّكنى للقول على نبوّ طبعى، فقلت:

[الطويل]

سلامٌ على دارٍ رَحَلْنا وغودرتْ ... خلاءً من الأهلين موحشةً قَفْرَا
تراها كأنْ لم تغنَ بالأمس بَلْقَعاً ... ولا عمرتْ من أهلها قبلنا دَهْرا
فيادارُ لم يُقْفِركِ منّا اختيارُنا ... ولو أنّنا نختار كنتِ لنا قَبْرا
ولكنّ أقدارًا من الله أُنفذتْ ... تدمِّرنا طوعًا لما حلّ أو قَهْرا
ويا خير دارٍ قد تُركتِ حميدةً ... سَقَتْكِ الغوادِى ما أجلَّ وما أسْرَا
ويا مُجْتَلىَ تلك البساتين حَفَّها ... رياضٌ قواريرٌ غدتْ بعدنا غبْرا
ويا دهرُ بَلِّغْ ساكنيها تحيَّتى ... ولو ساكنوا المْرَوْيَنِ أو جاوزوا النهرا
فصبرًا لسطو الدهرِ فيهم وحكْمِهِ ... وإن كان طَعْمُ الصبرِ مستثقلا مُرًّا
لئن كان أظماها فقد طال ما سَقَى ... وإنْ ساءنا فيها فقد طالما سرًّا
وأيتها الدارُ الحبيبة لا يَرُم ... ربوعك جو المزْنِ يهمى بها القطرا
كأنك لم يسكُنْك غيدٌ أوانسٌ ... وصِيدُ رجالٍ أشبهوا الأنجم الزهَرا
تفانَوْا وبادوا واستمرَّتْ نواهُمُ ... لمثلهم أسكبت مقلتى العبرا
سنصبرُ بعد اليُسْر للعسرِ طاعةً ... لعلّ جميلَ الصبرِ يُعقبنا يُسْرا
وإنىّ ولو عادتْ وعُدْنا لِعَهْدنا ... فكيف بمَنْ مِن هلها سكن القبرا
ويا دهرَنا فيها متى أنت عائدٌ ... فنحمدُ منك العودَ إن عُدْتَ والكرَّا
فيا ربَّ يومٍ فى ذراها وليلةٍ ... وصلنَا هناك الشمسَ باللهوِ والبدرا

فـــواجسميَ المضنَى وواقلبـيَ المغــرى ... ووانَفْسِيَ الثـكــلى وواكبــدى الحــرَّا
ويـاهَمٌّ ما أعـدى ويا شجـو مـا أبـرا ... ويـا وَجْدُ مـا أشجى ويابَـيْنُ مـا أفْـرا
ويـا دهـرُ لا تبعُـدْ ويـا عهـدُ لا تحُـلْ ... ويـا دمعُ لا تجمَـدْ ويـا سقم لا تــبرا
سـأندبُ ذاك العَهْـدَ ما قـامتْ الخضـرا ... عـلى الناس سقفًـا واستقلتْ بنا الغـبرا

كشاف عام

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ذ)

(ر)

(ص)

(ض)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ن)

(هـ)

(و)

فهرس القوافي

(ز)

(س)

فهرس الكتاب

صفحة

كتب أخرى للمحقق

- **امرؤ القيس : حياته وشعره**
  الطبعة السادسة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٩٣ .
- **دراسة فى مصادر الأدب .**
  الطبعة السابعة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٩٣ .
- **ملحمة السِّيد : دراسة مقارنة .**
  الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، ١٩٨٣ .
- **مع شعراء الأندلس والمتنبى .**
  للمستشرق الإسبانى غرسية غومث، الطبعة الخامسة، دار المعارف، القاهرة ١٩٩٢
- **بابلو نيرودا : شاعر الحب والنضال .**
  (نفد وتعاد طباعته الآن)
- **دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة .**
  الطبعة الرابعة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٩٣ .
- **القصة القصيرة : دراسة ومختارات .**
  الطبعة السادسة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٩٢ .
- **الشعر العربى المعاصر : روائعه ومدخل لقراءته .**
  الطبعة الرابعة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٩٠ .
- **دراسات أندلسية : فى الأدب والتاريخ والفلسفة .**
  الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٨ .
- **الفن العربى فى إسبانيا وصقلية .**
  للمستشرق الألمانى فون شال، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٥ .
- **الحضارة العربية فى إسبانيا .**
  للمستشرق الفرنسى ليفى بروفنسال، الطبعة الثانية، دار المعارف، ١٩٨٥ .
- **التربية الإسلامية فى الأندلس .**
  للمستشرق الإسبانى خوليان ريبيرا ، دار المعارف، القاهرة ١٩٨١ .
- **الأخلاق والسير لابن حزم .**
  تحقيق وتقديم وتعليق، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة ١٩٩٢ .

- الأدب المقارن : أصوله ومناهجه ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٩ .
- فى الأدب المقارن : دراسات نظرية وتطبيقية ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، ١٩٩٢ .
- الشعر الأندلسى فى عصر الطوائف .
ترجمة كتاب المستشرق الفرنسى هنرى بيريس ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٩٠ .
- الشعر العربى فى إسبانيا وصقلية ، جـ ١ للمستشرق الألمانى فون شاك ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٩١ .
- الأدب الأندلسى من منظور إسبانى ، دراسات لكبار المستشرقين الإسبان ، مكتبة الأداب ، القاهرة ١٩٩٠ .
- مناهج النقد الأدبى (ترجمة) ، ط ٢ ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٩٢ .

كتب تحت الطبع :
- مقدمة فى الأدب الإسلامى المقارن .
- الحب عند دانتى وابن حزم ، دراسة مقارنة ، مع ترجمة كتاب الحياة الجديدة لدانتى .
- تحفة الأنفس وشعار سكان أهل الأندلس ، رسالة فى الجهاد ونظم الحرب فى الإسلام ، لابن هذيل (تحقيق) .
- فن الشعر ، أو الوافى فى علم القوافى لأبى البقاء الرندى (تحقيق) .

رقم الإيداع	٢٠٠١/١٠٥٧٦	
الترقيم الدولى	977-02-6172-5	ISBN

١/٢٠٠١/٤٢

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)